تأليف
الدكتور مصطفى العبادي
أستاذ التاريخ القديم
جامعتي الاسكندرية وبيروت العربية

الأمبراطورية الرومانية

النظام الأمبراطوري ومصر الرومانية

دار المعرفة الجامعية
٤٠ ش سوتير - الأزاريطة - ت ٤٨٣٠١٦٣
٣٨٧ ش قنال السويس - الشاطبي - ت ٥٩٧٣١٤٦

الأمبراطورية الرومانية

الأمبراطورية الرومانية

النظام الأمبراطوري ومصر الرومانية

تأليف

الدكتور مصطفى العبادي

أستاذ التاريخ القديم

بجامعتي الاسكندرية وبيروت العربية

١٩٩٩

دار المعرفة الجامعية

٤٠ ش سوتير - إسكندرية

ت : ٤٨٣٠١٦٣

إهــداء

أقدم هذا العمل المتواضع إلى ذكرى أستاذي .

هيوجو جونز

الذي أُعتُبِر مع روستفتزف أعظم من اهتم بدراسة الإمبراطورية الرومانية في القرن العشرين ولقد كان لي شرف العمل معه في حقل الإمبراطورية الرومانية على مدى عدة سنوات ، فأفدت منه علماً ومنهجاً .

وإن في دأبي على العمل في الميدان الذي أحبه ووهب له حياته ، لنوع من الوفاء لذكراه ومواصلة للسير على الدرب .

مصطفى العبادي

البَابُ الأول

النظام الأُمبَراطوريّ

شكر

تم انجاز هذا العمل في ظروف « بيروتية » استثنائية ، ولولا مساعدة زوجتي في كتابة مخطوطة الكتاب ، وإشراف تلميذتي وزميلتي ، دكتوره نبيله حسن محمد ، على تصويب البروفات ، لما خرج الكتاب في الوقت المقدر له ولا في هذه الصورة فلهما مني خالص الشكر وصادق التقدير .

كما أتوجه بالشكر إلى كثيرين ممن أعانوني في هذا العمل وخاصة المشرفين على مكتبة جامعة بيروت العربية ، وأخيراً وليس آخراً ، كل من أشرف على النشر والطباعة الذين لم يدخروا وقتاً أو جهداً في اتمام العمل بسرعة وكفاءة عالية وروح سمحة كريمة .

المؤلف

مقدّمة

ينقسم تاريخ روما القديم إلى ثلاثة عصور تقليدية : العصر الملكي ويشمل الفترة الأولى (منذ تأسس المدينة ، ويفترض له عرفا عام ٧٥٣ ق.م.) ، حتى عام ٥٠٩ ق.م. ، حين يبدأ العصر الجمهوري نتيجة لثورة وطنية . وتستمر الجمهورية الرومانية نحوا من خمسة قرون ، إنتهت بسلسلة من الصراعات الحزبية والحروب الأهلية ، حتى وضع أوكتاڤيانوس لها حدا في عام ٢٧ ق.م. وذلك باستحداث نظام دستوري وسياسي جديد عُرف بالنظام الرئاسي . ورغم أن أوكتافيان حافظ على هيكل النظام الجمهوري في جميع مظاهره من حيث استمرار الانتخابات لجميع مناصب الحكم ، وبقاء المجالس التشريعية ، إلا أنه اتخذ لنفسه منصبا جديدا خارج ذلك الهيكلي الجمهوري ، وهو منصب المواطن الأول ، أو بعبارة أخرى رئيس الدولة Princeps Civitatis وبصفته «رئيسا»، اصطلح على تسمية النظام الجديد الذي أقامه أوكتافيان باسم النظام أو فترة الحكم الرئاسي (Principate) . وفي واقع الأمر أصبح أوكتاڤيانوس، أو أغسطس Augustus - كما سيلقب فيما بعد - هو الحاكم الفعلي والمتصرف في جميع شئون الدولة ؛ فجمع في يديه كل سلطة سياسية وقضائية وعسكرية. ونظراً لأن سلطة القيادة العسكرية المطلقة

imperator ، أصبحت أخطر صفة ملازمة لشخصية رئيس الدولة الجديد ، فقد غلب على المؤرخين أن يطلقوا على العصر الذي بدأه أغسطس اسم الامبراطورية الرومانية . وتبدأ الامبراطورية على هذا الاساس مع تأسيس النظام الرئاسي الجديد عام ٢٧ ق.م. على يدي أغسطس ويستمر في الضرب حتى سقوط روما سنة ٤١٠ ميلادية . ورغم سقوط مدينة روما في القرن الخامس الميلادي أمام غزوات القبائل المتبربرة في الغرب ، استمرت الامبراطورية الرومانية في الشرق في مدينة القسطنطينية . ولكن سلطان القسطنطينية يتقلص عن معظم أملاكها في الشرق مع قيام الدولة العربية الاسلامية في القرن السابع الميلادي . أما القسطنطينية ذاتها وممتلكاتها الأخرى في آسيا الصغرى وشرق أوربا فتستمر عدة قرون بعد ذلك فيما اصطلح على تسميته بالامبراطورية البيزنطية ، التي تسقط نهائيا في يدي محمد الفاتح سنة ١٤٥٢ ميلادية .

لكن الامبراطورية الرومانية لم تبق محافظة على النظام الأغسطسي طيلة تاريخها القديم ، ولكن طرأت عليها تعديلات جوهرية في النظم والدين غيرت من شخصيتها تغييرا بعيدا . ولذلك اتفق المؤرخون على تقسيم الامبراطورية الرومانية إلى مرحلتين متميزتين . المرحلة الأولى تشمل القرون الثلاثة الأولى ، أي من ٢٧ ق.م. إلى ٢٨٤ ميلادية ، وهي بداية حكم الامبراطور دقلديانوس، الذي أعاد تنظيم الامبراطورية ، ولذلك يعتبر مؤسس الفترة الثانية من الامبراطورية . ولكن هناك من المؤرخين من يؤثر اعتبار عام ٣٢٤ ميلادية ، وهي بداية حكم الامبراطور قسطنطين الذي أعلن المسيحية دينا رسميا للدولة ، بداية أيضا للفترة الثانية من الامبراطورية ، على أساس أن أهم ما يفرق بين الفترتين هو اختلاف الدين ، ففي الفترة الأولى كانت الديانة الوثنية هي السائدة ، وفي الفترة الثانية سادت المسيحية .

وكما انقسمت الدولة إلى فترتين متميزتين من حيث أوضاعها الاجتماعية

والاقتصادية والادارية والدينية ، كذلك اختلفت مصادر كل من الفترتين ، كما سيتضح فيما بعد . ونحن في دراستنا للامبراطورية الرومانية سنقسمها إلى موضوعين رئيسيين : الأول يتناول النظام الامبراطوري كما أقامه أغسطس في روما ، وأخضع له الامبراطورية ، والثاني دراسة تطبيقية على إحدى الولايات وهي مصر في العصر الروماني .

الفصل الأوّل

المصادر التاريخيّة

للإمبراطورية الرومانية مصادرها التي يعتمد عليها الباحث الحديث ، للتعرف على نظمها السياسية وأوضاعها الاجتماعية والاقتصادية والادارية ـ. وسوف نحاول ان نعرض لأهم هذه المصادر بأنواعها المختلفة حسب الحقب التاريخية ، مبتدئين بعصر الامبراطور اغسطس أولا . ورغم أننا عادة نبدأ عرض المصادر بتقديم أعمال المؤرخين (أو ما اصطلح على تسميته بالمصادر الأدبية) أولا ، إلا أننا سنقدم لعصر أغسطس بالنقش الذي قام هو بكتابته بنفسه في نهاية حياته ليكتب على ضريحه . وهو سجل بأعماله يسمى : « أعمال أغسطس المقدس Res Gestae Divi Augusti » ونظراً لأهمية هذا النقش ، كتب من عدة نسخ ونقش على المباني العامة في عدد من المدن . وظل هذا السجل بأعمال أو منجزات أغسطس مجهولا ، حتى اكتشفت نسخة مهشمة منه في مدينة أنقره ، استكملت بأجزاء عثر عليها في انطاكية وأماكن أخرى . ومنذ اكتشاف نقش أنقره في نهاية القرن الماضي ، أصبح يطلق عليه اصطلاحا « أثر أنقره Monumentum Ancyranum » ؛ وتوفر العلماء عليه دراسة وبحثا نظرا لأنه صدر عن الامبراطور أغسطس نفسه لينشر على الناس ، وليظل بينهم شاهدا على ما قدم للدولة والبشرية من خدمات . وفي الواقع يعتبر أثر أو

نقش أنقره من أهم ما نمتلك من الوثائق التاريخية على الاطلاق ، ليس فقط بسبب أهمية كاتبه وهو أغسطس ، ولكن بسبب أهمية ما اشتمل عليه من المعلومات . فهو مكتوب على طريقة « كشف الحساب الختامي » عن حكم اغسطس في كل أوجه النشاط التي شارك فيها ، وما أكثرها : في المال والادارة والسياسة والنظم والحرب والمنشآت العامة ، وغيرها . وهو شديد الاهتمام بالشئون المالية ، وخاصة ما أنفقه على الدولة من ماله الخاص ، ويتعمد ذكر الأرقام والتفصيلات ، ونظرا لأن الإيجاز هو الطابع الغالب على لغته وتعبيراته ، فقد قام العديد من كبار العلماء بالتوفر على دراسته وشرحه ، ويأتي على رأسهم العالم الألماني الكبير تيودور مومسن Theodor Mommsen ، الذي يعتبر أهم من ساهم في نشر النقوش اللاتينية في العالم ، وقد أفاد منها كثيرا في دراسته المشهورة عن الدولة الرومانية . ويمكننا أن نضيف في هذا المجال مجموعة الوثائق التي تمّ تجميعها عن عصر أغسطس واعتنى بنشرها العالمان جونز وإهرنبيرج .
(V. Ehremberg / A.H. M. Jones)

باتيركولوس

وقد وصلتنا من عصر أغسطس بعض كتابات المعاصرين له ، منها خمسة وثلاثون فصلا كتبها فيليوس باتيركولوس (Velleius Paterculus) ، الذي تولى منصب البريتور ـ وهو في سن الثلاثين ـ عندما توفي أغسطس سنة ١٤ق.م. أي أنه ولد ونشأ في حكم أغسطس ، وقام بكتابة مختصرة لتاريخ روما . ويعيب كتابة باتيركولوس شدة حماسه للإمبراطور ، مما يدل على مدى شعبية أغسطس ونجاح أساليبه الدعائية حتى بين أفراد طبقة النبلاء في المجتمع الإيطالي الذي كان ينتمي إليهم هذا المؤرخ . ويكفي للدلالة على مدى إعجاب باتيركولوس بأعمال أغسطس بعد عودته منتصرا إلى روما سنة ٢٩ ق.م. قوله : « لم يعد هناك حاجة لصلاة أو دعاء ، إذ لم يبق شيء يرجوه البشر من الآلهة أو تستطيع الآلهة أن تمنحه للبشر ، إلا

وقد منحها أغسطس للدولة وللعالم أجمع بعد عودته إلى المدينة » . ورغم ما تكشفه هذه العبارة من الإعجاب الشديد والجنوح إلى المبالغة المفرطة في وصف أعمال أغسطس ، إلا أن باتيركولوس يتمتع بصفة المعاصرة ، فهو يصف أعمالا وإنجازات شاهدها أو كان قريبا منها ، ولذلك أهمية بالغة بالنسبة للدارس الحديث .

استرابون :

وهناك مصدر معاصر آخر وهو كتاب استرابون الجغرافي . فقد عاش استرابون في فترة حكم أغسطس وتيبريوس من بعده وتوفي حوالي سنة ٢١ م . ورغم أنه كتب كتابا في وصف العالم جغرافيا ، وينقسم إلى سبعة عشر جزءا وزع عليها أقاليم العالم ، إلا أن كتابته هي من نوع الجغرافيا التاريخية ، فهي تهتم بوصف المكان بقدر ما تهتم بوصف الانسان الذي يعيش فيه . ونظرا لأنه أمضى معظم حياته فيما بين سقوط الجمهورية وقيام الامبراطورية (٦٤ ق.م. - ٢١م) ، يعتبر كتابه من أهم السجلات المعاصرة لتلك الحقبة الخطيرة . ونظرا لثقافته الواسعة ، وخبرته الكبيرة ، في أرجاء الامبراطورية الرومانية التي زار كثيرا من أقاليمها ، فإنه كان ملما بالأحوال والنظم التي سادت في نهاية الجمهورية ومدركا لكثير من التغيرات التي استحدثت مع قيام الامبراطورية . وإذا علمنا أن إسترابون كان من أتباع المدرسة الرواقية في الفلسفة والأخلاق ، وهي مدرسة توصي بدرجة عالية من ضبط النفس وميل إلى الزهد وإيمان بوحدة الجنس البشري ، لذلك لم يكن غريبا إن وجدنا كتابة استرابون تتميز بالموضوعية وأحيانا بدرجة عالية من الجفاف والبعد عن العاطفة . وكل هذا يزيد من قيمة كتابته في نظر المؤرخ الحديث . ويكفي أن نقارن بين لغته ولغة باتيركولوس في وصف أعمال أغسطس فيما يعرف بتسوية ٢٧ ق.م. يقول استرابون « كانت الولايات قد قسمت بطرق مختلفة ، أما الآن ، فهي كما نظمها قيصر أغسطس . فعندما عهد إليه وطنه بقيادة

الامبراطورية ، ومُنح السلطة في الحرب والسلم مدى الحياة ، قسم أملاك الرومان إلى قسمين ، قسم لنفسه ، والآخر للشعب ، لنفسه أخذ كل الولايات التي تحتاج إلى حامية عسكرية . . . ومنح القسم الآخر للشعب وهو القسم الآمن ، سهل الحكم ، وظل بغير قوة عسكرية » . هذه لغة تختلف كل الإختلاف عن أسلوب معاصره باتيركولوس . ونحن نجد عند استرابون مادة تاريخية حقيقية وليس فقط مجرد أوصاف وتعميمات مرسلة .

ومن الطريف أن استرابون زار ، كما ذكرنا ، معظم ولايات العالم الروماني ووصفها ، وأحيانا شارك في بعض أحداثها ، فمن ذلك أنه حضر إلى مصر في سنة ٢٤ ق.م. . وأقام بها أربع سنوات ، ويعتبر وصفه لمصر ولمدينة الاسكندرية بالذات من أهم مصادر معلوماتنا عن الأوضاع فيها في تلك الفترة . ولما خرج والي مصر آنئذ « إيليوس جالوس » في حملة ضد الجزيرة العربية ، وأورد وصفا للحملة في كتابه . ويعتبر هذا الفصل أقدم وصفا نمتلكه عن بعض أقاليم الجزيرة العربية ، كتبه شاهد عيان بنفسه . وهو يورد كثيرا من أسماء المدن والقبائل كما يصف معالم البلاد . ومن هذه الأمثلة القليلة نرى أهمية كتاب استرابون كمصدر تاريخي للفترة الأولى من قيام الامبراطورية الرومانية ، فقد كان ملما بأحوال مدينة روما وشئون الحكم فيها ، وهي التي يفتخر بأنه زارها عدة مرات ، كما كان لديه دراية مباشرة بمعظم ولاياتها نتيجة لرحلاته المتعددة إليها .

شعراء العصر الأغسطسي :

ويهتم الدارس لعصر أغسطس بنوع آخر من المصادر ونقصد به أعمال الشعراء الذين عاشوا تحت حكمه نظرا لحرص أغسطس على استخدام الشعر والشعراء لأغراض الدعاية لعهده الجديد ، بحيث أصبح هناك ما اصطلح على تسميته «الأغسطسية Augustanism » وهي فلسفة

الحكم الجديدة والتي حاول بعض الشعراء أن يبشروا بها وأن يمتدحوها ، طمعا في الفوز برضاء الامبراطور عنهم أو تجنبا لسخطه عليهم . ويأتي على قمة هؤلاء الشعراء « فيرجيليوس » Vergilius ، صاحب أشهر ملحمة رومانية وهي « الإينياده » Aeneid التي كتبها بتكليف من أغسطس نفسه . ورغم أن موضوع الملحمة هو تأسيس روما القائم على أسطورة قديمة ، ولكن التصور الفني لها هو أنه إذا كان « رومولوس » قد أسس مدينة روما في القرن الثامن قبل الميلاد ، فإن أغسطس هو الذي ردّ لها الحياة بعد أو أوشكت الحروب الأهلية أن تقضي عليها . ونجد شخصية روما وشخصية أغسطس ماثلتين في الملحمة بوضوح كامل وتعتبر الإينياده مثلا من أمثلة الإلتزام السياسي في ذلك العصر .

ويعاصره شاعر آخر « هوراتيوس » Horatius الذي لا يعتبر شاعرا سياسيا مثل فيرجيليوس ، ولكنه كان شاعرا ملتزما على أي حال . ويظهر ولاءه للعهد الجديد في عدد من قصائده وخاصة فيما يعرف بالأناشيد (Odes) التي اشتهرت باسم « القصائد الرومانية » والتي يمجد فيها الفضائل الرومانية القديمة التي كان يدعو ويبشر بها الامبراطور أغسطس ، وأهم هذه الفضائل هي ، الاعتدال والشجاعة والوطنية وبساطة المعيشة والعدل والتقوى . وإن دعوة هوراتيوس لهذه الفضائل باعتبارها المنقذ الوحيد لروما ، فإنه يكون قد سبق ومهّد لسياسة أغسطس في الإصلاح الاجتماعي بخمس سنوات على الأقل .

هذه نماذج من الحياة الأدبية في العصر الأغسطسي والتي تساعد المؤرخ على الإحساس بمشاعر العصر واساليبه . فرغم انها لا تقدم معلومات تاريخية عن احداث او تشريعات أو انجازات ولكن المؤرخ يجد فيها اصداء لما يحدث في المجتمع ، وكثير منها يفيدفي فهم الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية ، فحين نجد فيرجيليوس أو هوراتيوس ، يتحدثان عن حياة الريف . فهما يتحدثان عن تجربة حقيقية ويمثلان هنا طبقة ملاك الأرض ولو أنهما كانا أصحاب ملكية محدودة منحها لهما

أغسطس . وكذلك حين نلمح في كتابات هوراتيوس إشارات إلى بعض المعاصرين وعلى رأسهم الوزير « مايكيناس » ، نستطيع أن نتعرف على الطبقة الحاكمة وأصحاب النفوذ في ذلك العصر ، ومن هنا كانت أهمية الأعمال الأدبية في نظر المؤرخ .

تاكيتوس :

أول مؤرخ عظيم في العصر الامبراطوري هو « تاكيتوس » Tacitus (٥٥ - ١١٥م) في النصف الثاني من القرن الأول وبداية القرن الثاني الميلادي الذي ينتمي إلى دوائر السناتوس وكتب في عصر الامبراطور تراجان . وبحكم انتمائه للسناتوس ودوائره فقد كان شديد الحساسية للشئون السياسية كما كان على علم بأعمال ووثائق هذه الهيئة السياسية الخطيرة . ومن أهم المصادر التي اعتمد عليها ، مجموعة وثائق السناتوس المعروفة اصطلاحا باسم Acta Senatus ، وهي بمثابة محاضر جلساته ، وتتضمن المناقشات وخطب الأعضاء والأباطرة ، وكذلك النشرة اليومية Acta diurna التي كانت تصدر عن الادارة الحكومية متضمنة اهم أحداث اليوم وجميع القرارات والبيانات الرسمية . كما اطلع على جميع أعمال المؤرخين السابقين . من هذا نجد ان تاكيتوس قد اتيحت له فرصة الالمام باكبر قدر من المعلومات عن الامبراطورية الرومانية خلال القرن الأول . فاذا اضفنا الى هذا مشاركته الشخصية في الحياة العامة ، وقيامه بزيارة بعض الولايات مثل بريطانيا وجرمانيا ، سواء بحكم صلاته العائلية ، او صفته الرسمية ، فنجد ان تاكيتوس ، جمع بين الخبرة الشخصية والدراسة ، وقد كتب عدة كتب من اهمها « أجريكولا » Agricola حاكم بريطانيا الروماني وكان تاكيتوس قد تزوج ابنته . وكتابه الثاني عن جرمانيا التي ذهب إليها مرافقا لاحدى الحملات واهتم بوصف سكانها اهتماما خاصا . على أن اهم كتبه في التاريخ من غير شك « الحوليات » Annales وكتاب « التواريخ » Historiae ويتناول كتاب الحوليات تاريخ روما نيا

بين حكم تيبيريوس وفسباسيان أو ما بين ١٤، ٦٦ ميلادية ، مع بعض الثغرات فيما بينها . اما كتاب التواريخ فهو يهدف إلى أن يتناول الفترة من ٦٩ الى ٩٦ ميلادية أي من فسباسيان الى تراجان . ولكن لسوء الحظ ، فقد معظم اجزائه ولم يصلنا سوى الجزء الخاص لسنة ٦٩ - ٧٠م وهي السنة المعروفة باسم « الأباطرة الأربعة » وقد اوردها في شيء كثير من التفصيل . ورغم ما يتمتع به تاكيتوس من منزلة رفيعة بين مؤرخي الامبراطورية لنظراته الناقدة وتحليلاته الذكية ومعلوماته الدقيقة واحساسه المرهف بشئون السياسة الرومانية وضوابطها ، إلا انه مؤرخ سياسي قبل كل شيء ومؤرخ حزبي بالدرجة الأولى . فالجوانب السياسية هي أوضح اجزاء في كتاباته وخاصة فيما يتعلق بالأساليب السياسية التي كان يتبعها الأباطرة والحكام ، وفي ثنايا كتاباته نتعرف على كثير من مراكز القوى واصحاب النفوذ . ولكن يعيب كتابة تاكيتوس انه ملتزم في تاريخه بسياسة الحزب الذي ينتسب اليه وهو حزب السناتوس . وتكشف كتاباته وألفاظه عن كراهية شديدة للأباطرة وخاصة للأسرة الحاكمة التي أوجدها اغسطس والتي تعرف باسم اسرة يوليوس وكلوديوس . وتصل كتابته في « الحوليات » حد الاسفاف والمهاترة حين يكتب عن الامبراطور نيرون ، فيطلق لقلمه وخياله العنان لتصوير الفساد والانحراف داخل قصر هذا الامبراطور وحياته الشخصية . ومما يزيد في خطورة كتابات تاكيتوس هو مهارته الشديدة في الكتابة والتحليل ، هذا الى استخدامه لأسلوب لاتيني رفيع يعتبر من ارقى الاساليب الأدبية في اللغة اللاتينية . ولكنه احيانا يولع بالغموض ويتمثل ذلك في « الحوليات » حين يعمد إلى الالغاز في التهجم والنيل من بعض الشخصيات وتوصف هذه العبارات بلفظ innuendo (التورية والتلميح) . وفي الواقع أن تاكيتوس يمثل اتجاها سائدا بين بعض المؤرخين الرومان الذين يمثلون سياسة السناتوس ويتطلعون الى احلام غامضة في عودة النظام الجمهوري .

سويتونيوس :

عاش « سويتونيوس » Suetonius فيما بين ٦٩ - ١٥٠م وعمل في القصر الامبراطوري سكرتيرا للامبراطور . وقد عالج الكتابة التاريخية على طريقة كتابة « السِيَر » وقد وصلنا من أعماله سير الأباطرة الإثني عشر Vitae Duodecem Caesarum باللغة اللاتينية ، ويتناول فيه سير الأباطرة ابتداء من يوليوس قيصر (Divus Julius) حتى دوميتيانوس ، أي انه ينتهي في سنة ٩٦ ميلادية . وكتابته ذات طابع قصصي وولع بايراد الأخبار الغريبة ، وتصويره لشخصيات الأباطرة ، يغلب عليها طابع الإثارة فهو يجعل يوليوس قيصر مثلا ، يتفاخر بأنه ينحدر من نسل الآلهة الخالدة . وفي عرضه لسير أباطرة أسرة يوليوس كلوديوس ، يفرق في وصف الانحرافات والقصص ذات الإثارة الجنسية إلى جانب أعمال العنف والقسوة . ورغم ذلك فبحكم موقعه في القصر الامبراطوري فقد استطاع ان يستمد معلومات كثيرة قيمة من « دار حفظ الوثائق الرسمية » . ويجب هنا ان ننبه إلى أن هؤلاء المؤرخين من أمثال تاكيتوس وسويتونيوس لم يهاجموا الأباطرة الذين عاشوا في ظلهم ، وكانوا يطلقون لأقلامهم العنان في مهاجمة الأباطرة السابقين وخاصة أولئك الذين ينتمون إلى أسرة انقرضت من الحكم .

بلوتارخ :

وهو من كتاب القرن الثاني الميلادي واشتهر بكتابه الخالد عن « سير عظماء اليونان والرومان » ورغم أنه لم يكتب عن الأباطرة إلا أن السيرتين اللتين أوردهما عن يوليوس قيصر وماركوس انطونيوس تفيدنا كثيرا في فهم ظروف نهاية الجمهورية وقيام الامبراطورية ، خاصة وأن حياة انطونيوس السياسية تتصل اتصالا مباشرا بحياة اغسطس ، ومما يزيد من أهمية هاتين السيرتين أنه اعتمد اعتمادا كبيرا على ما كتبه كاتب معاصر لهما هو « أسينيوس بوليو » Asinius Pollio الذي عاش وكتب احداث الحرب

الأهلية فيما بين ٦٠ ـ ٤٢ ق م وقد فقد الآن تاريخ بوليو عن الحرب الأهلية الرومانية ولا نعرفه إلا عن طريق هاتين السيرتين لبلوتارخ وما كتبه مؤرخ آخر من القرن الثاني الميلادي أيضاً وهو « ابيانوس » Appianus الذي استخدم اللغة اليونانية (مثل بلوتارخ) في كتابه عن الحرب الأهلية .

كتاب سير الأباطرة :

ويعرف اصطلاحا باسم Historia Augusta ، وهو عبارة عن مجموعة سير لأباطرة القرنين الثاني والثالث فيما بين هادريان ودقلديانوس وقد كتبها مؤلفون مختلفون ويزعم جامعها أنها وضعت في عصر دقلويانوس وقسطنطين ، ولكن من المحتمل أنها كتبت بعد ذلك . ورغم أنها من تاريخ متأخر إلا أنها ذات قيمة ، لاعتمادها على مصادر جيدة بالنسبة لأباطرة القرن الثاني وبداية القرن الثالث ، أي حتى عصر كراكلا (٢٣٨ ميلادية) ، أما بعدَ ذلك تفقد سير الأباطرة حتى دقلديانوس أية قيمة تقريبا . ومن الواضح أن كتاب هذه السير المتأخرة (للفترة ٢٣٨ ـ ٢٨٤) لم يكن لديهم مصادر معاصرة يستمدون منها مادتهم التاريخية ؛ ولذلك أطلقوا لخيالهم العنان لملء الفجوات في معلوماتهم . وهكذا تختلف قيمة هذه المجموعة من السِّيَر حسب اختلاف كتابها وزمان الأباطرة ؛ ولذلك يجب أن يتعامل معها الدارس الحديث بحذرٍ شديد .

بلنيوس الكبير :

بلنيوس Plinius من كتاب القرن الأول الميلادي . ولم يكن مؤرخا ولكنه تصدى لكتابة موسوعة علمية أسماها « التاريخ » الطبيعي » Historia Naturalis وهي عبارة عن مزيج من المعلومات المختلفة ذات الطابع العلمي احيانا ، مثل الدراسات المستفيضة التي يقدمها عن النباتات والحيوانات ، أو ذات طابع إقتصادي مثل ما يورده من اخبار

الصناعة والتجارة ، هذا الى معلومات كثيرة في وصف البلاد والشعوب . ورغم انه لا يتحدث عن التاريخ والنظم أو عن السياسة والإدارة ، إلا ان حرصه الشديد على اضافة معلومات جديدة مهما كلفه ذلك من استطراد وخروج عن الموضوع ، جعل كتابه العظيم مصدرا مفيدا لمؤرخ الجوانب الاجتماعية والاقتصادية من التاريخ ، وخاصة بالنسبة للفترة التي عايشها وهي القرن الأول من الجمهورية .

بلنيوس الصغير :

وهو ابن أخت الكاتب السابق ، وعاش في عصر الامبراطور تراجان (٩٨ - ١١٧م) وكان على صلة وثيقة به وتعتبر الرسائل التي تبادلها بلينوس الصغير مع هذا الامبراطور من المصادر التي تلقى ضوءاً على جانب العلاقات الشخصية بينهما . ورغم أن بلنيوس الصغير يقابل صداقة الامبراطور بولاء وتأييد ، تصل إلى حد المدح والاطراء ، إلا أن بعض رسائله تفيد مؤرخ الحياة الاجتماعية عن طريق الأشخاص الذين يرد ذكرهم في الخطابات مثل احد رسائله الى الامبراطور يطلب اليه ان يمنح طبيبا مصريا عالجه من مرض عضال ، المواطنة الرومانية . فيرد الامبراطور بأنه لا يملك ذلك ، لأن الطبيب من طبقة المصريين الذين يلزم ان يمنحوا مواطنة الإسكندرية أولاً حتى يمكن ان يُمنحوا المواطنة الرومانية بعد ذلك . فمثل هذه الرسالة تدلنا على مدى الانقسام الطبقي الذي نظمه القانون في بعض الولايات الرومانية مثل مصر . وفي خطاب آخر نجد بلنيوس يرجو الامبراطور أن يمنح شابا من طبقة الفرسان عضوية السناتوس ، ولا يذكر في خطابه مبررا لهذه التزكية سوى ما بينهما من علاقة حميمة قديمة ترجع إلى زمن الصبا ويضيف صفة هامة اخرى وهو انه على جانب كبير من الثراء ! نحن نعرف في أحوال اخرى أن شباب الفرسان الذين يقدمون للدولة خدمات كبرى ، أو يقومون بأدوار مجيدة في الحرب أو الادارة ، يكافأون بمنحهم عضوية السناتوس ، ولكننا نرى من خطاب بلنيوس ان ذلك

الشاب لم يكن له مثل هذه المؤهلات ، وإنما عن طريق صلته بعضو بارز في السناتوس وباستخدام وساطته ، كان من الممكن ان ينال شرف عضوية السناتوس . هذه نماذج مما يمكن ان يستمده المؤرخ من معلومات من هذه الرسائل الشخصية التي خلفها لنا بلنيوس الصغير .

يوسيفوس :

أما في مجال الكتابة التاريخية التقليدية ، فهناك المؤرخ اليهودي « يوسيفوس » الذي كتب في النصف الثاني من القرن الأول وبداية القرن الثاني ولكنه قصر اهتمامه على اليهود وتراثهم . وتعتبر الأجزاء الأخيرة من كتابه « تراث اليهود » وكتاب « حرب اليهود » من المصادر التي تلقي ضوءاً على العلاقة بين اليهود والرومان وظروف فلسطين في العصر الامبراطوري الأول .

ديون كاسيوس :

وهو من مؤرخي القرن الثالث الميلادي ، واستطاع أن يترقى في مناصب الادارة الرومانية ، حتى ولى منصب القنصل مرتين وقد كتب باللغة اليونانية ، نظرا لأنه كان مواطنا من مدينة « نيقيا » في شمال غرب آسيا الصغرى . وكان مؤرخا امينا ، امضى عشر سنوات في القراءة ، واثنتي عشر سنة في كتابة تاريخه ، الذي امتد من تأسيس روما ، حتى عام ٢٢٩ ميلادية . وقد اعتمد على جميع المؤرخين السابقين والسجلات والوثائق الرسمية ، كما أن أعماله الادارية ، والمناصب التي تولاها ، ساعدته كثيرا على ان يصل الى هذه المعلومات ممثلة في نصوص المعاهدات أو القوانين أو البيانات التي تصدر عن الأباطرة والحكام . ويكتسب تاريخه أهمية خاصة ، كلما اقترب تاريخه من الفترة التي عاشها ، وهي نهاية القرن الثاني وبداية القرن الثالث ، فكتابته عن هذه الحقبة ، تدل على معرفة جيدة بالنظم في الامبراطورية . ورغم بعده عن العصور الأولى من

الامبراطورية ، فإن كتابته تعتبر من أهم ما نمتلك واكثرها قيمة لأنه حاول ان يستمد معلوماته من مصادر معاصرة ، واحيانا استخدم تقارير أو بيانات كتبها أفراد شاركوا في الاحداث ذاتها ، ويكشف عن هذه الحقيقة ما يذكره عن الامبراطور اغسطس حينما واجه مجلس السناتوس سنة ٢٧ق م بتنازله عن جميع سلطاته ، وردود فعل أعضاء السناتوس لهذا الاعلان . فكل من يقرأ هذا الجزء من تاريخه ، يشعر أنه نقله عن أحد أعضاء السناتوس الذي شهد هذا الاجتماع . فهو ينبض بالحيوية ويسجل سير الجلسة خطوة خطوة ، وانقسام العواطف بين الأعضاء وما شعروا به من خوف أو أمل . من هذا المثال تتضح قدرة ديون كاسيوس على نقد المصادر وانتقاء أقربها إلى الأحداث . ولكن يجب أن نتنبه دائما أنه في إنتقائه ، لم يكن محايدا كل المحايدة ، لأنه كان مثل غيره ممن اشرنا إليهم من المؤرخين متحيزا للسناتوس ومعاديا للامبراطورية . ورغم أنه يكتب باعتدال شديد ، وبموضوعية ظاهرة ، إلا أن عدم ثقته في الامبراطور ، وتشكيكه دائما في نواياه ، يتضح من استخدامه للألفاظ كقوله عن اغسطس في ذلك الموقف الذي اشرنا إليه والذي اعلن فيه مشاركة السناتوس له في إدارة الولايات على أن يأخذ السناتوس الولايات الآمنة ويأخذ اغسطس الولايات التي بها جيوش محاربة ، فيقول : « وكان ادعاؤه هو أنه يجب أن يجني السناتوس ثمار أفضل أقاليم الامبراطورية ، دون خوف أو عناء ، بينما يتحمل هو (أي الامبراطور) المخاطر والأعباء ؛ أما هدفه الحقيقي هو أنه عن طريق هذه الخطة ، سيبقى السناتوس غير مسلح وغير مهيأ لقتال ، ويبقى هو وحده صاحب الجيوش والسلاح » . فاستخدامه الفاظا مثل « ادعائه » و« هدفه الحقيقي » تكشف عن نظرة الشك والارتياب التي كان يرى بها شخصية أغسطس . ومن سوء الحظ أن هذا الكتاب القيم ، لم يصل لنا كاملاً ، ولكن الأجزاء التي وصلت إلينا تعتبر من أقيم ما نمتلك في تاريخ الامبراطورية .

أميانوس ماركلينوس :

وهو مواطن من مدينة انطاكية في سوريا وكان ممن تولوا بعض المناصب العسكرية في الجبهة الشرقية (٣٥٣ - ٣٦٣) ونظرا لأن انطاكية كانت مركزا ثقافيا كبيرا ، فقد استطاع أن يحصل على اعلى ثقافة في القرن الرابع الميلادي . كما أنه عاش في فترة التحول الكبرى من الوثنية الى المسيحية وظل هو على وثنيته . ومن سوء الحظ ، أن الجزء من تاريخه الذي وصلنا يؤرخ للفترة فيما بين ٣٥١ - ٣٧٨ ، ولا بد أنه بدأ قبل ذلك بكثير . ويمتاز اميانوس بملكه تاريخية فذة ، ومقدرة على النقد والتحليل وهو يعتبر من غير شك من أعظم من كتب التاريخ في العالم القديم كله ويكفي دليلا على ذلك أنه حين كتب تاريخ الامبراطور يوليان المرتد عن المسيحية ، ورغم اعجابه الشديد بشخصية هذا الوثني الحاكم في عصر سادت فيه المسيحية ، أنه تحرى الدقة والأمانة ووجه إلى بطله النقد حين لزم النقد . ورغم أنه من مدينة انطاكية الخاضعة للثقافة اليونانية ، إلا أنه كتب باللغة اللاتينية بأسلوب علمي بعيد عن زخرف اللغة أو العناية بالبلاغة .

نقتصر على هذا القدر من الكتابات التاريخية ، وهناك غيرها كثير ، وخاصة بالنسبة للفترة المتأخرة من الامبراطورية الرومانية ، حين اصبحت المسيحية دينا رسميا للدولة ، فنشأ جيل من المؤرخين يكتبون من وجهة النظر المسيحية ، ويسجلون تاريخ الكنيسة ويأتي على رأسهم « يوسيبيوس » من قيصرية بفلسطين ، ومن بعده قائمة كبيرة من مؤرخي الكنيسة . ولكن هذا يدخلنا في مجال آخر غير المجال الذي نلتزم به في هذه الدراسة .

الوثائق :

تعتبر الامبراطورية الرومانية من اغنى حقب التاريخ القديم في

المصادر الوثائقية ونقصد بها النقوش الكتابية ، وأوراق البردى والعملة . وقد توفر كثير من العلماء على الاهتمام بها وتجميعها ودراستها وذلك لما لها من أهمية بالغة فالوثائق تختلف عن كتب التاريخ ، فهي لا تتضمن وجهة نظر أو وصف أو دراسة للتاريخ ، ولكنها تقدم للباحث المادة الخام مثل ، نصوص المعاهدات ، والقوانين ، والبيانات الرسمية ، أو الخطابات الشخصية والرسمية أو عقود المعاملات المختلفة من بيع وشراء وهبة وميراث أو حتى بطاقة دعوة إلى عشاء أو حضور حفل زفاف . فهذه هي أنواع الوثائق التي نجدها ممثلة في النقوش التي تكتب على المباني العامة عادة أو على أوراق البردى القديم أو غير ذلك من المواد . أما بالنسبة للنقوش الكتابية ، فهي منتشرة وشائعة في كل ارجاء الامبراطورية الرومانية ، ولذلك يتم تجميعها حسب الأقاليم وتبويبها حسب العصور . وهي لهذه الصفة تعتبر اكثر شمولا ، واكثر تمثيلا للامبراطورية ، مكانا وزمانا . اما عن أهمية بعض النقوش فيكفي أن نشير إلى ما افتتحنا به هذا الفصل وهو « أثر انقرة » الذي يتضمن سجلا ، كتبه اغسطس بنفسه عن أعماله . ويشتمل على خمسة وثلاثين فقرة ويعتبر أهم مصدر لأعمال اغسطس كما سبق ان بينا . والنقوش تتضمن عادة ، الوثائق ذات الطابع العام التي يراد اعلانها للناس ، فكثير من القرارات الرسمية والقوانين كان يلزم كتابتها على جدران المعابد أو في الميادين العامة ليطلع عليها الناس جميعا ، فهذه كانت طريقة الاعلان الرسمية في العالم القديم . ومن البيانات الهامة التي عثر عليها مكتوبة على أحد المعابد في الواحة الخارجة بمصر ، بيان الوالي « تيبيريوس يوليوس الكسندر » وقد عثر عليه كاملا تقريبا ويقع في اكثر من سبعين سطر ، ويمثل محاولة من هذا الوالي في سنة ٦٩ ميلادية ، لاصلاح الحالة الاقتصادية في مصر ، وهو لهذه الصفة ، يكتسب أهمية خاصة ، لأننا نجد فيه اشعارا بسياسة جديدة وضعت موضع التنفيذ عندما تولى العرش في روما الامبراطور « فسباسيان » ، وبدأ

بذلك أسرة جديدة بدلا من الأسرة التي أسسها أغسطس . وصادر املاك أفراد الاسرة السابقين ، وحارب طبقة كبار الملاك وشجع أصحاب الملكية الصغيرة والمتوسطة ونلحظ هذه السياسة الجديدة في هذا النقش الذي سجله هذا الوالي الروماني على مصر .

ولكن يؤخذ على النقوش أنها لا تتضمن عادة الوثائق الشخصية أو الرسمية اليومية ، ومن حسن الحظ أن أوراق البردى تأتي لتسدّ هذا العيب ، فهي في الواقع تمثل كل ما يكتب على الورق وتعتبر أهم مصدرا نمتلكه في دراسة الأحوال الاجتماعية والاقتصادية والادارية . وفي الواقع أدرك الدارسون الحديثون قيمة الوثائق البردية وتوفروا على تجميعها ودراستها وأصبح هناك علم حديث يتخصص فيه العلماء ، يسمى « علم البّردى » Papyrology ، ويؤخذ على الوثائق البردية ، عدم إنتشارها . فنظرا لأنها مادة ضعيفة ، تتعرض للتلف والهلاك بسرعة ، لم يقدر لها البقاء في معظم أرجاء الامبراطورية ، وبقي فقط القدر الأكبر منها في أرض مصر الوسطى والعليا حيث حافظ المناخ الجاف والجو الصحرائي ، على صيانتها في باطن الأرض . كما عثر أيضاً على كميات قليلة جداً خارج مصر في فلسطين وفي ايطاليا في ظروف استثنائية . وعلى هذا ، نجد أن أوراق البردى تختلف عن النقوش ، فإذا كانت النقوش تمثل معظم أقاليم الامبراطورية ، فإن البردى ، لا يكاد يمثل إلا مصر فقط . ولذلك تعتبر مصر أصلح مثال في التاريخ القديم كله لدراستها دراسة إقتصادية إجتماعية تعتمد على مصادر معاصرة وباعداد كبيرة جداً ، فأصبح من الممكن تتبع ظروف المجتمع والاقتصاد والحياة اليومية من عصر إلى عصر وبدقة عالية ويمكننا أن نتعرف على الأفراد واحوالهم العائلية ، واحيانا يمكننا أن نلاحظ آثار الأحداث العامة على الأفراد وهو ما لا يمكن عمله بالنسبة لمعظم الشعوب الأخرى . ولا ينبغي أن يتبادر إلى الذهن أن نتائج الدراسات البردية ، تقتصر دراستها على مصر فحسب ولكن كثيراً من

نتائج هذه الدراسات ، يلقي ضوءاً على ما يحدث في ولايات أخرى من الامبراطورية ، وخاصة إذا كان الأمر يتعلق بظاهرة عامة أو تطبيق نظام تخضع له سائر الولايات .

يمكننا أن نضيف كلمة أخيرة عن العملة الرومانية ، فقد امكن العثور على عشرات الآلاف من العملة في جميع الولايات ومن جميع العصور . ولا يخفي ما للعملة من أهمية بالغة في إقتصاد أي دولة ، فإذا ما ادركنا أن نظام العملة القديمة ، كان يقوم على أساس استخدام المعادن كالذهب والفضة والنحاس فقط ، فإن درجة نقاء المعدن المستخدم في العملة ، يدل على الحالة الاقتصادية فيها . فنجد مثلا في عصور الرخاء والسلام الأولى أن العملة الرومانية الفضية كانت على درجة عالية من النقاء ، وحين ساءت الأحوال وتعاقبت الأزمات ، تناقصت نسبة الفضة في العملة . وينعكس هذا على الأسعار ويظهر التضخم المالي وترتفع الأسعار ارتفاعا كبيرا حسب حدة الأزمة ، حتى إذا كان القرن الثالث والرابع وجدنا تغيرا يدخل على نظام العملة ، فتكاد العملة الفضية تختفي وتسود العملة البرونزية وتمنح العملة البرونزية قيمة العملة الفضية. وكان من الطبيعي أن لا تتمتع هذه العملة البرونزية بثقة السوق وتضطرب الأسعار إضطرابا شديدا . وهنا تتدخل الدولة لمحاولة الاصلاح باصدار عملة ذهبية ، ولكن العملة الذهبية الجديدة لا تستخدم في الحياة اليومية ، وتظل قاصرة على المعاملات الكبرى ، أو عند دفع الضرائب للدولة . وفي بعض الولايات لا يتوفر الذهب الكافي ، فتدفع الضرائب « عيناً » ، وفي مثل هذه الظروف ، يعود نظام المقايضة إلى السوق .

هذه هي أهم ما لدينا من مصادر لدراسة تاريخ الامبراطورية الرومانية ، وهي مصادر كثيرة غنية ، بل لعلها اكثر وفرة وقيمة من مصادر كثير من الدول والشعوب في العصور القديمة كلها . ولم يكن غريبا أن ادرك أهميتها كثير من كبار المؤرخين الحديثين وتوفروا على دراستها

واخضاعها لمنهج علمي راقي وكتب على الامبراطورية الرومانية أرقى دراسات في التاريخ وقد بدأ هذا الاهتمام منذ القرن الثامن عشر في أوروبا على يد واحد من أعظم المؤرخين وهو « ادوارد جيبون » Edward Gibbon صاحب الكتاب الخالد « اضمحلال وسقوط الامبراطورية الرومانية » . وقد حاول فيه بذكاء نادر أن يحلل العوامل والأسباب التي أدّت إلى سقوط أكبر امبراطورية عرفها التاريخ . وفي القرن التاسع عشر وجدنا « تيودور مومسن » الذي سبقت الاشارة إليه ، يهتم بالقانون وبالنظم السياسية الرومانية . حتى إذا كان القرن العشرين وكانت دراسات النقوش والبردى والعملة ، قد بلغت درجة عالية من النضج ، وجدنا المؤرخ العظيم « روستوفتزف » M. Rostovtzeff يكتب كتابين يمثلان أرقى محاولة في دراسة التاريخ القديم من الناحيتين الاجتماعية والاقتصادية وهذان الكتابان هما ، « التاريخ الاجتماعي والاقتصادي للإمبراطورية الرومانية » ويقتصر فيه على العصر الأول من الجمهورية أي حتى القرن الثالث الميلادي والكتاب الثاني هو ، « التاريخ الاجتماعي والاقتصادي للعصر الهلنستي » . وقد أفاد روستوفتزف في هذين العملين العظيمين من نتاج جميع الدراسات الحديثة سواء بالنسبة لتحقيق المخطوطات القديمة والنقوش والبردى والعملة والحفائر الأثرية حتى لقد قيل أنه كان اكثر من أحاط بالتاريخ القديم علما . واستخدم إلى جانب النصوص التاريخية ، الأعمال الفنية القديمة ، من لوحات وتماثيل وعمائر ، في إظهار روح العصر وأحواله الاجتماعية والاقتصادية وجاء بعده مؤرخ تصدى للعصر الثاني من الامبراطورية وهي الفترة التي تبدأ من دقلديانوس حتى جستنيان ونقصد به المؤرخ « جونز » وكتابه « تاريخ العصر الثاني للامبراطورية الرومانية » ويعتبر متمما لعمل روسنوفتزف الذي سبقت الاشارة إليه ، وإذا كان قد تناول مثله المجال الاجتماعي والاقتصادي ، فقد اضاف مجالين هامين آخرين وهما الناحيتين المالية

والادارية . ويعتبر جونز أرقى من مارس المنهج العلمي في دراسة تاريخ الامبراطورية الرومانية ولغلبة الطابع العلمي على كتابته فكثيرا ما تتميز بشيء من الجفاف والموضوعية الصارمة . وهو بهذا العمل يكون قد أكمل العمل الذي بدأه جيبون وكأنه وضع الحجر الأخير في بناء علمي ساهمت فيه اجيال متعاقبة من المؤرخين على مدى قرنين من الزمان .

الفصل الثاني

العوامل التي أدّت إلى سقوط الجمهوريّة

حين قامت الجمهورية الرومانية لأول مرة في سنة ٥٠٩ ق.م، بعد القضاء على النظام الملكي، كانت روما مدينة صغيرة في وسط شبه الجزيرة الايطالية وربما لم يزد عدد سكانها على بضع آلاف، وكانت واحدة من عدد من المدن اللاتينية الشبيهة بها في اقليم «لاتيوم». وربما كانت في هذه المرحلة المبكرة من تاريخها لا تزال خاضعة لبقايا نظام قبليّ بسيط، فيبدو ان سكانها كانوا ينتمون الى ثلاث او أربع قبائل فقط وخير دليل على ذلك وجود تنظيم قبليّ عندهم تطور وعرف في العصر الجمهوري باسم «الجمعية القبليّة» (Comitia Tributa). وعلى عادة المجتمعات القبليّة، يسود فيها عادة حكم رؤساء العشائر الكبيرة وآبائها، او ما اصطلح على تسميته عادة «بمشيخة القبيلة» وقد وجد هذا النظام في روما كذلك وهو ما عرف اصطلاحا باسم مجلس « السناتوس »(Senatus) ومعناها الحرفي، «مجلس الشيوخ»، وكان يضم اشراف الأسر الكبيرة وآبائها. وكان اللفظ المستخدم بالنسبة لأعضاء هذا المجلس؛ هو لفظ «الآباء» (Patres) ولم يتسموا عادة بلقب «الشيوخ». وبحكم انهم آباء المجتمع ورؤساء بيوته وعشائره كانوا هم ايضا أولي الأمر فيه وبيدهم مجمع مقاليد الأمور، وهكذا يمكن ان يقال ان المجتمع الجمهوري الأول في روما قام على اساس

سيادة الأشراف فيه، ممثلا في السنـاتـوس . وحين وضعوا نظاما جمهوريا بعد طرد الملوك، جعلوا هذا النظام في ايدي الأشراف ايضا، ورغم انهم اوجدوا مناصب للحكم يتم توليها عن طريق الانتخاب الشعبي ولفترة محدودة لا تزيد عن سنة، وهي المناصب المعروفة في الدستور الروماني، مناصب «القنصل» و«البريتور» (للقضاء) ومنصب «الكنسور» (الرقيب) و«الايديل» (يشبه عمل المحتسب) و«الكوستور» (للشؤون المالية) ولكن الترشيح وتولي هذه المناصب جميعها، كان قاصرا على اعضاء الأسر الشريفة، او بعبارة اخرى، اعضاء الأسر التي ينتمي اليها «الآباء» من اعضاء السنـاتـوس .

وهكذا وجد انقسام طبقي في المجتمع والحياة السياسية الرومانية، مع قيام الجمهورية. ومع تطور الأحداث ونمو المدينة، حدث صراع بين هاتين الطبقتين، طبقة الأشراف، صاحبة السيادة والممثلة في اقوى هيئة تشريعية وهو السناتوس ، وبين طبقة العامة الذين كانوا لا ينتمون الى أسر «الآباء» وهم الكثرة الغالبة من الأهالي ولكن يجتمعون في شكل جمعية عمومية وهي الجمعية القبلية. واستغرق الصراع بين الطبقات في روما اكثر من قرنين من الزمان، كماهو معروف في التاريخ فيما بين سنة ٤٩٤ ـ ٢٨٧ ق.م. ودار الصراع الطبقي على مراحل، كان الهدف اولا هو تحقيق نوع من الحماية وزيادة الضمانات لطبقة العامة ضد بطش الأشراف. ثم اتجه بعد ذلك الى تحقيق مزيد من المساواة الاجتماعية والسياسية عن طريق تعديل قوانين الدولة، بحيث يمكن ان يقال انه مع نهاية فترة الصراع في سنة ٢٨٧، اصبح لروما دستور ديمقراطي فاصبح للعامة قبل الأشراف الحق في ان يختاروا عنهم قنصلا بمعنى انه اصبح قنصل عن العامة، وقنصل عن الأشراف، وهو ما يقابل منصب رئيس الجمهورية في النظم الحديثة. كما اصبح ايضا، للجمعية القبلية حق اصدار القوانين على قدم المساواة ايضا مع مجلس السناتوس. وفي مجال التقارب الاقتصادي بين

الطبقات، صدر قانون في سنة ٣٦٧ ق.م. يحدد مساحة الأرض التي يجوز لأي مواطن روماني ان يستثمرها لنفسه من الأراضي العامة التي استولت عليها روما في توسعاتها العسكرية المختلفة. من هذه الانجازات، نرى ان القوانين الرومانية في نهاية الصراع الطبقي سنة ٢٨٧ ق.م، كانت تحقق قدراً كبيراً، من حيث المبدأ على الأقل، من التكافؤ الاجتماعي والسياسي لجميع المواطنين الرومان.

اما من حيث التطبيق العملي والممارسة الفعلية للسياسة والاقتصاد، فقد سارت الأمور على خلاف ذلك فإن استمرار الحروب التي خاضتها روما طيلة العصر الجمهوري، كانت تساعد الأشراف دائماً على ان يظلوا في مركز القيادة، عسكريا وبالتالي سياسيا. فحسب نظامهم القديم المعمول به، كانت جميع مناصب الحكم وعضوية السناتوس وقيادة الجيوش غير مأجورة، لا يتقاضى صاحبها راتباً عليها، بل كثيرا ما كان يتحمل أعباء مالية من ايراده الخاص. وينبغي ان نذكر هنا ان مجموع المناصب السياسية كانت تسمى بالمناصب «الشرفية» (Cursus Honorum) في بداية العصر الجمهوري، لأنها كانت قاصرة على الأشراف وبغير أجر. لذلك كان تولي هذه المناصب يستلزم مقدرة مادية ولا يستطيع الفقراء ان ينافسوا الأشراف الأثرياء في هذا المجال. ويزداد الأمر وضوحا بالنسبة للوضع في الجيش الروماني. فلم يكن هناك جيش نظامي وإنما جميع المواطنين من الذكور من سنة ١٨ الى سن الشيخوخة، كانوا في وقت الحرب مطالبين بالخدمة العسكرية. وكان كل مواطن يسلح نفسه قدر استطاعته والأكثر فقرا، أقل سلاحا، والأكثر غنى، افضل سلاحا. ولذلك اقترنت الفروسية في الجيش عادة بالطبقة الأكثر ثراء لأن امتلاك خيل للحرب ورعايتها وما يلزم ذلك من سلاح كان لا يقدر عليه الا اصحاب الثروة والجاه. اما كبار الأثرياء، من آباء الأسر الكبرى، فكانت اعباؤهم اكثر من هذا كله فكان عليهم ان يساعدوا الدولة حين لا تكفي

الضرائب البسيطة العادية المعمول بها في ذلك الوقت، على تحصين المدينة وبناء اسطولها. من هذا كله يتبين مدى الارتباط بين الوضع الاجتماعي والمادي للفرد وصلاحيته لتولي مناصب الحكم والقيادة العسكرية.

لذلك لم يكن غريبا بعد انتهاء فترة الصراع بين الطبقات سنة ٢٨٧ ق.م. وبعد ان استطاعت روما ان توحد ايطاليا كلها تحت سيادتها، ابتداء من نهر «الروبيكون» Rubico في الشمال حتى اقصى طرف شبه الجزيرة جنوبا، وذلك بعد انتصارها على مدينة «تارنتوم» ٢٦٥ ق.م، لم يتمكن الرومان من تحقيق الديمقراطية السياسية التي كانوا قد توصلوا الى مبادئها في اثناء فترة الصراع الطبقي كما بيّنا والسبب في ذلك ان روما على مدى قرن ونصف بعد ذلك دخلت في سلسلة من الحروب العالمية وراء حدود ايطاليا واهمها في هذه الفترة سلسلة الحروب البونية ضد مدينة قرطاجة والتي انتهت باستيلاء روما على جزيرة صقلية واسبانيا وشمال افريقيا. والى جانب هذه الحروب القرطاجية في غرب البحر المتوسط، كانت روما تحارب في شرق البحر المتوسط ايضا وأخضعت مقدونيا اولا ثم مجموع المدن اليونانية حتى شمل نفوذها آسيا الصغرى في سنة ١٣٣ ق.م. هذه الحروب الكبرى استلزمت تسخير كل طاقات الرومان من اجل الحرب ولتحقيق الانتصارات، خاصة وان هذه الانتصارات كانت تعود على روما بمزيد من الأرض والثروة. فكل انتصار كان يزيد شهية الطبقة الحاكمة في روما للتطلع نحو انتصار آخر. وكما بيّنا كانت القيادة في كل هذه الحروب، لطبقة السناتوس. وجدير بنا ان نذكر في هذه المناسبة انه في أثناء الحرب البونية الثانية التي شنها « هانيبعل » على روما وايطاليا ، فيما بين ٢١٣ - ٢٠٢ ق.م، اتخذ السناتوس قرارا من أخطر قراراته التاريخية وهو. انه لا يسمح لأي شخص من طبقة السنـاتوس ان يغادر الأرض الإيطالية طالما كان هانيبعل موجودا عليها بجنوده. هذا القرار ذو دلالة هامة جدا، فهو من ناحية قرار وطني واتخذ باسم الدفاع عن ايطاليا، ولكنه من ناحية

اخرى يدل على نفسية السناتوس وشعوره بالمسؤولية، فهو وحده المسؤول عن ايطاليا كلها. ومعنى القرار ان السناتوس مستعد بجميع افراده ان يموتوا على الأرض الايطالية حتى يغادرها العدو المحتل. ورغم الطابع السياسي والعسكري لهذا القرار الخطير، فقد كانت له آثار اقتصادية وهو ان اعضاء السناتوس ارتبطت اقامتهم بالأرض الإيطالية ولم يخرجوا الى الولايات التي فتحتها روما، وازداد حرص السناتوس على ملكية الأرض في ايطاليا، وحتى حين اصبح لروما ولايات اجنبية كان لأعضاء السناتوس اراضي فيها وكانوا يديرونها عادة عن طريق وكلاء عنهم. وهكذا لم يألف اعضاء السناتوس الهجرة والاقامة خارج ايطاليا. ولذلك افسح المجال امام طبقة جديدة نشطة افادت من هذه الظروف، وهي الطبقة المتوسطة الرومانية التي عرفت اصطلاحا باسم «طبقة الفرسان» Equites ، فهؤلاء سيطروا على الأعمال التجارية والنقل البحري بين ايطاليا والولايات. كما اشتغل كثير منهم في الولايات في عملية جباية الضرائب فيها، وهو عمل مربح عاد عليهم بالثروات الطائلة لأنهم استغلوا الأهالي واستنزفوا موارد ثرواتهم.

اما طبقة العامة، فرغم اتساع ممتلكات روما وازدياد ثرائها فلم يعد ذلك عليهم بنفع كبير فرغم انهم حاربوا وضحوا وانتصروا ولكن لم يمنحوا املاكا مثل غيرهم من الأشراف ولم يتمكنوا من المشاركة في اعمال التجارة او جباية الضرائب او غيرها من الأعمال المالية، لأن مكافآتهم على دورهم في الحرب كان مبلغا من المال لا يلبث ان ينفد بمضي الزمن. كما اصابهم ضرر آخر نتيجة لهذه الحروب المستمرة، وهي ان بعضهم ممن كان لهم قطعة صغيرة من الأرض في ايطاليا، اضطر الى تركها واهمال زراعتها بسبب ظروف الحرب وحين يعود اليها كانت تحتاج الى نفقات كبيرة لاستثمارها مرة ثانية، وخاصة بعد فترة التدمير والخراب التي حدثت اثناء حرب هانيبعل التي دامت نحوا من ستة عشر عاما متصلة. لذلك

فضّل هؤلاء الأفراد من صغار الملاك، بيع ارضهم للأشراف وخاصة في ظروف الغلاء التي كانت تحدث في اعقاب الحروب. كما اصاب هذه الطبقة الفقيرة من عامة الرومان خطرا آخر نتيجة لانتصاراتهم المستمرة في حروبهم. وهي انها جلبت لروما اعداداً كبيرة جدا من الأسرى من الشعوب المقهورة، هؤلاء الأسرى، حسب النظم القديمة، يتحولون الى عبيد. وحسب القانون الروماني في ذلك الوقت، كان هؤلاء العبيد يصبحون ملكاً للدولة من الناحية النظرية على الأقل. اما من الناحية العملية فكانت الدولة او السناتوس يوزعهم على الأسر الكبيرة ليكونوا تحت اشرافهم ورعايتهم. ورحبت بهم هذه الأسر للاستعانة بهم في زراعة ممتلكاتهم التي ازدادت مساحتها في طول ايطاليا وعرضها. وهكذا نافس العبيد العمال الأحرار من المواطنين الرومان الذين كانوا يعملون بالأجر في الزراعة او في الصناعة او غيرها من الأعمال اليدوية. ونتج عن ذلك كله ان تعطل كثير من فقراء الرومان عن العمل، ولم يعد امامهم الا احد امرين اما ان يشتغلوا بالجندية في حروب جديدة او ان يتعطلوا ويعيشون عالة على الأسر الشريفة الكبيرة. وكانت هذه الأسر ترحب بهم ليفوزوا باصواتهم في الانتخابات السياسية لأن الحياة السياسية للأشراف اصبحت، رغم انها غير مأجورة، مصدرا كبيرا للثراء. فمن المعروف ان من يصل الى مناصب البريتور والقنصل كان بعد انتهاء عام منصبه يعين في حكم الولايات وهذه تدر عليهم ثروة طائلة. وهكذا اشتدت المنافسة على الانتخابات وفسدت الحياة السياسية وازدادت الرشوة وشراء اصوات المواطنين. هذه هي الصورة التي آلت اليها الحياة السياسية والاجتماعية في روما في سنة ١٣٣ ق.م.

ولكن يمكن أن ننظر إلى الموقف نظرة مختلفة ، وهي أن الدستور الروماني الذي كانت لا تزال تعيش في ظله روما سنة ١٣٣ ق.م. ، كان دستورا قديما مضى عليه ما يقرب من أربعة قرون وكان قد وضع أصلا

لمدينة صغيرة ذات طابع قبليّ كما ذكرنا من قبل. هذه المدينة الصغيرة تحولت فيما بين ٥٠٩ - ١٣٣ ق.م. إلى دولة عالمية تشمل شبه الجزيرة الايطالية كلها وقسما من الغالة واسبانيا وشمال أفريقيا وصقلية واليونان وآسيا الصغرى. وكان من الطبيعي أن تثبت الأحداث عجز الدستور البدائي البسيط عن التحكم وتوجيه سياسة هذه الدولة العالمية الكبرى، وما نتج عن تكوينها من مفارقات ومتناقضات في المجتمع وأصبحت الضغوط الاقتصادية والمصالح المادية أقوى من القانون. ولهذا كله سنجد نمط الحياة السياسية وأسلوبها في المرحلة الأخيرة من الجمهورية (أي ١٣٣ - ٢٧ق.م.) مختلفا كل الاختلاف عما حدث في مرحلة الصراع بين الطبقات في بداية الجمهورية. ففي المرحلة الأولى كان الصراع يهدف إلى تعديل قانون أو إصدار قانون أو اكتساب حق في منصب أو في هيئة تشريعية. وكانت المصالح المرتبطة بالأفراد والطبقات لا تزال محدودة ولذلك أمكن الوصول دائما إلى التوفيق بين المصالح المختلفة وتحقيق الإصلاح عن طريق التشريع. أما في المرحلة التالية، خلال القرن الأخير من الجمهورية فسنجد المصالح أشد تنافراً والصراع أكثر عنفا والقانون عاجز عن مواجهة الواقع فرغم ظهور شخصيات على مسرح السياسة الرومانية يسعون إلى الاصلاح والتغلب على التناقضات في المجتمع، إلا أن المصالح الشخصية حينا والمصالح الطبقية حينا آخر، كانت لها دائما الغلبة. ولذلك تغير محور الحياة السياسية بدلا من محاولة تطبيق القانون أو تعديله من أجل الاصلاح، إلى الوصول إلى السلطة وفرض الإصلاح بالقوة. ولأول مرة في تاريخ الجمهورية الرومانية، استخدم العنف والقتل في حل الاختلافات السياسية. واتخذت الحياة السياسية مظهر الصراع الحزبي الذي يقوم على أساس طبقيّ غلب عليه التعصب والحدّة وتطور تدريجيا إلى حرب أهلية قضت على النظام الجمهوري في روما.

وابتدأت هذه المرحلة الحاسمة في سنة ١٣٣ ق.م. حين تصدى

للإصلاح أخوان هما « تيبيريوس جراكوس » ، « جايوس جراكوس » اللذان توليا منصب التريبون الشعبي Tribunus Plebis وكانا مؤمنين بضرورة الإصلاح وتحسين الأحوال بالنسبة للطبقة العامة . وقد رأى تيبيريوس أن السبب الحقيقي لفساد الحياة السياسية ، هو الناحية الإقتصادية وبقاء أعداد كبيرة من العامة معدمين ومتعطلين عن العمل ، فعمل على إعادة تطبيق القانون القديم الذي كان قد صدر في بعض مراحل الصراع الأولى سنة ٣٦٧ ق.م. والذي يقضي بتحديد مساحة الأرض التي في حوزة الأثرياء من الأراضي العامة كما سبق أن ذكرنا ، مع إدخال تعديلات بسيطة على سبيل التيسير لهذا القانون ، وفي مصلحة الأثرياء (على أساس أن يكون للفرد ٥٠٠ يوجوس ، ولكل من اثنين من ابنائه ٢٥٠) . رغم أن مثل هذا القانون أمكن صدوره في فترة الصراع الأولى عن طريق السناتوس ، نجد أن السناتوس يرفضه ويقاومه في سنة ١٣٣ ق.م. فيتجه تيبيريوس إلى الجمعية القبليّة لإصدار القانون . وهكذا وجدنا ثنائية في التشريع في روما فكان باستطاعة السناتوس أن يشرع ، كما كان في استطاعة الجمعية القَبليّة أن تشرع هي الأخرى . ومن الواضح أن تشريعات هاتين الهيئتين كانت متعارضة ومتناقضة ، فالسناتوس يشرع لصالح الأشراف ، والجمعية القبليّة تشرع لصالح طبقتها الشعبية ، وواضح أن الدولة لا تستطيع أن تستقر على هذا النحو . وحين حاول تيبيريوس أن يعيد ترشيح نفسه للمنصب ذاته « التريبونية الشعبية » ، لسنة ثانية ، وهو ما لم يحدث من قبل في تاريخ الجمهورية ، كان ذلك مخالفة للأساليب الدستورية التي كانت تمارسها الجمهورية منذ نشأتها . وحدث خلاف عنيف حول قانونية هذا الإجراء بين تيبيريوس والسناتوس ، ولما أصر تيبيريوس على موقفه وأيده العامة ، لم يجد السناتوس بدأ من استخدام العنف ، وتصدوا له في يوم الانتخابات وقتلوه . كانت هذه هي أول حادثة عنف في الحياة السياسية الرومانية منذ قيام

الجمهورية ، ولأول مرة تسال الدماء بسبب الاختلاف على المواقف السياسية . وبعد ذلك ستتكرر حوادث القتل ويزداد العنف طيلة القرن الأخير من الجمهورية . فسنجد أخاه جايوس يتولى التريبونية الشعبية في سنة ١٢٤ ق.م. وينجح فيما فشل فيه أخوه وهو تولي المنصب مرتين متتاليتين وفي المرة الثالثة يفشل في الانتخابات ويحاربه السناتوس ويتمكن من قتله هو وثلاثة آلاف من أعوانه .

هكذا بدأ العنف في الحياة السياسية مع البدء في مخالفة الدستور وكان معنى هذا قصور الدستور عن متطلبات الدولة ومسئولياتها . وسوف تتكرر هذه الظاهرة بطريقة أخرى ، في مرحلة لاحقة بعد ذلك فيما بين ١٠٧ - ١٠٠ ق.م. حين يتصدى للحياة السياسية ، قائد عسكري يسمى « ماريوس » ، فنظرا لتفوقه العسكري وتعرض روما لمخاطر أجنبية ، قبل السيناتوس إعادة ترشيحه لمنصب القنصلية خمس سنوات متصلة ، وذلك بالرغم من أنه كان من طبقة الفرسان الجديدة وكان يميل إلى مناصرة العامة . ولكن نظرا لعدم تطرفه السياسي ولتذبذبه بين الطبقتين ، كان السناتوس يقبل بقاءه في السلطة بسبب تفوقه العسكري . ومهما يكن من أمر ، فإن تجربة ماريوس العسكرية والسياسية ، تجربة جديدة في تاريخ روما ، فلم يسبق أن تولى شخص القنصلية مرتين متتاليتين مهما كانت مواهبه ومهما كانت المخاطر ، حتى في فترة حروب هانيبعل ، وذلك لأن الإنقسام الطبقي لم يكن قد بلغ ما بلغه من الحدة في القرن الأخير . أما الآن فكان من العسير أن تتفق الطبقات على شخص واحد ، ومن ثم كان التمسك بشخصية ماريوس المقبولة لدى الطرفين . هناك نتيجة أخرى لتجربة ماريوس ، فنظرا لأن حروبه استمرت خمس سنوات متصلة ، خارج إيطاليا في بلاد الغالة ، فقد استطاع أن يوجد لأول مرة جيشا نظاميا تقوم الدولة بتسليحه ويكون ولاء جنوده لقائدهم . فكان الجنود يعتمدون على قائدهم في الحصول على مكافآت سخية من أرض ومال بعد انتهاء

الحرب . وهكذا ارتبطت مصالح الجنود بأفراد القواد وهذه ظاهرة جديدة سوف تزداد خطورتها مع تطور الأحداث حين يتخذ القادة العسكريون من أمثال « بومبي » و« قيصر » جيوشا خاصة ، بمعنى أن الجيوش سوف لا تصبح جيوش الوطن ولكن جيوش الأحزاب الطبقية التي تتبع شخصية قوية .

وثمة ظاهرة أخرى أخذت تتفاعل وتزيد الموقف تعقيدا في تلك المرحلة أيضا ، ونقصد بها حلفاء روما من الايطاليين ، فكان أهالي المدن الايطالية الذين أخضعتهم روما في بداية تاريخها الجمهوري وفرضت عليهم التحالف معها وتقديم الجنود والسفن والمساعدات المختلفة في وقت الحرب ، بدأوا يضيقون بوضعهم وخضوعهم لشعب روما . وازداد الموقف تعقيدا حينما حدث انقسام داخل حزب الشعبيين في روما فوجدنا بعض زعمائهم المتطرفين يميلون إلى إنصاف الحلفاء الايطاليين بمنحهم المواطنة الرومانية ؛ ومثل هذا الموقف كان يحقق هدفين لروما في وقت واحد ، الأول هو إرضاء الإيطاليين بأن يصبحوا مواطنين رومان والتمتع بكل الإمتيازات الرومانية وأهمها عطاءات الجنود ، والثاني أن تكتسب روما مزيدا من الجنود في الفرق الرومانية وبذلك تزداد قوتها العسكرية التي كانت في حاجة مستمرة إليها للدفاع عن الامبراطورية واستتباب الأمن في الولايات . ورغم ذلك فكان السناتوس وكثير من الشعبيين أنفسهم يعارضون مثل هذا الحل ، بدعوى الحفاظ على نقاء الدم الروماني ، أو الاستئثار بأكبر قدر من مكاسب الحروب . وبلغ الموقف حد الأزمة حين تعرض أحد زعماء العامة ويسمى « دروسوس » Drusus ، وكان ينادي بمنح المواطنة الرومانية للإيطاليين ، للقتل بسبب موقفه رغم أنه كان يشغل منصب التريبون الشعبي سنة ٩٠ ق.م. . نتيجة لهذا قام الإيطاليون بثورة عارمة تحولت إلى حرب ضد روما عرفت بحرب الحلفاء . ولم تتمكن روما من القضاء على هذه الثورة إلا بإصطناع الحيلة وقبول منح الإيطاليين

المواطنة كاملة ، لأنهم لم يصبحوا أعضاء في مجلس السنـاتوس ، كما قيّد تسجيلهم ضمن القبائل الرومانية القديمة . واستمر الايطاليون يشعرون أنهم مواطنين من الطبقة الثانية ، وأن أهل روما هم أصحاب الشأن وأصحاب السيادة في الدولة . وسوف يصبح لهذا الوضع تأثير كبير على السياسة الرومانية فيما بعد حين نجد يوليوس قيصر ومن بعده أغسطس يوجهان دعايتهما السياسية باسم الشعب الايطالي كله ، بينما يتمسك السنـاتوس بشعار شعب روما فقط . وسوف لا يحرص الايطاليون على التمسك بالدستور الروماني ، ويفضلون قيام الحكم المطلق الذي يخضع الرومان والإيطاليين لحكم واحد . ومعنى هذا ، أن السياسة في المرحلة القادمة سوف تقوم على أساس الصراع بين المحافظين على النظام الجمهوري ممثلا في سيادة شعب روما ، وبين الدّاعين لإقامة الحكم المطلق والمحافظة على وحدة الشعوب الايطالية .

وسوف نجد الصراع في ظل هذا التصور الجديد يقترن بالعنف الشديد أيضا ، ويتضح هذا في الدور الذي قام به « سُولا » Sulla الذي تزعم حزب السنـاتوس وأراد أن يقر سلطانه بقوة السلاح . وكان قد عين قائدا للجيوش الرومانية ضد أحد الأمراء الثائرين في آسيا الصغرى ، وحين نازعه حقه في القيادة ، الشعبيون ، لم يتردد في أن يقود جيشه ويقتحم روما عسكريا وأن يشن حربا شعواء على خصومه وأعمل فيهم القتل والتنكيل وهو ما لم يحدث في تاريخ روما من قبل . وبعد أن أقر حقه بالقوة على هذا النحو ، مضى إلى حربه في آسيا الصغرى . وأثناء غيبته ، حاول الشعبيون الإنتقام مما حدث لهم ، فجمعوا صفوفهم وشنّوا حربا على السنـاتـوس وأعضائه ، فما لبث أن عاد سُلا بجيشه ، ودخل روما دخول الفاتحين وأقام نفسه دكتاتورا وبقي في المنصب سنتين فيما بين ٨٢ - ٨٠ ق.م. . وأعمل القتل والتنكيل ومصادرة الأملاك ويقال أن خمسة آلاف ذهبوا ضحية هذا الاضطهاد ، وأصدر سلسلة من القوانين ألغى بها

كثيرا من امتيازات العامة وتأكيد سلطة السناتوس . ما من شك أن تجربة سُلا هذه ، رغم أنها تمت بدعوى الحفاظ على الجمهورية ، كانت خطوة في سبيل القضاء عليها ، بسبب ما صاحبها من مخالفات لنص وروح الدستور الروماني ، أولها دخوله روما دخول الغازي على رأس جيش روماني ، والثاني ممارسته للسلطة الدكتاتورية سنتين متصلتين ، مما أباح له حرية تغيير القوانين وإصدارها ، عن غير طريق المجالس التشريعية . ونحن نعرف أن منصب الدكتاتور ، حسب الدستور الروماني ، كانت مدته ستة أشهر فقط ولم يحدث طيلة القرون الأربعة السابقة ، منذ قيام الجمهورية ، أن بقي أحدا دكتاتورا أكثر من ستة أشهر .

هذه الأحداث كلها ، تثبت بما لا يدع مجالا للشك أن الدستور الروماني أصبح لا يطبق ، ورغم تمسك القادة الرومان دائما بدعوى الحفاظ على القوانين ، إلا أنهم حين وقفت القوانين في طريقهم ، غيّروها بما تحقق مصالحهم . والظاهرة الثانية ، هي أن السناتوس والشعبيين لا يلتقون في حوار سياسي وإنما يقررون خلافاتهم بقوة السلاح . وظاهرة ثالثة أخيرة تتضح هي ازدياد ظهور القادة العسكريين وتسلطهم على الحياة السياسية ، كما رأينا في شخصيتي ماريوس وسُلا .

ومع ذلك ، فقد ظهر من بين السياسيين المدنيين من حاول الإصلاح في هذه المرحلة المضطربة ، وهو « شيشرون » Cicero الخطيب الروماني المشهور . فرغم أنه من طبقة الفرسان أصلا (وهي الطبقة المتوسطة) إلا أنه استطاع أن يتخذ جانب السناتوس وأن يتولى منصب القنصلية سنة ٦٣ ق.م. ، وحاول أن يدخل على الدستور تعديلا جديدا بهدف ما أسماه « التوفيق بين الطبقات » Concordia Ordinum عن طريق أن تتولى السلطة التنفيذية العناصر الممتازة من السناتوس والفرسان . وهذه محاولة بلا شك للتوفيق بين هاتين الطبقتين ضد طبقة الشعبيين . ورغم مهارة شيشرون الخطابية وقوة شخصيته ، فلم تزد دعوته

أن تكون صيحة في واد ، لأنه يدعو إلى استخدام الأساليب السياسية في وقت كانت تقرر فيه قضايا السياسة الجيوش العسكرية .

في هذا الوقت ظهر على مسرح الحياة السياسية الرومانية شخصيتان خطيرتان وهما « بومبيوس » ويوليوس قيصر » اللذان سيتقرر على أيديهما مصير الجمهورية النهائي .

الفصل الثالث

سقوط الجمهورية

بومبيوس ويوليوس قيصر :

تتمثل المرحلة الأخيرة من تاريخ الجمهورية في هذين القائدين العسكريين وهما « بومبيوس » Cn. Pompeius « ويوليوس قيصر » C. Julius Caesar . وكلاهما ينحدر من اثنين من أعرق الأسر الرومانية . أما في مجال السياسة فكان بومبيوس أكثر ميلا وأشد تعاطفاً مع السناتوس ، في حين كان قيصر متضامنا تضامنا مطلقا منذ صباه الباكر مع حزب الشعبيين . وكان أول ظهور بومبيوس في عالم السياسة أثناء حكم سُلا الذي منحه لقب « ماجنوس » Magnus أي « العظيم » وامتياز موكب النصر مكافأة له على انتصاره على اتباع ماريوس في صقلية وأفريقيا في سنة ٧٩ ق.م. . وهكذا بعد موت سُلا أصبح السناتوس يتطلع لبومبيوس باعتباره خليفته وقائدهم المفضل . وحين قام صراع بين السناتوس والشعبيين ، كُلف بومبيوس بالقضاء على المتمردين الشعبيين الذين تحصنوا في أنحاء إيطاليا وأسبانيا (٧٦ - ٧١ ق.م.) . وبعد عودته إلى روما رشح نفسه للقنصلية في سنة ٧٠ ق.م. رغم صغر سنه عن السن القانونية ، ورغم تردد السناتوس في مناصرته ، ولكنه تعاون مع بعض العناصر الشعبية وعملوا معا على نقض دستور سُلا الرجعي . وبعد

انتهاء قنصليته لم يغادر بومبيوس روما ، وأقام يترقب الفرص ليتولى قيادة عسكرية ، ترضي غروره وطموحه ، وسرعان ما سنحت الفرصة حين نشطت عصابات القراصنة في شرق البحر المتوسط ، وتعطلت الملاحة فيه فصدر قانون سنة ٦٧ ق. يمنح بومبيوس « سلطانا مطلقا » Imperium Infinitum على جميع سواحل البحر المتوسط لمدة ثلاث سنوات وهو سلطان لم يسبق أن تمتع به قائد روماني من قبل ويعتبر سابقة لسلطة الامبراطور الروماني فيما بعد . ولما كان بومبيوس قد تمكن من القضاء على القراصنة في ثلاثة أشهر ، صدر قانون آخر ليكلفه في سنة ٦٦ ق.م. بالتوجه إلى آسيا الصغرى للقضاء على فتنة فيها ، فقضى عليها ، وقاد جيوشه الرومانية دون تكليف من السناتوس واستولى على سوريا وفلسطين سنة ٦٤ ق.م. ورغم انتصارات بومبيوس العظيمة ، فإنه اثار شكوك السناتوس نحوه لأنه قاد الجيوش الرومانية ، وراء الحدود دون وجه حق . لذلك حين عاد إلى روما لم يعترف السناتوس بفتوحه في سوريا وفي هذا الموقف التقى بالسياسي الآخر الذي كان يشق طريقه إلى المجد وهو يوليوس قيصر .

الاتفاق الثلاثي الأول

عودة بومبيوس :

أثناء غياب بومبيوس في الشرق ظهر في الميدان السياسي في روما قادة جدد ، كما سبق أن ذكرنا من أمثال ششرون وقيصر وكراسوس . كما أن علاقات السناتوس بالشعبيين كانت قد ساءت جدا بسبب فشل الأساليب الدستورية العادية لإقرار مشاكل السياسة . لذلك أخذ كل شخص في روما يرقب باهتمام بالغ عودة بومبيوس الذي وصل برنديزي في آخر عام ٦٢ ق.م. . وبينما ادعاه كل من الاشراف والشعبيين معاً خشي بعض الناس أن يدخل بومبيوس بجيشه وأن يفرض نفسه دكتاتورا كما فعل سلا من قبل في ٢ ـ ٨١ ق .م . ولكن بومبيوس ظهر بمظهر دستوري وسرح جنوده في برنديزي ودخل روما كمواطن عادي ، ولأول مرة قابل فيها السناتوس تحدث إليهم في شيء كثير من المجاملة والولاء . ولكن السناتوس: أساء التصرف حيال بومبيوس ، ولعل خوف السناتوس من مطامع بومبيوس هو الذي أفسد عليهم التفكير السليم ، وضيع عليهم فرصة اكتساب بومبيوس لجانبهم . فرغم أنهم منحوه موكب النصر الذي يستحقه على انتصاراته العسكرية ، وكذلك صرحوا له بمنح سخية ، إلا أن السناتوس ماطل كثيراً في إقرار اعمال بومبيوس في

الشرق ، ورفض أيضاً طلبه من الأراضي حتى يوزعها على جنوده . أمام موقف السناتوس هذا لم يحاول بومبيوس أن ينفذ رغباته بالقوة ، وإنما آثر الانتظار .

الاتفاق الثلاثي الأول :

هذا هو الموقف الذي نتج بعد عودة بومبيوس والذي وجده قيصر عندما عاد من اسبانيا سنة ٦٠ ق.م. ليرشح نفسه للقنصلية للعام التالي ٥٩ ق.م .ووقف منه السناتوس موقفا شبيها بموقفه من بومبيوس أو أسوأ.ففي هذه الفترة رفض أن يمنحه موكب النصر على انتصاراته البسيطة في اسبانيا ، وفوق ذلك توقعا لانتصاره في انتخابات القنصلية اتخذ السناتوس قرارا غريبا بجعل قناصل عام ٥٩ ق.م. يبقون بعد عام حكمهم في إيطاليا بدلا من أن يتولوا حكم الولايات في الخارج وذلك للإشراف على الغابات والمراعي . وهو منصب إداري تافه . هذا القرار الغريب كان بمثابة إعلان الحرب على يوليوس قيصر ، هذا الموقف من مجلس السناتوس خلق الجو المناسب لكي يتفق عليه أقوى وأخطر شخصيتين في روما هما بومبيوس وقيصر .خاصة حين تعرف شخصية قيصر العنيدة الديناميكية التي لا تستكين أمام الهجمات ، وإنما ترد الاعتداء وترده بسرعة .

أدرك قيصر بعقله اللماح أن تلك فرصة نادرة ليتغلب على السناتوس فاتصل ببومبيوس للعمل سويا على أن يعينه قيصر على تحقيق مطالبه في إقرار أعماله في الشرق ومنح الأراضي لجنده . بعد أن يتولى قيصر القنصلية . فقبل بومبيوس، وكذلك رأى قيصر أن يستعين بحليفه القديم كراسوس ليمده بالمال الوفير والذي استجاب بسرعة ليحقق مأرباً له أيضا . وحاول قيصر أخيرا أن يستعين أيضا بخطيب روما الأكبر ششرون الذي كان رجلا دستوريا مخلصا للجمهورية ويكره الاعمال غير الدستورية التي قد يتورط بها مع قيصر ولهذا رفض .

وهكذا على أي حال تم هذا الاتفاق الذي يسمى الاتفاق الثلاثي

الأول بين بومبيوس ذي المجد الحربي وكراسوس ذي الثراء العريق وقيصر ذي العقل المدبر والطاقة التي لا تنفذ من العمل وصاحب المكانة العليا بين الشعبيين .

قنصلية قيصر :

حسب الاتفاق الذي تم بين الرجال الثلاثة انتخب قيصر قنصلا لعام ٥٩ ق.م . فكافأ كراسوس بأن أعلن تنازل الدولة عن ثلث الضرائب المتعاقد عليها لولاية آسيا. ولكن حين حاول تنفيذ وعده مع بومبيوس قوبل بمعارضة عنيفة من السناتوس . برفض السناتوس إقرار قانون بتوزيع الأراضي على جنود بومبيوس. بعد ذلك لجأ قيصر إلى الجمعية القبلية ، ولما حاول حزب السناتوس تعطيله هناك بكل ما لديهم من وسائل أحضر قيصر عددا من جنود بومبيوس المسرحين واستعان بهم على القضاء على معارضة خصومه . وهكذا أقرت الجمعية القبلية قانون الأراضي لبومبيوس. واستطاع بعد ذلك أن يتخلص من خصومه ، فنفى ششرون من روما بتهمة قتل أعوان كاتيلينا بغير وجه حق . وكاتو الصغير منحه ولاية صقلية لينظمها أما زميله القنصل الآخر فقد أرهبه حتى لزم داره ليرصد النجوم .

وبعد ذلك أقرت أيضا أعماله في الشرق . بعد ذلك تفرغ قيصر لبعض الاصلاحات والتعديلات الادارية . من ذلك أن زاد من قوة القانون الخاص بمعاقبة استغلال الولايات ، وابتدأ أيضا العمل بنظام نشر محاضر أعمال الجمعيات التشريعية وقرارات السناتوس . وأصبح من الواضح الآن أن مصير روما قد آل إلى أيدي المتفقين الثلاثة وعملوا على تقوية التحالف بينهم ، بأن منح قيصر إبنته لبومبيوس زوجة له رغم فارق السن الكبير ، إذ كان بومبيوس لا يزال يبدو كأنه أقوى رجل في روما .

وأخيرا حقق قيصر لنفسه ما كان يطمع فيه من الاتفاق وتولى القنصلية وهو الحصول على منصب بروقنصل ـ بعد عام قنصليته ـ لحكم

ولايات الليريا والغالة ليؤمن حدودها وينظمها لمدة خمس سنوات ، ابتداء من بدء قنصليته في مارس ٥٩ ق.م. .

ولهذا دلالة قوية ، إذ بمقتضى تعيينه لهذا السلطان الاستثنائي في أثناء توليه القنصلية كان في استطاعته قانونا أن يكوّن جيشا في إيطاليا ، يصبح في المستقبل قوة تستطيع أن تواجه جنود بومبيوس المسرحين إذا لزم الأمر .

ومن الناس من يعجب إلى إقدام قيصر على تولي حكم الولايات لمدة طويلة مثل هذه خارج روما ولكن هذا هو ما كان يسعى إليه وهو أن يكون جيشا خاصا به يستطيع أن يكتسب ولاءه لشخصه بمرور الزمن وكذلك ليستطيع أن يظهر للرومان عبقريته العسكرية الأمر الذي كان يبهر العقلية الرومانية كثيرا ، وكذلك يجلب على نفسه مجدا وفخرا بأن يضيف أملاكا إلى روما . أثناء غيبته الطويلة اقترح أن يكتب لروما باستمرار عن أعماله . حتى يكون الرومان على علم بما يفعله بالسلطان الاستثنائي الذي منح له. هذه التقارير التي أرسلها من الغالة أصبحت ما يعرف باسم « مذكرات قيصر عن الحروب الغالية » التي استحوذت على خيال الشعب الروماني وتقوم دليلا على مهارة قيصر ككاتب مؤرخ إلى جانب كونه قائدا وسياسيا من نوع فريد .

قيصر في الغالة :

جمع قيصر جيشه كما شاء وسار به بعد انتهاء قنصليته إلى الغالة الحرة إلى الجزء الذي لم يكن قد خضع لروما بعد . وكان أول عمل قام به هو أن توفر على دراسة البلاد والبيئة والسكان ثم شن عليهم مجموعة من الحملات في بعضها حقق انتصارا سهلا وفي بعضها الآخر لاقى صعوبات جمة ومشاق كادت تودي به وبجميع قواته وخاصة أثناء حروبه مع الهلفيين (ما يسمى الآن بسويسرا) وفي نهاية كل موسم كان يكتب إلى روما

واصفا أعماله كما وعد ، وكانت كتاباته تطرب الرومان كثيرا وتشعرهم في كل مرة بالسلطان الذي يضيفه إلى روما عن طريق الأقاليم التي يفتحها وكذلك يشعرهم بالمجد الذي يضيفه قيصر إلى الاسم الروماني عن طريق أعماله العظيمة التي وصلت إلى حد البطولة في بعض المواقف .

وحتى إذا كان عام ٥٧ ق.م. بدأ الموقف في روما يتأزم من جديد بسبب الغيرة التي أخذ يشعر بها طرفا الاتفاق الثلاثي المقيمان دون عمل في روما سوى أن يقرأوا عن أعمال قيصر العظيم وأن يروا أثرها في نفوس الرومان ، وأن يشاهدوا أتباع قيصر في روما ، يروجون له ولأعماله وكتابته بكل أسلوب . أخذ بومبي يضيق بالحال وحدثت فعلا بعض المشاحنات بين أتباعه وأتباع قيصر ، عند ذلك بدأ بومبي يعمل لنفسه أيضا مستقلا عن الاتفاق الثلاثي فعمل على إعادة شيشرون من منفاه حتى يستعين بخطابته ، وفعلا عاد شيشرون واستقبل من السناتوس استقبالا حارا . وسرعان ما يرد الجميل إلى بومبي بأن اقترح في السناتوس أن يعين أي بومبي مشرف على تموين روما بالغلال Curator Annonae لمدة خمس سنوات كذلك منحه سلطاناً بروقنصليا Imperium Procosulare على البحر الأبيض المتوسط ليضمن خطوط مواصلات القمح من الشرق والغرب .

مؤتمر لوكا ٥٦ ق.م.: -

خشي قيصر من تفاقم الحال في روما وهو بعيد عنها في ظروف لا تسمح له بالعودة، أو أن تنتهي مدة غيابه ويبقى دون سلطان سنة ٥٥ق.م.بينما يبقى لبومبيوس سلطان هائل على البحر الأبيض المتوسط .

ولكن لحسن حظه أن السناتوس لم يمنح بومبيوس كامل تأييده وثقته بل أخذ يتردد في التعاون معه.وبذلك شعر بومبيوس أنه لا يستطيع أن يثق في السناتوس تماما، وأنه لا يزال محتاجا إلى الاتفاق الثلاثي .فاستغل قيصر هذا الموقف ودعا بومبيوس وكراسوس للاجتماع ثانية في سنة ٥٦ق.م. في

مدينة لوكا في شمال إيطاليا . وفي هذا المؤتمر تم الاتفاق على أن يتولى كل من بومبيوس وكراسوس القنصلية سنة ٥٥ق.م. وأن يمنحا في هذا العام سلطانا على الولايات الرومانية لمدة خمسة أعوام. على أن يتولى بومبيوس السلطان في أسبانيا وأفريقيا ، وكراسوس في سوريا ، وفي نفس الوقت يجدد سلطان قيصر في الغالة لمدة خمس سنوات أخرى .

هذا الاتفاق أمكن تنفيذه رغم معارضة كاتو وأعضاء السناتوس المؤمنين بالجمهورية ونظمها الدستورية . لأن مثل هذه الاتفاقات الفردية كان معناه إلغاء الجمهورية وأن المتفقين الثلاثة قد جعلوا من أنفسهم سلطة فوق الدستور وأجهزة الدولة الدستورية، ولكن هؤلاء الأفراد بما لهم من سلطة عسكرية كانوا من القوة بحيث أن المعارضات الدستورية كانت لا تجدي ، وكان من الممكن القضاء عليها بالقوة .

حتى أن ششرون ، وهو من المؤمنين بالجمهورية ، منح تأييده للاتفاق الثلاثي ، عرفانا بجميل بومبيوس عليه ، لإعادته من المنفى وتعيين أخيه وكيلا ليوليوس قيصر .

قيصر يعبر نهر الراين ويغزو بريطانيا (٥٥ - ٥٤ ق.م.)

بعد المؤتمر إلى صيف ٥٦ ق.م. عاد قيصر إلى الغالة ، وحتى يستتب السلطان الروماني في الغالة رأى لا بد من إلزام القبائل وراء الحدود أماكنها ؛ أهم هذه القبائل كانت القبائل الجرمانية وراء نهر الراين ووجه ضد الجرمانيين ضربات قوية الغرض منها إرهابهم حتى لا يعودوا إلى التطرق إلى الغالة وإثارة أهلها ضد الرومان . وكذلك في صيف ٥٥ ق.م. عبر القنال الانجليزي بقوة صغيرة ليقنع الكلتيين من سكان الجزيرة البريطانية حينئذ بعدم مساعدة بني عنصرهم في منطقة بريتاني شمالي الغالة . ولكن القوة التي أخذها معه كانت صغيرة واضطر إلى العودة إلى الغالة ثانية ثم جمع قوة من ٣٠,٠٠٠ رجل وأبحر بهم إلى

بريطانيا وعبر نهر التيمس فخضعت له عدة قبائل سلموه رهائن ووعدوا بدفع الجزية ، مقابل هذا ترك قيصر انجلترا وعاد إلى الغالة بعد أن أرضى غروره وتضاعفت شهرته ومجده لدى الرومان نتيجة لتوسيع رقعة الامبراطورية شمال أوربا على يديه . على أي حال الفتح الحقيقي لبريطانيا وضمها للامبراطورية الرومانية سيتم بعد ذلك بمائة سنة .

ثورة الغالة :

بعد ذلك أمضى قيصر عاما أو أكثر لتوطيد سلطانه في أرجاء الغالة حتى ظن أنها سلمت له تماما حتى أنه ابتدأ كتابه السابع عن الغالة بقوله :

Quieta Gallia, Caesar ut constituerat, in staliam coventus Agendos

هذه البداية توحي بأنه كان قد اطمأن تماما من الغالة ولكنه يبدو أنه نوع الاطمئنان الذي يبعثه الغرور في نفس الحاكم بأن الأمر قد استقر له نهائيا . ولكن ما كاد قيصر يغادر الغالة ويصل إلى إيطاليا حتى شبت ثورة عنيفة في أرجاء الغالة بقيادة شاب ناشىء من سلالة رؤساء القبائل هناك اسمه فركذ جتوركس جمع إلى شدة الحذر قسوة بالغة وخاصة مع المترددين في ولائهم (B. Gall VII.4) وفي الحال عاد قيصر إلى الغالة ولكنه وجد مشقة كبيرة في الاتصال بجيشه . على أي حال استطاع قيصر أن يستفيد من بعض القبائل التي لم تشترك في الثورة ، وتدريجيا أخذ يسترد أجزاء الغالة واحدة بعد الأخرى حتى عزل فركنجتوركس تماما وخاصة في قلعة Alesia بالقرب من ديجون ومنع دخول الامدادات إليه حتى اضطر إلى التسليم من شدة الجوع في سنة ٥٢ ق.م. بعد ذلك أخذ يعمل قيصر على إعادة الاستقرار والأمن إلى الغالة بأسلوب يضمن بقاء السيطرة الرومانية هناك . وقد تم له هذا في سنة ٥٠ ق.م . . لعل من أكبر أسباب نجاح قيصر ، أنه كان بعيداً عن الانتقام والرغبة فيه ، وظهر بمظهر أقرب إلى العدل والتسامح مما استمال له النفوس ، وفعلا اكتسب ولاء

الغالين لشخصه ، وقد سمح لهم بالتمتع بدرجة من الحكم المستقل والاحتفاظ بكثير من نظمهم القديمة ؛ والعناصر المشاغبة ضمّها إلى جيشه ، أما الباقون فشجعهم على الاستمرار في الزراعة والرعي ، كما فتح مناجم جديدة للذهب والفضة مما ساعد على تحسن حالة البلاد اقتصاديا مما شجع كثير من الرومان والايطاليين على الذهاب إلى هناك للإقامة أو للتجارة . وافتتحت كثير من المدارس هناك لتعليم اللغة اللاتينية والأدب اللاتيني على درجة راقية جدا حتى ليقال أن اللغة اللاتينية التي استعملت في الغالة كانت خيرا من لغة أهل روما . وبعبارة أخرى أخذت الغالة تصطبغ بالصبغة الرومانية وسوف تصبح في المستقبل مركزا لاشعاع الحضارة إلى باقي أجزاء أوربا .

نهاية الاتفاق الثلاثي الأول :

تنفيذا لقرارات مؤتمر لوكا وبعد انتهاء عام قنصليته ، شخص كراسوس إلى ولايته في سوريا آملاً في أن يعود إلى روما بأمجاد عسكرية تسند مكانته إلى جانب أمجاد زميليه . لهذا جلب على نفسه سنة ٥٤ حرباً لم تكن لازمة ضد البارثيين وهم مملكة تقع في الأقاليم شرقي الفرات . وفي معركة كاراي Carrhae سنة ٥٣ ق . م . دحر الجيش الروماني عن آخره وقتل كراسوس نفسه . ومن هذا التاريخ سوف لا تسلم الحدود الشرقية للامبراطورية الرومانية لمدة ثلاثمائة سنة .

أعمال بومبيوس :

موت كراسوس عجل بتطور الأحداث لتكشف عن المنافسة الحقيقية بين بومبيوس وقيصر بعد عام القنصلية في سنة ٥٥ ق . م . لم يذهب إلى ولاياته في اسبانيا وأفريقيا وإنما اكتفى بأن يديرهما عن طريق وكلاء Legati وبقي في إيطاليا بحجة مباشرة مهام منصبه كمشرف على تموين القمح .

في سنة ٥٤ ق.م. توفيت زوجته يوليا ابنة قيصر ، مما خلصه نهائيا من علاقة شخصية مع قيصر .

بومبيوس يتفرد بالقنصلية :

ازدياد الخلاف بين بومبيوس وقيصر ظهر جليا في ازدياد الخلاف بين أتباعهما وتوالي المظاهرات والاشتباكات بينهم . واشتد الصراع حول الانتخابات للوظائف وأخذ كل جانب بما في ذلك السناتوس يعطل انتخاب ممثلي الطرف الآخر واستخدم الترابنة حق الفيتو في الاعتراض على صلاحية الانتخابات . كل هذا أدى إلى عدم انتخاب أحد للقنصلية في عامي ٥٣ ـ ٥٢ق.م. وعمت روما الفوضى التي انتهت بقتل شخص اسمه كلوديوس كان للقنصلية ممثلا للجبهة الشعبية . فثار الشعبيون ثورة عارمة في أثناء جنازته مرشحاً وأحرقوا مبنى السناتوس نفسه . وبعض المباني العامة الأخرى في السوق الرومانية Forum . عند ذلك اضطر السناتوس إلى أن يطلب من بومبيوس أن يضع حدا لهذه الاضطرابات وأعلنوه بعد موت كلوديوس في سنة ٥٢ ق.م . قنصلاً بمفرده . وبهذه الصفة منحه الشعب في واقع الأمر سلطاناً دكتاتوراً من أجل إصلاح الجمهورية Rei Publicae Constituendae وبذلك جمع بومبيوس في يديه سلطة قنصلية إلى جانب سلطة بروقنصلية في الخارج حيث توجد جيوش تحت امرته ، هذا بالاضافة إلى أتباع كثيرين من الجنود السابقين مستقرين في مختلف أنحاء إيطاليا . هذا سلطان لم يسبق أن تمتع به شخص من قبل في روما . وهو في الواقع أول مثال للحكم الامبراطوري الذي ستشهده روما فيما بعد .

على أي حال أصدر بومبي في الحال بعض القوانين الاصلاحية ضد الرشوة وضد من يتسببون في الإخلال بأمن الدولة وطبقها دون محاباة بأمر رجعي ضد المتسببين في الاضطرابات السابقة التي أدت إلى قتل كلودبوس . هذه الأعمال كانت كافية لتحفظ الهدوء في روما . ريثما تنشب الحروب الأهلية بعد ذلك بقليل .

ـ أول خطوة إيجابية نحو الحرب الأهلية هي أن السناتوس، الآن، وقد أصبح بومبيوس في جانبه نهائياً اتخذ قرارا بمد سلطان بومبيوس كبروقنصل في اسبانيا خمس سنوات أخرى ابتداء من تاريخ صدور القرار في أثناء سنة ٥٢ ق.م. هذا الاجراء أدى إلى الاخلال بميزان القوى بين بومبيوس وقيصر . لأن هذا معناه بقاء بومبيوس متمتعاً بسلطان عسكري بعد أن ينتهي سلطان قيصر في الغالة .

ـ هكذا بدا أن بومبيوس ومعه السناتوس قد أصبحوا في منأى من أي خطر من ناحية قيصر . وقد استجمع السناتوس شجاعته في سنة ٥١ ق .م . وتحدث عن استدعاء قيصر إلى روما . ولكنه تعلل طبعا بأن عليه أن يحتفظ بسلطانه حسب القانون . وكان يبغي أن يبقى حتى تمر عشر أعوام بعد قنصليته السابقة ، حتى يستطيع أن يرشح نفسه في عام ٤٩ ق.م. لقنصلية عام ٤٨ ق.م. متى ينتهي سلطان قيصر في الغالة على وجه التحديد ، أمر لم يتضح من النصوص . على أي حال لم يكن قيصر ليقبل الوضع الجديد الذي يؤدي إلى أن يخلع عنه السلطان بينما يبقى سلطان بومبيوس .

ـ وكان لدى قيصر أكثر من دليل يجعله يعرف أنـه إذا سقطت عنه الحماية التي يُضفيها عليه السلطان البروقنصلي وعاد إلى روما فسوف يحاكمه السناتوس بعدة تهم منها ما يتعلق ببعض أعماله في قنصليته السابقة وفي بروقنصليته بدعوى أنه شن حروبا وراء حدود الامبراطورية في الغالة دون إذن السناتوس. وقد أعلن كاتو في مجلس السناتوس أنه يطالب بمحاكمة قيصر بسبب أعماله غير القانونية .

ـ ما كان على قيصر أن يفعله الآن هو أن ينجح في تولي وظيفة القنصلية مرة ثانية بينما هو لا يزال بروقنصلاً متمتعا بحماية ضد إمكان محاكمته بينما هو في السلطة .

- ضد هذا الاتجاه أصدر بومبيوس قانونا يمنع أي شخص من أن يرشح نفسه للوظائف العامة وهو خارج روما ، ولكن خشي بعد ذلك أن يكون قد تمادى في استعداء قيصر ، فأصدر استثناء خاصا به من أحكام هذا القانون .

هذا الاجراء جعل قيصر يظن أنه يستطيع أن يحتفظ بسلطانه البروقنصلي حتى نهاية سنة ٤٩ ق.م. حتى إذا أصبح قنصلا في سنة ٤٨ ق.م. يمكنه حينئذ أن يصدر قوانين وقرارات تؤكد شرعية كافة أعماله .

- ولكن السناتوس ومعه بومبيوس أخذ يعمل بعد ذلك على حرمان قيصر من هذه الفرص التي يطمح إليها ، واستمرت المفاوضات بين قيصر والسناتوس لمدة عام وأكثر في ٥١ - ٥٠ ق . م . وممثلو قيصر في روما وعلى رأسهم التربيون كوريو يعملون على حمايته من أي تشريع قد يضر بموقفه . وقد اقترح كوريو أخيرا بالاتفاق مع قيصر أن يتنازل كل من بومبيوس وقيصر عن سلطانهما في وقت واحد . وقد بادر قيصر بإعلان قبوله للفكرة بينما رفض بومبيوس عند ذلك اتهمه خصومه من الشعبيين أتباع قيصر أنه يريد أن يستأثر لنفسه بالسلطان وأنه لا يريد صالح الجمهورية في حقيقة الأمر .

وبذلك فشلت كافة المفاوضات بين الجانبين وسيطر الخوف على الطرفين وأعلن السناتوس في يناير سنة ٤٩ ق.م. أن قيصر عدو للوطن . واتخذ قراره الأخير وعهد إلى بومبيوس بأن يتولى مهمة حماية الجمهورية . حاول التريبونان ماركوس أنطونيوس وكوينتوس كاسيوس من أعوان قيصر أن يوقفا قرارات السناتوس باستخدام الفيتو ، ولكن أمام إجراءات السناتوس خشياً على حياتهما وفرا إلى قيصر .

- من ناحية أخرى ، اتخذ قيصر - الذي كان موجوداً مع جيشه في شمال إيطاليا - من الاساءة المتوقعة ضد الترابنة ذريعة ليعلن أنه سيحمي وظيفة ممثل الشعب ذات الحماية المقدسة ، بحكم القانون .

وفي ١٠ يناير ٤٩ ق.م. صاح لقد ألقى الزهر Alea Jacta وعبر قيصر نهر الروبيكون ، الذي كان يعتبر حد روما الشمالي الرسمي ومن يتعداه جنوبا على رأس جيش دون إذن السناتوس يكون بمثابة من أعلن الحرب على روما .

الحرب الأهلية :

هكذا قامت الحرب الأهلية بين بومبيوس والسناتوس من ناحية وقيصر والشعبيين من ناحية أخرى . وسار قيصر إلى الجنوب على رأس جيشه الذي دربه مدة عشر سنوات في الغالة . واكتسب ولاءهم وحبهم . وكان الجنود قد خبروا أساليب قيصر وسرعته في التنفيذ ، وكانوا على استعداد دائم لأن يستجيبوا لسرعته .

ولذلك تقدم قيصر إلى روما بسرعة هائلة ، بهرت خصومه ، كما بهرت المترددين فانحازوا إلى جانبه بسرعة ، فأعلنت كثير من المدن ولاءها له . كما أن حلمه مع الخصوم واعتدال شخصيته وسلوكه مع الناس كسب له كثيرا من الأتباع .

وجد بومبيوس أن الموقف في إيطاليا في غير صالحه فترك إيطاليا هو ومن استطاع من السناتوس وعبر الأدرياتيك إلى ابيروس Epirus معتقداً أنه يستطيع أن يجمع أعوانه من الجنود الذين أقامهم في الشرق .

لم يتبعه قيصر أولا ، وإنما دخل روما وأقام حكومة مؤقتة . ثم ذهب إلى اسبانيا حيث عمت الثورة ضده . قام هناك بعدة حملات في أثنائها تحول كثير من جنود الأعداء إلى صفوفه ، ثم عاد ثانية إلى روما ليقيم نفسه دكتاتورا لمدة تكفي أن يفوز في الانتخابات لقنصلية عام ٤٨ ق.م. بعد ذلك اعتزل الدكتاتورية وتوجه لمقابلة بومبيوس .

وتقابل الجيشان في تساليا عند فارسالوس التي كانت المعركة

الفاصلة للحرب الأهلية . وقد انتصر بها قيصر رغم أن قواته لم تزد على نصف قوات بومبيوس وذلك بفضل النظام الدقيق الذي كان يلزم قيصر به جنوده إلى جانب شجاعتهم المستمدة من ثقتهم التامة في قائدهم .

بعد هذه المعركة فر بومبيوس إلى مصر حيث قتل غدرا بينما هو ينزل إلى الشاطىء في مصر ، وعلى العموم وجد قيصر بعض المشاكل التي كان من نصيبه أن يقررها . وهي خلاف بين كليوباترا السابعة وأخيها بطليموس ١٣ حول العرش . أخذ قيصر جانب كليوباترا وأقامها ملكة على مصر ، مما عرضه إلى هجوم وحصار في الميناء قام به جنود بطليموس . في هذا الحصار أحرق جزء من أسطول قيصر في الميناء ، واقتربت النار إلى بعض أجزاء المكتبة في الاسكندرية على أي حال انتصر قيصر أخيرا وأصبحت كليوبترا ملكة . وأقام معها قيصر مدة ستة أشهر غادر بعدها مصر وملكتها الفاتنة ليواجه مشاكل السياسة والحكم في روما .

وقبل أن يذهب إلى روما مر على سوريا وآسيا الصغرى لينظمها ويؤكد سلطانه في الشرق . وهناك سمع بتهديد من ولاية بنتس Pontus فذهب إليها في رحلة لمدة خمسة أيام أخضعها وأرسل رسالته المشهورة إلى روما التي تقول Veni Vidi, Vici حضرت ورأيت وانتصرت .

عاد إلى روما في خريف ٤٧ ق.م. وكان قد انتخب دكتاتورا بعد انتهاء عام قنصليته . وواجه بعض الاضطرابات في روما وخاصة فتنة حدثت بين جنوده الذين كانوا يستعجلون مكافآتهم ، فقضى قيصر على الفتنة والاضطرابات .

قبل بعض معارضي قيصر من الجمهوريين مثل شيشرون حكم فارسالوس ، ورضوا بسيادة قيصر ، ولكن آخرين من أمثال كاتو ذهبوا إلى أفريقيا وأعلنوا العصيان ، فسار إليهم قيصر وقضى عليهم . وبعد ذلك في

العام التالي ، ذهب إلى اسبانيا وقضى على آخر معقل لأتباع بومبيوس حيث كان ابناه قد جمعا جيشا واستمر في مقاومة قيصر هناك . ولكن تمكن من هزيمتهم في معركة مشهورة هي Munda سنة ٤٥ ق.م. وهكذا أصبح قيصر سيدا للامبراطورية الرومانية بأسرها دون منازع .

دكتاتورية قيصر

سلطان قيصر :

إن قيصر لم يكن خلال كل هذا الصراع وهذه الحروب ليفوز بالنصر ويصبح سيد روما ، ثم تسير عجلة السياسة الرومانية كما كانت وهو سعيد بأن يكون على رأسها متمتعا بالمجد . إن الخلاف بينه وبين الجمهوريين من السناتوس كان أساسا خلافا حول نظام الحكم . الجمهوريون كانوا يسعون في عودة النظم الجمهورية الديمقراطية وما يصحبها من حريات للشعب الروماني . أي أنهم في أرقى مثلهم يريدون الحرية الدستورية لشعب روما ، وهذه يمكن أن توصف بأنها نظرة محافظة ضيقة ، لأنها لا زالت تفكر في الشعب الروماني فقط دون اعتبار لكافة شعوب الامبراطورية التي أصبحت روما الآن متحكمة في أقدارها .

كان يوليوس قيصر على النقيض من ذلك ، يرى أن نظام الجمهورية الرومانية قد أصبح ديمقراطيا من الناحية النظرية فقط ، وأن هذا النظام فشل في أن يزود روما بحكومة مستقرة لمدة مائة سنة تقريبا مما يسلب روما صفة القيادة والمسؤولية عن الامبراطورية .

كما أن هذا النظام قد فشل في حماية الامبراطورية وأن حكم

الولايات قد غدا جهازا للاستغلال والظلم . إن خيال يوليوس قيصر كان يمتد إلى آفاق أبعد من حدود روما ؛ ويبدو أن إقامته عشر سنوات في الغالة قد وسعت من نظرته ورأى أن الحكومة في روما مسؤولة أيضا عن الولايات . وبعبارة أخرى كان يوليوس قيصر يرى أن موضوع السياسة الرومانية هو إيطاليا والامبراطورية بأسرها وليس روما فقط كما كان يفعل السناتوس وأشياعه ، وهذا هو الفارق الأساسي بين الفريقين . هذه النظرة الشاملة تظهر جلية لكل من يقرأ كتاب يوليوس قيصر عن الحروب الأهلية . فهو في البداية يبدو على أنه حريص كل الحرص على تجنب الحرب وكان Bellum Civile, 129 على استعداد أن يستجيب لكثير من مطالب خصومه وأن يعود الأمر للسناتوس والشعب الروماني وتقام انتخابات حرة إذا قبل الطرفان إلقاء السلاح .

وبعد أن تقوم الحرب الأهلية ويذهب أثناء عودته من اسبانيا لأول مرة ، Bellum Civile, 1.35 إلى مارسيليا (وكانت قد اتخذت جانب بومبيوس) يبعث إلى أهلها رسالة يقول فيها : « يجب أن يتبعوا سلطان إيطاليا بأسرها ، لا أن يخضعوا لإرادة شخص واحد » (يقصد بومبيوس) ، هنا نلحظ أنه يذكر سلطان إيطاليا وليس سلطان الشعب الروماني كما هي العادة .

وفي المرحلة الأخيرة من الحرب ، يبعث قيصر خطابا إلى اسكبيو ليكسبه إلى جانبه وأن يعمل معه على إنهاء الحرب . هذه الرسالة تكشف لنا للمرة الثالثة نظرة قيصر الجديدة إلى السياسة الرومانية فهو يقول إذا تعاون أسكبيو معه سوف يعم الهدوء في إيطاليا والسلام في الولايات والأمن في الامبراطورية . وليس هناك ذكر إطلاقا لروما أو الشعب الروماني . . وإنما الاتجاه كله نحو إيطاليا والولايات .

نقول إن هذه وجهة نظر جديدة في السياسة الرومانية ويمكن أن يقال

إنها الفارق الحقيقي بين طريقة تفكير قيصر وطريقة التفكير التقليدية الرومانية التي كان يتزعّمها السنـاتوس .

فحين خاض قيصر الحروب الأهلية كانت له سياسة جديدة . من أجل تنفيذ هذه السياسة رأى أنه يحتاج لسلطان مطلق في الدولة . وقد تم له هذا عن طريق تولي السلطة الدكتاتورية أولا سنة ٤٦ ق.م. لمدة عشر سنوات وبعد ذلك لمدى الحياة في العام التالي . وفوق هذا السلطان زاد من سلطانه أيضا عن طريق تولي مجموعة مناصب في نفس الوقت مثل القنصلية عدة مرات ، والتريبونية التي تجعل شخصه مقدسا لا يمس ، والكهانة التي تجعله الرئيس الديني للدولة والكنسورية التي تمكنه من مراجعة عضوية السناتوس، كذلك اكتسب حق تعيين نصف الموظفين سنويا . وبعبارة أخرى استكمل قيصر سلطانه المطلق على الدولة مدى الحياة . ومع ذلك رفض لقب ملك ، ولعل ذلك مراعاة فقط للشعور الروماني الذي كان يكره الملكية .

إصلاحات قيصر :

رغم أن إقامة قيصر في روما منذ أن بدأت الحروب الأهلية لم تزد على ١٦ شهرا فإنه استخدم هذا السلطان المطلق لتنفيذ سياسته الجديدة التي ظهرت في سلسلة من التشريعات الثورية .

السنـاتوس :

من ذلك أنه سمح باستمرار الجمعيات التشريعية ولكنه منحها سلطة محدودة وجعل السناتوس مجرد هيئة استشارية . وقد زاد عدد أعضائه من ٦٠٠ إلى ٩٠٠ مضيفا أفراد من طبقة الفرسان ومن جنوده القدماء . وكذلك أفراد من ولاية الغالة . ولعله كان يهدف أن يجعل السنـاتوس بمرور الزمن ممثلا لكل الامبراطورية .

الولايات :

كذلك اهتم كثيرا بنظام حكم الولايات وعمل على إصلاحه ، فقرر إلغاء نظام الالتزام في جمع الضرائب ، وفرض بدلا منه ضريبة سنوية. حتى يمنع الرأسماليين من استغلال الولايات . . وأتبع ذلك بتعيينه حكاماً وموظفين أكفاء في الولايات وشدد عليهم الرقابة كما زود الجهاز الاداري في الولايات بعدد من عبيده المحررين مما يضمن نفاذ إرادته بدقة .

توسع في منح المواطنة الرومانية للولايات وخاصة إلى أسبانيا والغالة كما منح المواطنة اللاتينية لكثير من المدن في الولايات. ومن المحتمل أن هذا الاتجاه كان يهدف إلى تعميم المواطنة الرومانية بين سكان الامبراطورية وهو ما لم يتحقق إلا بعد ٢٥٠ سنة .

أنشأ عددا من المستعمرات الجديدة في البحر الأسود وفي موقع كورنثة وقرطاجة واسبانيا .

التقويم الروماني :

من أخلد أعمال قيصر هو تغيير التقويم الروماني الذي كان يقوم على السنة القمرية ٣٥٥ يوما واتخاذ التقويم المصري الذي يقوم على السنة الشمسية ٣٦٥ يوما على أن يضاف إليها يوم كل أربع سنوات . وجعل السنة تبدأ في يناير بدلا من مارس ، وأطلق اسمه على الشهر الذي ولد فيه وهو شهر يوليو . وهذا الاصلاح لا يزال باقيا إلى الآن بعد أن أضيف عليه تعديل البابا جريجوري الكبير سنة ١٥٨٢م .

روما :

إلى جانب هذا اتخذ خطوات نحو تجميل روما ، فجمّل لها أسواقها الفسيحة وأنشأ أول مكتبة عامة في روما ، وشيّد معابد كما وسع ميناء

أوستيا ميناء روما . وبدأ بتجفيف المستنقعات وبناء الطرق وما إلى ذلك من اصلاحات .

مصرع قيصر :

ظل عدد من الأشراف ينقم على قيصر مجده ، ويتوقون إلى استعادة سلطانهم القديم . خاصة وأن سياسته اتخذت ذلك المظهر الدكتاتوري الذي لم يسمح بقيام أي شخص آخر غيره في الدولة . فتألفت مؤامرة ضده من ٦٠ عضوا من السناتوس وفي سنة ٤٤ ق . م . كان يستعد لقيادة حملة ضد البارثيين ، ولكنه حين دخل إلى مجلس السناتوس في ١٥ مارس March Ides of التف حوله المتآمرون عند تمثال بومبي وطعنوه حتى الموت . ورغم أن المتآمرين قد اغتالوا قيصر لانقاذ الجمهورية، ولكن الجمهورية لم تعد أبدا إلى روما بعد ذلك، بينما بقي اسم قيصر خالدا، وأصبح لقبا للأباطرة من بعده في روما، ثم لقبا لأسر ملكية كثيرة مثل قيصر النمسا ألمانيا وتزار الروسيا قبل الثورة .

الفصل الرّابع

التمهيد لاقامة الأمبراطوريّة

الإتفاق الثلاثي الثاني :

أعضاء السناتوس الذين تآمروا على قتل قيصر ، اتهموه بأنه كان يسعى إلى تحويل الجمهورية الرومانية ، إلى مملكة على نمط الممالك الشرقية ، يكون هو ملكها وكليوباترا ملكتها . ونحن لا نعرف على وجه التحديد مدى صحة هذا الاتهام ، ولكن ما تمتع به قيصر من سلطات وصلاحيات سياسية وعسكرية ، لم يسبق أن تمتع بها حاكم جمهوري من قبل . ولكن هناك دليل واحد على أن قيصر كان ينظر إلى سلطانه على أنه وراثي ، وهو أنه قبل مصرعه بينما كان يستعد لحملته إلى الشرق ، كتب وصية جعل فيها حفيد أخته المسمى « جايوس أوكتاڤيوس » Gaius Octavius ابنه بالتبني ، وأورثه الجزء الأكبر من ثروته . هذا دليل واضح على أنه نظر إلى أوكتاڤيوس باعتباره وريثه وخليفته في مركزه . وقد سبق لأوكتاڤيوس أن ذهب مع قيصر إلى أسبانيا ووقت مصرع قيصر كان قد أرسل إلى اليريا في البلقان ليكمل تعليمه وليتلقى مزيدا من التدريب العسكري .

هذا هو آخر إجراء قام به قيصر ويدل دلالة واضحة على أن قيصر لم يكن يتصرف طبقا لتقاليد الدستور الروماني . ونحن نعرف أن قيصر في

سياسته طيلة حياته ، كان يسلك سياسة معادية ضد السناتوس ، وكان ذلك يعني في أغلب الأحيان ، عدم إقامة أي وزن للدستور الروماني . وبعدما حصل عليه قيصر من سلطات استثنائية وبعد انتصاراته المتلاحقة وخاصة على مجلس السناتوس بعد انتصاره على بومبيوس ، يبدو أنه قد اطمأن على أنه قد اخضع السناتوس نهائيا ، بل ربما اعتقد أن مهمة السناتوس في الدولة قد انتهت. وربما ابقاه من ناحية الاسم ، مؤقتا ، ريثما يفرغ من حملته في الشرق . وواضح أن قيصر كان قد أساء التقدير ، وأن السناتوس ، رغم ما اصابه من ضعف وانكسار ، كان لا يزال يؤمل أن قيصر هو العقبة الرئيسية في وجهه ، وأنه ـ أي السناتوس ـ إذا لم يكن قادراً على مواجهة قيصر عسكرياً فليواجهه بالخديعة والتآمر . وهذا هو ما حدث ، كما سبق ان رأينا في منتصف مارس / آذار سنة ٤٤ق م . ولا بد أن المتآمرين ، بقيادة « ماركوس بروتوس » و« كاسيوس » توقعوا أنه بمجرد ما يقضى على قيصر ، تؤول السلطة الشرعية في الدولة تلقائيا إلى السناتوس . ولكن شيئا من ذلك لم يحدث فإن « ماركوس انطونيوس » الذي كان يتولى منصب القنصل في ذلك العام ، و« ليبيدوس » قائد سلاح الفرسان ، كانا يمتلكان قوة عسكرية توليهما الولاء المطلق مما مكنهما من احباط أي تحرك نحو السلطة من قبل السناتوس . وازداد موقف المتآمرين حرجاً عندما اصبح من الواضح أن عامة شعب روما كانوا ضدهم ، فإن هؤلاء العامة استطاع انطونيوس ان يكتسبهم إلى جانبه بعد أن قرأ لهم ما تضمنته وصية قيصر من الهبات التي أورثهم إياها .

ولكن اتباع قيصر لم يكونوا أسعد حالا ، فسرعان ما دار في عقول الجميع السؤال الذي يفرض نفسه وهو من يكون خليفة قيصر ولم يفكر واحد منهم على الإطلاق في شخص أوكتافيوس، ذلك الصبي الذي كان في الثامنة عشرة من عمره وكان قد ورث ثروة وإسم قيصر وكان متغيبا في

البلقان وبدا منذ اللحظة الأولى أن انطونيوس ، القنصل كان أقدر الجميع على العمل والتحرك . وقد رأى انطونيوس أنه من الحكمة في ذلك الظرف المفاجيء الا يدخل في صراع صريح مع السناتوس طالما أن نوعا من الاتفاق يمكن الوصول إليه . وكان السيناتوس مستعدا لمثل هذا الأمر وصدرت التشريعات التي تقر كل أعمال قيصر . وما من شك أن هذا التصرف كان من نوع ردود الفعل السريعة أمام هول المفاجأة وحتى يستبين كل جانب طريقه وبعبارة أدق ، ريثما يحصل لنفسه على القوة العسكرية التي تمكنه من خوض الصراع . ونجح أنطونيوس في هذه الأيام الأولى من ذلك الوفاق المؤقت مع السناتوس من اتخاذ بعض القرارات التي تحقق مصالحه . فمنها مثلاً ، حصوله على ولاية الغالة لنفسه بدلا من مقدونيا التي كان قيصر قد قررها له ، ونقل « ديكيموس بروتس » احد المتآمرين من الغالة إلى مقدونيا دون أن يكون له قيادة عسكرية . وبالاضافة إلى ذلك إستطاع أن يمد سلطانه في حكم الولاية « دولابيلا » من سنتين ، حسب قرار قيصر ، إلى ست سنوات . أما ليبيدوس فأرسله إلى أسبانيا ليواصل الحرب ضد ابن بومبيوس الذي كان معتصما هناك بقوة عسكرية .

ولكن انتصارات انطونيوس هذه لم يكتب لها البقاء واستطاع ماركوس بروتوس وكاسيوس ، زعماء المتآمرين ، ان يرحلا إلى الشرق ضمّا إلى صفوفهما جيوشا رومانية هناك من مقدونيا ومن آسيا الصغرى ، استعدادا لمواجهة انطونيوس . اما في ايطاليا ، فقد تحطمت جميع خططه وآماله بظهور جايوس اوكتافيوس على الأرض الايطالية ، الذي كان قد أعلن قبوله لوراثة قيصر بكل ما تتطلبه من التزامات ، وما إن وصل إلى ايطاليا حتى طالب انطونيوس بان يرد له الأموال التي كان قد استولى عليها من خزائن قيصر ؛ وباعتباره ابنا لقيصر (بعد أن اعلن اسمه الجديد جايوس يوليوس قيصر أوكتاڤيانوس (Gaius Julius Ceasar Octavianus طلب بأن يشارك في تولي سلطة الحكم في الدولة . رفض انطونيوس جميع

هذه المطالب ، واضطر أوكتاڤيانوس ان يثبت أنه قادر على أن يصون حقوقه ، وازداد الموقف حرجا عندما التف حول أوكتاڤيانوس أعداد كبيرة من جنود قيصر القدامى ، وانضم إليه إثنان من الفرق الرومانية من التي كان استدعاها انطونيوس من مقدونيا . وبلغ التعقيد أوجه عندما عرض اكتافيانوس أن يتعاون مع السناتوس ضد انطونيوس الذي كان يحاول طرد ديكيموس بروتوس بالقوة من شمال إيطاليا . ورحب شيشرون الذي تزعم حزب السناتوس ، بهذا التعاون مع أوكتاڤيانوس. وبدأ موقف انطونيوس يزداد حرجا وضعفا حينما هزم عسكريا في شمال إيطاليا ، وإزداد شيشرون حماسا وأمّل أن يتم التفوق على انطونيوس وبعد ذلك يهون امر أوكتاڤيانوس اولم يُخف نواياه هذه ، التي لم تكن خافية على أوكتاڤيانوس. وأخذ الموقف يتحرك في صالح أوكتاڤيانوس ،لأن الجيوش التي كان قد ارسلها السيناتوس ضد انطونيوس في شمال ايطاليا بقيادة القنصلين الجديدين لعام ٤٣ ق م ، إنضم معظمهم - بعد مقتل القنصلين في الحرب - إلى جانب أوكتاڤيانوس . وإزداد أوكتاڤيانوس ثقة بنفسه وشعر أنه أكثر حرية على العمل مستقلا وبدلا من أن يقود جيشه ضد انطونيوس في شمال ايطاليا ، سار به إلى روما وذلك لأن مجلس السناتوس كان قد رفض ان يمنحه القنصلية بصفة استثنائية لصغر سنه ، بالاضافة إلى إقامة موكب نصر له ومنح جنوده مكافآت مالية . ولكن ما أن وصل على رأس جيشه إلى أسوار روما ، حتى زالت كل معارضة وتم انتخاب أوكتاڤيانوس قنصلا في الحال . وكان من أول أعماله إصدار قانون بتطبيق العدالة على قتلة قيصر وإدانتهم غيابيا . وهكذا انهارت احلام السناتوس في أن يستعيد حكم ايطاليا كما أن الصدام الذي ترقبه الجميع بين أوكتاڤيانوس وانطونيوس لم يحدث . ونشطت جهود بين قادة حزب الشعبيين بضرورة تدارك الموقف قبل ان ينهار وذلك بتوحيد صفوف اتباع قيصر ضد العدو الحقيقي وهو السناتوس . واجتمع الزعماء الثلاثة ، انطونيوس وليبيدوس

واكتافيانوس بالقرب من بولونيا في شمال ايطاليا ، وتم الاتفاق بينهم على أن تتشكل منهم لجنة ثلاثية لاعادة تنظيم الدولة ، وأن يتمتعوا بسلطان غير محدود tresviri reipiblicae constituendae ، وقسموا الولايات الغربية فيما بين ثلاثتهم وكلف أوكتافيانوس وانطونيوس بقيادة الجيوش ضد بروتوس وكاسيوس ، بينما ترك ليبيدوس لحماية الأرض الايطالية ، وصدر قانون في ٢٧ نوفمبر / تشرين ثاني سنة ٤٣ق م . يمنح هذا الاتفاق الثلاثي الصفة الشرعية اللازمة ، وتحدد ان يستمر العمل به خمس سنوات . ويبدأ عهد هذا الإتفاق الثلاثي الثاني واعادة تنظيم الدولة بعهد من الاضطهاد فاقت جميع الفظائع التي شاهدتها روما أيام ماريوس وسلا . وذهب كثيرون ضحية هذا الاضطهاد ومن بينهم شيشرون ، بينما فرّ من استطاع ان يفر من اعضاء السناتوس واتباعه ليلحق بقوى بروتوس وكاسيوس في الشرق ، أو لينضم الى سكستيوس بومبيوس في صقلية . وكانت المواجهة الأخيرة بين الجانبين عند موقع « فيليبي » سنة ٤٢ق م . وفي مرحلة مبكرة من المعركة شعر بروتوس وكاسيوس باليأس ، فانتحرا . وهكذا قضي نهائيا على آخر جيوش السناتوس ، وانتصر أوكتافيانوس وانطونيوس ؛ ولكن الحرب الأهلية لم تنته . فكان من الواضح أنه لن تستقر الأحوال مع وجود ثلاثة قواد على رأس الدولة . وتقرر ان يبقى انطونيوس في الشرق ليجمع مالا ويعود أوكتافيانوس إلى إيطاليا ليبحث عن أرض ، بهدف أن يمنح المال والأرض لجنودهما . ولم تكن مهمة انطونيوس في الشرق سهلة ، لأنه كان فرصته الوحيدة للحصول على المال من الدولة الوحيدة التي لم تكن قد خضعت لروما بعد ، وهي دولة مصر ، والتي كانت تحكمها الملكة كليو باترا . وما من شك أن انطونيوس ، نظرا إلى حاجته الماسة إلى المال ، ليعينه على المحافظة على جيوشه ، رأى أنه يستطيع أن يحصل على ما يريد من مصر بالاتفاق مع كليوباترا سلمياً ، دون اللجوء إلى الحرب . ولا بد أيضاً أن كليو باترا قد أدركت ، بعقلها

اللماح ، مدى حاجته إليها ، وقررت أن تستغله إلى أبعد درجة . وهكذا بدأت علاقة معقدة بين الاثنين ، طابعها صداقة وعاطفة قوية ، وهدفها مصالح مشتركة . وفي الوقت نفسه ، بدأت العلاقة السياسية بين انطونيوس أوكتافيانوس تتكشف عن حقيقتها . فطالب انطونيوس بأن يسمح له بالحضور إلى ايطاليا ليحصل على جنود جدد لجيوشه ، ليتمكن من مواجهة اعداء روما في الشرق وهم « البرثيين » في أرض الرافدين الذين ألفوا تهديد الحدود الشرقية لروما دائما . ورفض أوكتافيانوس ، وتوترت العلاقة بينهما وأوشكت أن تتحول إلى صدام صريح ، لولا تدخل الأصدقاء بينهما وأمكن اقناعهما بعقد اجتماع جديد في برنديزي سنة ٤٠ق.م لتجديد الاتفاق بينهما . وفي هذا الاجتماع ، اتفقا على أن يمنح انطونيوس حكم الشرق أوكتافيانوس الغرب وشمال أفريقيا إلى ليبيدوس . وأما ايطاليا ، فبقيت شركة بين الجميع ، رغم أنه لم يقم بها غير وأوكتافيانوس . وتأكيداً للتحالف بين المتنافسين ، تزوج انطونيوس من « أكتافيا» ، أخت أوكتافيانوس ، وذلك بعد ان توفيت زوجته الأولى « فلفيا » ، اما كليو باترا فلم يرد لها ذكر في هذه المناسبة . ووضعت هذه الاتفاقية موضع التنفيذ ، واستمرت ثلاث سنوات ، وفي اثنائها عاد الفتور بين أوكتافيانوس وانطونيوس ، وكان من الممكن أن يقع صدام بينهما ، إلا أن انطونيوس كان مشغولاً بحروبه ضد البرثيين . وشعر الجميع بضرورة تجديد الاتفاق واجتمعوا مرة ثالثة في « تارنتم » بجنوب ايطاليا سنة ٣٧ق م . وقرروا تمديد سلطات المتفقين الثلاثة خمس سنوات اخرى . في هذا العام ، حقق أوكتافيانوس عدة انتصارات على آخر ممثلي السناتوس وهو سكتوس بومبيوس، ابن بمبيوس العظيم ، وكذلك على ليبيدوس الذي كان قد انشق عليه . وهكذا اصبح أوكتافيانوس سيد القسم الغربي من الامبراطورية ، دون منازع . وفي سنة ٣٦ق م . تطورت العلاقة بين انطونيوس وكليو باترا واعلنا زواجهما . وبعد أن حقق انطونيوس انتصارا

جديدا على البرثيين وفي أرمينيا ، انتابته نوبة من الزهو واتجه إلى أن يوحد مصيره بمصير كليو باترا ، وقرر أن يمنح ابناءها منه بعض الولايات الرومانية في الشرق . ونحن لا نعرف على وجه التحديد ماذا كتب انطونيوس في وصيته التي بعث بها لتودع في احد معابد روما ، على عادة الرومان ، وكل ما نعرفه هو ما اعلنه أوكتافيانوس باعتباره وصية انطونيوس . ومن المحتمل أن تكون ما اعلنه اكتفيانوس وصية مزيفة ، ولكن استطاع ان يقنع بها شعب روما وايطاليا ، بدعوى أن انطونيوس كان قد قرر أن يحول الامبراطورية الرومانية إلى مملكة شرقية يحكمها هو وكليوباترا . وسخر جميع اجهزة الدعاية التي كانت متاحة له بأن هدف انطونيوس وكليوباترا ، إذا قُدّر لهما الانتصار ، هو استعباد روما وايطاليا . واستفاد اكتافيانوس من جميع أخطاء خصمه واستطاع ان يجمع حوله جميع القوى الرومانية في الغرب وطالب ايطاليا والولايات بأن تقسم يمين الولاء لشخصه ليكون قائدها في الحرب ضد كليو باترا . وحدث شيء مشابه في الشرق ، إذ أخذ انطونيوس لنفسه قسما مماثلا من جيوشه ومن المواطنين الرومان المقيمين في ولاياته ومن الأهالي . ودار الصدام الأخير بين الجانبين في معركة « أكتيوم » سنة ٣١ ق م . وهي من أشهر المعارك البحرية في التاريخ وتقع عند خليج اكتيوم في غرب اليونان . واتضح منذ اللقاء الأول أن الغلبة لأوكتافيانوس ، وسرعان ما فرّت كليوباترا باسطولها ولحق بها انطونيوس وذهب الى مصر . وقبل ان يتمكنا من تكوين جيش جديد ، فاجأهما أوكتافيانوس الذي حضر عن طريق سوريا وفلسطين ، فانتحر انطونيوس ولحقت به كليوباترا .

الفصل الخامس

تأسيس الأمبراطورية

عودة أوكتافيانوس الى روما :

في نهاية صيف عام ٢٩ ق م .عاد أوكتافيـانوس إلى روما في موكب نصر عظيم . أقر مجلس السناتوس جميع أعماله ، وأعلن يوم ميلاده عيدا رسمياً في الامبراطورية ، كما قرر اقامة اقواس نصر في برنديزي وفي روما . وعلى مدى ثلاثة أيام متعاقبة سارت مواكب النصر ، تمثل انتصاراته الثلاثة في دلماتيا واكتيوم ومصر . وقد فاقت جميعها ما سبق ان اقيم ليوليوس قيصر من مواكب النصر ، بذخاً وجلالا . ولأول مرة في روما منذ نهاية الحرب البونية الأولى في سنة ٢٤١ ق م بقيت أبواب معبد الاله يانوس مغلقة دليلا صامتا ولكنه واضح للعيان على استتباب السلام بالبر والبحر في جميع ارجاء العالم الروماني ، فقد كان التقليد المتبع في روما هو فتح أبواب هذا المعبد للصلاة والعبادة ما دام هناك جيوش رومانية تحارب وتغلق فقط في الأيام التي يستتب فيها السلم . وهكذا بعد اكثر من قرن من العنف والحرب الأهلية ، اصبح باستطاعة الناس ، لأول مرة ان يتنفسوا بحرية وان يحيوا وان يتمتعوا بالسلام والرخاء دون خوف من مصادرة الأملاك أو اوامر الاعتقال أو الموت البشع . ولكن إذا كان السلام قد ساد داخل الامبراطورية ، فقد كانت الحدود لا تزال بحاجة إلى حماية

بسبب تجمع المتبربرين وراء نهري الراين والدانوب أو بسبب هجمات البرثيين على حدود سوريا الشرقية :

كما كانت هناك مشكلة الجيوش الرومانية الذين كانوا يمثلون خطرا على الأمن والاستقرار في الداخل ، اكثر من خطر المتبربرين على الحدود ، وذلك خوفا من مطامع القواد الطموحين .وللدلالة على مدى العبء الذي تمثله هذه الجيوش ، كان تحت إمرة أوكتافيانوس، سبعون فرقة ، في حين أن أقل من ثلاثين فرقة كانت كافية للدفاع عن الامبراطورية . وكان عليه ان يحتفظ بهذا القدر من الفرق تحت سلطة عليا لا تنقسم ، ويسرح الباقي . وتسريح الجنود لم يكن بغير مشاكل ، فكان عليه أن يعمل على استيطان الجنود المسرحين لأكثر من أربعين فرقة ، وكان لا بد من ان يمنحهم ارضا يستقرون عليها ، الى جانب منحهم المكافآت المالية المعتادة . وكان عليه أن يحقق ذلك كله ، دون أن يلجأ إلى مصادرة الأملاك الخاصة ، أو فرض ضرائب جديدة .

كما كان امامه مهمة أشدّ صعوبة وهي ، إعادة بناء الدولة التي كانت الحروب الأهلية قد تركتها مفككة على وشك التداعي والانهيار ، فلا بد من العمل على تكوين ادارة مركزية جديدة واعادة مكانة السناتوس التي عمل يوليوس قيصر على محوها ، وتكوين ما يشبه مجلس الوزراء لادارة الدولة ، والابقاء على القيادة العسكرية العليا في يد رئيس الدولة ، واقامة ادارة مدنية للامبراطورية إلى جانب تنظيم الميزانية العامة ، واصلاح حكم الولايات والاشراف على السياسة الخارجية ، هذا مع العناية باحياء الاخلاق القديمة وبعث حيوية دين الدولة . وبالاضافة إلى هذا كله ، كان أمامه مهمة العثور على شخص صالح لخلافة الحكم .

هذه المهام كلها كانت كفيلة بأن تستنزف اكثر البشر طاقة وحيوية ، ولكن أوكتافيانوس، الذي تميز بصحة ضعيفة ، عليلة ، استعاض عن

القوة البدنية ، بقوة ارادته الحديدية ، وتصميمه واتزان تفكيره واحساسه السياسي المرهف الذي اظهره منذ بداية طريقه الشاق في صعوده الى السلطة ولقد عادأوكتافيانوس من الشرق ، بطلا معبودا من الشعب وله من المكانة والسطوة ما لم يتمتع به حتى يوليوس قيصر فالشرق والغرب مدينان له بالولاء ومرتبطان بشخصه بالقسم والمواثيق ، كما كانت له هو وحده قيادة أفضل وأضخم جيش في تاريخ روما ، بالاضافة إلى تحكمه في موارد وأموال امبراطورية عالمية ، غنية ، فكنوز مصر وحدها ، التي استولى عليها ، كانت كافية لتقديم منح الأرض والمكافآت اللازمة لجنوده المسرحين . هذا بالاضافة إلى امكانيات مصر في إنتاج الغلال ، الذي كانت تستورده روما من قبل بالمال ، أصبح الآن يأتي إلى شعبها ، جزية مفروضة بالمجان .

ولعل من أهم ما تمتع به أوكتافيانوس، فوق موارده المالية ، وسلطاته العسكرية وشعبيته بين الجماهير ، هو ما كان له من مكانة وجلال فريدين (وهو ما يسمى auctoritas) . ولم يجرؤ إنسان بعد ذلك ، على أن يفكر في منافسته في منصب أو زعامة ، وأصبح هو وحده على رأس الدولة ، مصدر كل حماية وسلطة في الامبراطورية .

ألقاب خاصة:

أول لقب اتخذه أوكتاڤيانوس في قائمة ألقابه المهيبة هو «قيصر»، الذي اتخذه إسماً له بعد وفاة يوليوس قيصر مباشرة والعملة التي أصدرها تثبت بوضوح أنه احتفظ بهذا الإسم حتى بعد اكتيوم. فرغم أنه لم يعد في حاجة إلى الدعم الأدبي لهذا الإسم من أجل اجتذاب الجنود له، ولقد استبعده مؤقتاً، ومحاه من السجلات، ومع ذلك فقد كان لإسم «قيصر» مستقبل عظيم، إقترن بالمجد والسلطان والحكم المطلق. وأصبح من بعد لقب كل أمبراطور من خلفائه، وبقي إلى الأزمنة الحديثة متمثلا في قيصر ألمانيا والروسيا (Czar) حتى الحرب العالمية الأولى وقيام الثورة.

وثاني ألقابه، «إمبراطور» (Imperator) ، والذي جعله أيضاً جزءاً من اسمه الرسمي، كان لقباً يتميز بالعراقه والإستعلاء. فكان القائد الأعلى للجيش المنتصر يحيى دائماً «بإمبراطور»، وكان يحتفظ باللقب حتى بعد موكب النصر. تلقب به من قبل ماريوس وسلاّ ويومبيوس ويوليوس قيصر، وتلقّب به أوكتاڤيانوس نفسه سبعاً وعشرين مرة في حياته لانتصارات حققها بنفسه أو بواسطة نوابه من القواد. وعلى خلاف قيصر

وبومبيوس وسائر قادة العصر الجمهوري الذين كانواقد مُنحوا هذا اللقب، نجد أوكتافيانوس يتخذه إسما يتسمى به (Praenomen) ، واحتفظ به بصورة مستمرة كجزء من إسمه الرسمي ، مؤكدا بذلك ماضيه العسكري. ورغم أنه خلفاءه المباشرين استبعدوا هذه التسمية (كما فعل تبيريوس وكاليجولا وكلوديوس)، إلا أنه إبتداء من ڤسباسيان عادت كلمة «امبراطور» اللقب الرسمي لكل حاكم روماني، وكثيراً ما تسمى به الملوك من بعد في العصور الوسطى والحديثة.

هناك لقب ثالث لم يستخدم في التسمية الرسمية، ولكن ظل له أهمية خاصة بين ألقاب أوكتاڤيانوس، ذلك «رئيس الدولة» (Princeps civitatis)، وكثيراً ما يختصر إلى «رئيس» (Princeps) فقط، ومنه اشتق الإسم الذي أطلق على النظام السياسي الذي أنشأه أوكتاڤيانوس، (Pricipate) أي النظام الرئاسي، ومنه اشتقت أيضاً كلمة (Prince بمعنى أمير). ورغم أن هذا اللقب استخدم بمعنى ملك أو إمبراطور، إلا أنه لم يكن له هذه الدلالة من قبل في العصر الجمهوري. أثناء الجمهورية كان لقب Princeps يعني dux ، للقائد المنتصر، إذا كان قنصلاً سابقاً من أسرة نبيلة أو شريفة، وأصبح زعيما للسناتوس ، وهو شخص عادة يتميز بمكانة إجتماعية ومهابة وسلطان أدبي. ومن بين من تلقب «بالرئيس» في العصر الجمهوري كنكيناتوس (٤٦٠ ق.م. تقريبا)، وأسكبيو الإفريقي (٢٠٥، ١٩٤ ق.م.)، وكاتون الكبير (١٩٥ ق.م.)، وإسكبيو إيميليانوس (١٤٧، ١٣٤ ق.م.)، وماريوس وبومبيوس ويوليوس قيصر... وغيرهم.

كان سلطان أو قوة أوكتاڤيانوس تقوم على أساس الجيش والشعب، وإعتمد حكمه على دعامتين: السلطان البروقنصلي (Imperium Proconsulare) والسلطة التريبونية، الأولى منحته سلطة قيادة الجيوش والثانية منحته حق تمثيل الشعب مع التمتع بحق الإعتراض (Veto) على

أعمال السناتوس أو رجال الحكم مثل القناصل. وينبغي أن نلاحظ أنه تمتع بسلطان عسكري Imperium Maius أعلا من سلطان جميع حكام الولايات أو قادة الجيوش الرومانية فكانت أقاليم روما وإيطاليا ومصر وجميع الولايات التي كانت بها جبهات قتال تحارب فيها فرق رومانية، مثل إسبانيا والغالة وسوريا، جميعها كانت خاضعة لحقه المطلق في القيادة العسكريةImperium Maius ، هذا الأمبيريوم الأعلى منحه سلطاناً مطلقاً على القوات المسلحة، وحرم القواد العسكريين من فرصة اغتصاب السلطة من الدولة ، وهي الظاهرة التي أدت إلى سقوط الجمهورية.

كان باستطاعة أوكتافيانوس - بفضل شعبيته منقطعة النظير أن يجعل نفسه دكتاتوراً أو حاكماً عسكرياً، ولكنه كان مصرّا على أن يقتسم الحكومة مع السناتوس، طالما كان يتعامل مع السناتوس من مركز القوة. من أجل تحقيق هذا الهدف على أي حال قام في سنة ٢٨ ق.م. بتطهير السناتوس من الأعضاء الدخلاء من العناصر غير المرغوب فيها ، الذين ادخلوا في فترات الحرب الأهلية . وبلغ عدد من حرم العضوية في عام ٢٨ ق.م. مائتي عضو، ثم أعقب ذلك عمليات تطهير أخرى في عام ١٨ ق.م و١٣ ق.م. ، وبذلك هبطت عضوية السناتوس من ٩٠٠ الى ٦٠٠ عضو. ثم وضع قواعد لعضوية السناتوس بحيث يجب أن على من يقترح لعضوية السناتوس أن يكون قد تولى الكويستورية من قبل وأن ينتمي إلى أسرة من اسر السناتوس وأن يكون متمتعا بحسن الأخلاق، ولكن لعل أهم شرط بعد ذلك هو شرط النصاب المالي وهو ٨٠٠,٠٠٠ سستركيس (أي ما يزيد على ٧٠,٠٠٠ دولار)، ثم زيد النصاب بعد ذلك الى ١,٠٠٠,٠٠٠ سستركيس (او ما يزيد على ٩٠,٠٠٠ دولار). كما جعل نصابا ماليا لطبقة الفرسان يقدر بنصف النصاب السابق تقريبا، اي ٤٠٠,٠٠٠ سستركيس. وقد طبق سياسة يوليوس قيصر في السماح لأفراد أثرياء من البلديات الإيطالية ومن بعض المستعمرات الرومانية في الغالة

واسبانيا بدخول طبقة السناتوس وطبقة الفرسان. وسنجد الأباطرة من بعده يتوسعون في تطبيق هذه السياسة.

دستور عام ٢٧ ق.م.:

في الثالث عشر من يناير (كانون الثاني) عام ٢٧ ق.م. وقف أوكتافيانوس أمام السناتوس ـ بعد أن تم تطهيره ـ وعرض عليهم التنحي عن جميع سلطاته وصلاحياته للسناتوس والشعب الروماني. هذا العمل الدرامي من جانب أوكتافيانوس كان يعني في ظاهره إعادة العمل بالنظم الجمهورية، وكما توقع أيضاً حرك الخوف في النفوس بدلا من الفرح. وكان رد فعل السناتوس هو رد سلطاته اليه على معظم أرجاء الإمبراطورية. ولفهم ما حدث في ذلك الإجتماع، يجب أن نذكر أن أوكتاڤيانوس، عندما هزم أنطونيوس، كانت قوته تعتمد على حقه وحده في سلطة القيادة العسكرية في الدولة. وعندما اعتزل سلطاته الإستثنائية في سنة ٢٧ ق.م. اعتزل كذلك سلطة القيادة للجيوش. حقيقة إنه احتفظ بلقبه العسكري «امبراطور»، أما سلطة القيادة العسكرية فقد ردها عليه السناتوس في الحال. قد يتساءل الإنسان ماذا كان يفعل، إذا ما تصرف السناتوس على نحو آخر. ولكن من الواضح أن السناتوس لم يحاول أخذ السلطة العسكرية منه، ولعل السبب هو أن إرتباط الجيش بأوكتافيانوس كان من القوة بحيث لا يمكن الفصل بينهما بأي قرار من قرارات السناتوس. وبعبارة أخرى كان السناتوس مدركا انه إذا فعـل ذلك، فعليه ان يواجه الجيش. ولذلك ما فعله السناتوس هو كل ما كان باستطاعته عمله وهو منح أوكتاڤيانوس الإمبيريوم البروقنصلي لمدة عشر سنوات في جميع الولايات التي كان بها جيوش رومانية، باستثناء (شمال) افريقيا ومقدونيا، وعدد من الولايات الأخرى التي ليس بها جبهات قتال. وهكذا انقسمت الإمبراطورية الرومانية الى ولايات امبراطورية يحكمها أوكتاڤيانوس عن طريق وكلائه ومندوبيه، وولايات أخرى يعين السناتوس لإدارتها، كما كان

الوضع في الجمهورية، ممن بلغوا درجة البروقنصل او البروبرتيوس. ومع ذلك أوكتاڤيانوس ـ في واقع الأمر ـ يمارس نوعاً من الإشراف على حكام ولايات السناتوس بفضل مركزه كرئيس للدولة Princeps وبفضل ما منح من السلطان العسكري الأعلى Imperium Maius .

وبعد ثلاثة أيام من هذا الإجتماع، اجتمع الساتوس ثانية ليعبر عن شكره واعترافه بالجميل تجاه أوكتاڤيانوس باعتباره باعث الجمهورية. وكانت القرارات التي اتخذها في ١٦ يناير (كانون الثاني) ٢٧ ق.م. هي وضع إكليل من الغار على أعمدة بابّ منزله، وأن يعلق في السناتوس درع ذهبي مسجل عليه فضائل أوكتاڤيانوس وهي الشجاعة ـ الرحمة ـ العدل ـ الإيمان . وكذلك تقرر أن يضفي عليه لقب جديد يفوق جميع ألقابه السابقة بريقا ومجد وهو لقب «أغسطس» Augustus وهو لقب اقتصر استخدامه من قبل على بعض الألهة ، باعتبارها متميزة بالكمال والقدرة على خلق ما هو أكمل وأفضل . وهذا هو أوكتاڤيانوس قد أوجد النظام الأكمل للدولة . وسوف يغلب عليه اللقب الجديد، ويصبح إسما يخاطب به ويفضله على غيره من الألقاب والأسماء. ونظرا لشهرته بهذا اللقب، أصبح من المألوف تسميته الآن بأغسطس.

وقد جارى اعسطس مجلس السناتوس في هذه المحاملات وزاد من سلطاته . فأعاد إليه الإشراف على الشؤون المالية. كما منحه سلطة القضاء في قضايا الإبتزاز في ولايات الساتوس. ورغم أنه أقر حق الجمعية القبلية في إصدار القوانين، سمح للسناتوس بإصدار قرارات لها قوة القانون دون إقرار الجمعية القبلية لها . وهكذا يمكن أن يقال إن السناتوس قد أصبح رسميا شريكا كاملاً في الحكم، ولكن في الواقع ـ كما لاحظ كل من المؤرخين تاكيتوس ديون كاسيوس ـ إن إجراءات إعادة الجمهورية لم تزد على أن تكون واجهة دستورية لنظام إمراطوري اقترب من الحكم الفردي المطلق. وسواء أراد أغسطس للنظام الحديد أن يسير إلى الإستبداد

أم لم يرد، إن قوى الواقع الناجمة عن تكوين إمبراطورية عالمية قد وضعت حدا للنظام الجمهوري في روما. وواحد من هذه القوى هو الجيش، الذي بدونه لا يستتب أمن في الداخل ولا يسود سلام في الخارج . هذا الجيش أصبح الآن جيش الثورة وأغسطس هو قائد الثورة ، وهو سيد الدولة وحارسها والمدافع عنها . وإن تحكمه في ذلك الجيش هو الذي منحه قوة وسلطة مادية واقعية لا يمكن إخفاؤها وراء واجهة زائفة بإعادة الجمهورية.

كان لأغسطس حق دعوة السناتوس، وإدارة أعماله وتطهير أعضائه، وحق رئاسة عمليات الانتخاب في الجمعيات الشعبية واقتراح أو التوصية باسماء المرشحين، وحق الاعتراض على أعمال جميع الموظفين وأصحاب المناصب في الدولة ، وحق الإشراف على القضاء، وله أن يقبل أية شكوى باعتباره أعلى سلطة قضائية في الامبراطورية . وفوق ذلك كان شغل وظيفة «رئيس السناتوس» (Princeps Senatus)، وهو منصب يمنحه الحق في أن يكون أول المتكلمين وبذلك يوجه القرارات .

ومن وجهة نظر السناتوس ، فلعل أكثرية أعضائه لم تكن راغبة حقاً في إعادة الجمهورية . فجميعهم يعرفون ما انتهت اليه الجمهورية من فوضى واضطهاد وحرب أهلية . كما أن مجرد التحكم في الجيش ومشكلة الدفاع عن الامبراطورية كانا يبدوان مهمتين مستحيلتين لأكثر الأعضاء . وكان هناك دائماً شبح أبطال الحرب المنتصرين مثل ماريوس وسلاوبومبيوس وقيصر قد يعودون الى تمزيق الدولة. ثم هناك جبهات حرب لا زالت مشتعلة ، فإسبانيا ما زالت غير آمنة ولم يتم إخضاعها، وكذلك الغالة في حاجة الى إعادة تنظيم، وسوريا يخشى عليها من هجمات البارثيين ووراء حدود الراين والدانوب قبائل متبربرة تتحين الفرص لتنقض على أراضي الأمبراطورية. من لكل هذه الانجازات الملحة

غير أغسطس، بما له من سلطان عسكري على الجيوش، ودون ان يصيب الدولة بحرب أهلية جديدة.

إيجاد نظام للحكم في شكل مجلس:

منذ عام ٢٧ ق.م. تمكن أغسطس من تعيين لجنة من السناتوس لمعاونته في إعداد جدول أعمال اجتماعات السناتوس. وكانت هذه اللجنة، التي كانت تتكون من القنصلين وممثل واحد عن كل من مناصب الحكم الأخرى في سلك المناصب السياسية الشرفية المعروفة اصطلاحا باسم Cursus Honorum، ومعهم خمسة عشر يختارون بالقرعة من بين أعضاء السناتوس، تتغير كل ستة أشهر. وبعد أن أعيد تنظيمها في عام ١٣ ميلادية وأضيف إليها أعضاء من أسرة الامبراطور ومن طبقة الفرسان، أخذت هذه اللجنة تمارس مهاماً كانت من قبل من اختصاص السناتوس ذاته. ورغم ذلك فإنها لم تصبح مجلساً للحكم بمعنى الكلمة. فكانت اجتماعاتها علنية الى حد ما، وكانت مجرد هيئة إدارية، وليست هي التي ترسم سياسة الدولة.

أما أصول مجلس الحكم الذي عرف في الامبراطورية فيما بعد، فلم تكن تلك اللجنة البسيطة المتغيّرة من السناتوس، وإنما تمثلت في مجموعات صغيرة من كبار الإداريين، وأصدقاء أغسطس المقربين، وذوي المكانة الرفيعة من أعضاء السناتوس، وخبراء القانون وغيرهم من الإخصائيين، الذين كانوا يجتمعون بطريقة غير رسمية في إجتماعات مغلقة. هؤلاء كانوا يقررون سياسة الحكومة، والتشريعات التي تعرض على إجتماعات السناتوس والجمعيات الشعبية، والمرشحين الذين ينوي أغسطس إقتراح اسماءهم في الانتخابات التالية، والحاكم التالي لهذه الولايات او تلك، وجميع الامور التي تتعلق بالمالية العامة والشؤون الخارجية والقانون والدين وإدارة الامبراطورية.

الجهاز الإداري للامبراطورية:

من إنجازات أغسطس الكبرى تكوين جهاز إداري دائم، وهو عمل بدأ مبكرا في حكمه، ولم يكن قد استُكمل عند وفاته. فإن جهوده المتصلة الوئيدة لإعداد الإداريين المدربين، والذين كانوا يتقاضون رواتب، هي التي مهدت لإقامة طبقة الموظفين في الإمبراطورية، والتي مكنت الأباطرة المتأخرين من التحكم في إدارة الدولة الرومانية العالمية.

ولم تكن فكرة الجهاز الإداري جديدة تماما. فمنذ الحرب البونية الثانية، كان قد اعتاد حكام الولايات والمسؤولين عن إدارتها،وكذلك أصحاب الضياع الكبيرة المبعثرة في أرجاء متباعدة استخدام المحررين من العبيد والعبيد الذين يمتلكونهم كسكرتاريين ومحاسبين ومديري أعمال لهم. ولقد استعان بومبيون بمثل هذه العناصر في إدارته لتموين روما بالقمح، وفي حكم ولاياته. وكان أغسطس قد ورث من يوليوس قيصر جيشاً جراراً من العبيد المدربين والوكلاء الشخصيين، الذين كانوا نواة النظام الاداري المعقد الذي نشره فيما بعد على الامبراطورية بأسرها. فلم يحدث من قبل أن كانت هناك حاجة ملحة الى جهاز إداري كما حدث في عصر أغسطس، سواء في روما أو إيطاليا. في روما، من أجل الإشراف على الخدمات الحيوية مثل إمداد روما بالقمح (Cura Annonae)، وتوزيع القمح على المواطنين الرومان (Frumentario)، وإمداد روما بالماء (Cura aquae) والشرطة والإطفاء، ومنع الفيضانات، ورصف وصيانة الشوارع والأسواق، وإقامة وترميم المعابد والمباني العامة. وفي إيطاليا، من أجل المحافظة على الأمن والنظام، وتشييد وصيانة المنشآت العامة مثل الطرق والكباري، أما في الولايات، فمن أجل إدارة الممتلكات الخاصة بالأمبراطور، جباية الضرائب، وتزويد الجيوش بالإمدادات والتموين، المنشآت العامة وبريد الأمبراطور (Cursus Publicus)

أعضاء السناتوس في جهاز الادارة:

عين أغسطس في التنظيم الذي استحدثه للجهاز الإداري افرادا من جميع الطبقات الإجتماعية: أعضاء السناتوس، فرسان، المحررين وكذلك العبيد. فرئيس الشرطة (Praefectus urbi)، الذي كان تحت امرته قوة من رجال الامن من ثلاثة فصائل، قوة كل فصيلة ألف رجل، كان في البداية دائماً من طبقة السناتوس من فئة القناصل، وكذلك كان مدير هيئة المياه، الذي عينه أغسطس في عام ١٢ ق.م.. يعاونه عضوان من السناتوس و٢٤٠ عبدا كان قد دربهم أجريبا لخدمة قناطر المياه ومحطات مياه المدينة. وهيئة أخرى من خمسة اعضاء من السناتوس تولت أمر مشكلة الفيضان على طول التيبر. عضوان من السناتوس من طبقة القناصل كانا يرأسان حتى عام ٦ ميلادية الهيئة الهامة الخاصة بإمدادات القمح، والتي كان لها مكاتب فرعية في ميناء بيوتولي، وكذلك في الولايات المنتجة للقمح.

معظم أعضاء السناتوس المعينين في الهيئات السابقة كانوا من طبقة البريتوريين. فعدد البريتوريين السابقين كان اكثر من عدد القناصل السابقين في هيئة المياه، وهيئة توزيع القمح التي أقيمت سنة ٢٢ ق.م. وفي الإدارة المسؤولة عن المباني العامة في روما، وفي الإدارة التي عينت في عام ٢٠ ق.م. للإشراف على بناء الطرق وصيانتها في جميع أرجاء إيطاليا. وفوق ذلك، كان معظم حكام الولايات والوكلاء Legati في الولايات الامبراطورية كانوا من هذه الطبقة.

طبقة الفرسان في الجهاز الإداري:

رغم أن أغسطس، وخاصة في بداية فترة رئاسته (Principate)، عين أعضاء السناتوس في مناصب بارزة ومرموقة، إلا انه إختار لكثير من مناصب الإدارة العليا إداريين من طبقة الفرسان. وكان للفرسان خبرة

قيمة، وخاصة في شؤون المال والضرائب والتجارة، مما كان يعوز أعضاء السناتوس. فلمدة تزيد على قرن من الزمان كان الفرسان يستغلون مصادر الثروة الطبيعية في الامبراطورية من مناجم وغابات ومصايد أسماك، وكانوا قد أقاموا احتكارات لأنفسهم في أعمال البنوك والملاحة والصناعة والتجارة، وعن طريق الشركات التي كونوها لجباية الضرائب، كانوا قد اعتصروا الضرائب من الولايات من غير رحمة أو شفقة.

والآن بعد أن قيّدت نشاطهم إصلاحات يوليوس قيصر وأغسطس، كانوا سعداء بالفرصة التي أتيحت لهم لأداء عمل اكثر نفعاً واكثر شرفاً ومن جانب أغسطس، رحب بخدماتهم لأنه اعتقد أنّه كان يستطيع أن يعتمد عليهم، دون أن يخشى خطرهم السياسي، كما كان الحال بالنسبة لأعضاء السناتوس، وأنهم كانوا اكثر إعتماداً عليه ليفوزوا بالحماية والمناصب ومجالات العمل المتاحة أمام طبقة الفرسان، كانت في الجيش والقضاء والمالية والإدارة.

في مجال الخدمة العسكرية، كثيرا ما تفاوتت واختلفت مدتها طولاً وقِصراً. ففارس مثل المؤرخ ڤيليوس پاتركولوس (Velleius Paterculus) كان يمضي عادة ثماني سنوات في الجيش، في حين أمضى غيره مددا أطول. وبعض الفرسان إختار الجندية عملاً مدى الحياة. كثيراً ما تولى أفراد من طبقة الفرسان قيادة فرق رومانية، (Legiones Romanae) التي كانت تتكون منها الحامية العسكرية في ولايات الحدود وخاصة في مصر، التي كان محرما على أعضاء السناتوس دخولها بغير إذن الإمبراطور شخصيا. بعد عام أو عامين من الخدمة في الجيش النظامي، بعض الأعضاء الفرسان عملوا في سلك النيابة القضائية التي كانت جزءا من الإدارة المدنية، وبعض آخر عملوا ضباطا في «الحرس البريتوري» (وهو الحرس الإمبراطوري، المسؤول عن حفظ الأمن والنظام في روما

وإيطاليا) ، أو في شرطة المدينة أو فرق الإطفاء، بنسبة أكثر مشرفين ماليين (Procuratores) أو مندوبي الامبراطور في الولايات .

في الولايات الامبراطورية، كان المشرف المالي (أو البروكوراتور: Procurator) هو المندوب المالي للامبراطور، فهو المسؤول عن جباية الضرائب ودفع الأجور، أما في ولايات السناتوس، فهو القائم بأعمال المندوب المالي، ومدير أملاك الامبراطور، ويقوم بجمع الإيرادات منها. وهو فوق ذلك يقوم بمهمة المراقب الخاص. فكان على الوالي الفاسد أن يكون في غاية الحذر، خشية ان يتعرض للجزاء الصارم عند انتهاء فترة ولايته. فأحيانا كثيرة كان المشرف المالي (Procurator) اكثر قوة ونفوذا من والٍ حتى إذا كان قنصلا من قبل ومن طبقة السناتوس. وكان يحق للمشرف المالي Procurator أن يحكم ولاية، وخاصة إذا كانت في المناطق المتخلفة المضطربة على الحدود مع المتبربرين، أو إذا كانت ذات ظروف خاصة مثل مصر أغنى الولايات وأكثرها أهمية فكان والي مصر يتمتع بمكانة وسلطان يجعله موضع حسد من أكثر ولاة طبقة السناتوس شرفا وكبرياء.

ويلي منصب والي مصر (بريفكتوس Praefectus) ، منصب رئيس قوة الحرس البريتوري (أو الامبراطوري) (Praefectus Praetorius) الذي اصبح فيما بعد رئيس اركان جميع الجيوش، ورئيس الإدارة المدنية، وأعلى محكمة للاستئناف في الامبراطورية، وأخيرا كان المتحكم في عملية تعيين وعزل الأباطرة، وأحيانا إعتلى العرش بنفسه.

ووجد كذلك منصبان بدرجة بريفكتوس لطبقة الفرسان، ابتداء من عام ٦ ميلادية، ورغم انهما كانا أقل أهمية، إلا أنهما كانا يمكنان الشاب الطموح للقفز إلى المناصب الأعلى . احدهما المشرف على تموين الغلال والآخر المشرف على قوة الحراسة الليلية Vigiles ، الذين كانوا يحرسون شوارع المدينة ليلا، ويحمونها ضد اعمال الشغب والحريق.

تعيين المحررين من العبيد في الإدارة المدنية:

لم يكن صعود أعضاء طبقة الفرسان في مناصب الادارة المدنية سريعا ولا مثيرا كما حدث بالنسبة للمحررين من العبيد، الذين استطاع بعضهم أن يصل إلى مناصب أكثر قوة من تلك التي تولاها فرسان أو أعضاء السناتوس أو قناصل أو حكام ولايات. ولم تكن حالهم في بداية الأمر، ففي البداية تولى المحررون من العبيد الأعمال الأكثر تواضعا. ولكن استعدادهم لطاعة ما يصدر لهم من أوامر، وخضوعهم وولاؤهم، كان أهم ما تميزوا به. ويفضل ما تحلوا به من جلد على العمل الشاق وعدم التبذير والولاء والذكاء تمكن العبيد المحررون أن يشقوا طريقهم في الإدارة وتولوا مناصب ذات ثراء وسلطان.

فمثلا كانت الأعمال الكتابية للمراسلات الامبراطورية احتكارا لهم ونتيجة لازدياد احتياجات وتعقد امبراطورية عظمى، ثبت نهائيا أن الخدمات التي قام بها المحررون أكثر لزوما للإدارة الإمبراطورية من القيادات العسكرية وحكم الولايات. فقد كان العمل الروتيني للمصالح أو المكاتب المختلفة التي أوجدها أغسطس، في حاجة الى أعداد كبيرة من المحاسبين والمراقبين والسكرتيريين، والكتبة. وتولى المحررون في هذا التنظيم الضخم الأعمال الأكثر أهمية والأكثر أجراً، في حين تولى العبيد الأعمال الأكثر تواضعا والأقل أهمية. فمكاتب أو أقلام السكرتارية المختلفة، التي كانت أهميتها بالنسبة للامبراطورية الرومانية كأهمية وزارة الخارجية او المالية او الحرب أو التجارة في الدول الحديثة، ظلت دائماً إحتكاراً لطبقة المحررين ومصدر قوة كبرى لهم. وسرعان ما أصبح المحررون هم المسؤولون عن إدارة الايرادات والمصروفات في الامبراطورية: الذهب من إسبانيا ودلماتيا، القمح من افريقيا ومصر، والضرائب والجزية من الولايات والملوك التابعون لروما، اللؤلؤ من المحيط الهندي، وكل ما تحمله السفن من ثروة عبر البحار السبع.

وبسبب مهارتهم وكفاءتهم وخبرتهم في الأعمال الحسابية وتمرسهم في فن الملق أيضا، سرعان ما أصبحوا هم الذين يقررون ما تنفقه الدولة في المجالات المختلفة: السلاح وقناطر الماء والمعابد والقصور والمباريات والاحتفالات ، او الطرق والكباري والموانىء، أو يقررون أيضاً درجة نقاء ووزن العملات الذهبية والفضية، أو مقدار ما يجب أن تدفعه الولايات من الضرائب والجزية، حتى الرواتب التي يجب دفعها للولاة ورؤساء الإدارات العسكرية (Praefectus) والمشرفين الماليين (Procurator) وغيرهم من أعضاء الإدارة المدنية.

وأخيراً شرع محررون معينون في مناصب عليا في تلقي الإلتماسات والرجوات من جميع أرجاء الامبراطورية: شكاوي ضد الإبتزاز من مجالس الولايات، طلبات لتولي مناصب مدنية أو كهنوتية، ورجوات لعتق العبيد، إلتماسات لأوسمة من الامبراطور. ونظرا لتحكم هؤلاء المحررين في تقديم أو عدم تقديم مثل هذه الالتماسات للامبراطور، اصبح هؤلاء الموظفين من المحررين يشعرون انهم في مركز الحماة وأصحاب السلطة.

تسوية عام ٢٣ ق.م.

أغسطس في الغالة وإسبانيا:

بمجرد ما ان انتهى اغسطس من اقرار تسوية ٢٧ ق.م. حتى خرج قاصدا الغالة واسبانيا ذلك ان اسبانيا لم يكن قد تم إخضاعها تماما وكانت بعض القبائل المتبربرة تقاوم الحكم الروماني وتهاجم الأقاليم الآمنة المستقرة في الشرق والجنوب وفي عام ٢٦ ق.م. تمكنت ثلاث جيوش رومانية من محاصرة القبائل المتمردة في إسبانيا وإلزامها بموقف الدفاع مما جعل هذه القبائل تمارس نوعا من حرب العصابات ضد اغسطس الذي تحمل كثيرا جدا من العناء وشعر انه غير قادر على الاستمرار في تحمل مسؤولية القيادة بنفسه بسبب ضعف صحته واضطر على ان يعهد بالقيادة الى وكلائه ،

وعندما فشلوا استدعى قائده المفضل اجرّبا من الشرق ووجهه نحو اسبانيا. وبضربات متتالية نتجت عنها مجازر واسترقاق اعداد كبيرة تمكن أجرّبا من إخضاع الجبال واحلال السلام في الأراضي الإسبانية الشمالية التي دمرتها الحرب.

عاد اغسطس الى روما في عام ٢٤ ق.م. منهك القوى معتل الصحة بعد غيبة استمرت اكثر من عامين وازداد الموقف سوءا في العام التالي عندما حلّ بالأمبراطور مرض خطير وعندما اكتشفت مؤامرة ضد حياته دبرها اثنان من زعماء السناتوس مما كشف عن اوجه الضعف في النظام الجديد. ونجا اغسطس من المرض بعد ان اوشك على الهلاك، وكان لمرضه أثر كبير على توجيه تفكيره نحو إعادة النظر في بعض النظم الحكومية. وفي شهر تموز- يوليو ٢٣ ق.م. اعلن أغسطس إعتزاله للقنصلية وهو المنصب الذي تولاه بصورة متصلة منذ عام ٣١ ق.م. ، وأدرك ان استمرار توليه للقنصلية كان له تأثير سيء على صحته لكثرة ما كان يتحمل من أعباء، ومن ناحية أخرى جعله موضع كراهية بعض الشباب من النبلاء الطموحين الذين كانوا يتطلعون الى تولي هذا المنصب الذي كانوا ينظرون اليه انه حق لهم بحكم المولد وأنه قمة الحياة السياسية بالنسبة لهم وبدا لأغسطس انه ليس من الحكمة أن يكتسب باستمرار عداوة طبقة السناتوس التي كان هو في أشد الحاجة اليها لتتحمل نصيبها في الأعباء الإدارية في الأمبراطورية.

تسوية عام ٢٣ ق.م. :

إن هذه الأزمة التي حدثت خلال عام ٢٣ ق.م. وما أعقبها من تسوية ، خرج منها أغسطس بمزيد من السلطة الحقيقية بدلا من تناقصها . فرغم أنه تنازل عن منصب القنصل فقد احتفظ لنفسه بالسلطة القنصلية كما مدّ سلطانه البروقنصلي (Imperium) على روما والامبراطورية كلها .

ونقصد بسلطانه القنصليّ حق قيادة الجيوش في كل أنحاء الامبراطورية . كما استعاد الصلاحيات المخوّلة له بفضل السلطة التريبونية (Tribunicia potestas) وهي رغم غموضها فهي ذات هيبة كبرى ورغم منشئها الديموقراطي فقد غدت ممارستها إستبدادية في الواقع . فنحن نعلم أن منصب التريبون الشعبي الذي نشأ أصلا مع بداية الجمهورية في القرن الخامس قبل الميلاد من أجل حماية العامة من بطش وتعسف الحكام والسناتوس ، وتمتع هذا التريبون الشعبي الذي نطلق عليه أحيانا اسم « نقيب العامة » بصيانة مقدسة لشخصه ، ورغم أنه لم يتمتع بسلطة إدارية أو عسكرية ، ولكنه تمتع بثلاث صلاحيات هي : حماية من يلوذ به ، ووقف أي حاكم عن أي إجراء يضر بالعامة ، وأخيرا سلطة الاعتراض (Veto) ضد أي قرار يتخذه السناتو يكون ضارا بمصالح العامة . وكان من حقوقه أيضا ، دعوة الجمعية القبلية للاجتماع ، ورئاسة اجتماعاتها . وبالنسبة لأغسطس ، فرغم أنه لم يتول منصب التريبون الشعبي أو نقيب العامة ، إلا أنه نتيجة لتمتعه بالسلطة التريبونية (Tribunicia potestas) فقد كان في استطاعته ، متى شاء ، أن يتدخل في أعمال أي موظف أو حاكم مهما علت منزلته في روما ؛ كما كان باستطاعته إذا اضطر إلى ذلك أن ينقض أي قرار يتخذه السناتوس ؛ وبالاضافة إلى هذا كله ، كان حقه في دعوة الجمعية القبلية ورئاسة اجتماعاتها ، يتيح له الفرصة في الحكم فيما يعرض عليها وما يدور فيها من مناقشات أو يتخذ من قرارات. ويمكننا أن نتذكر مقدار ما تمتع به كل من تيبيريوس جراكوس وأخوه جايوس جراكوس من قوة ومن سيطرة على الدولة عن طريق توليهما نقابة العامة (أو التريبونية الشعبية) ؛ وذلك دون أن تكون لهما سلطة القيادة العسكرية التي كان يتمتع بها أغسطس بدرجة لم تتوفر لإنسان من قبل في روما .

كذلك كان الحال بالنسبة للقنصلية التي أعلن تنازله عن منصبها

سنة ٢٣ ق.م. كما ذكرنا، إلا أنه احتفظ بصلاحياتها وهي التي سميت بالسلطة القنصلية (Imperium Consulare) . فباعتزال المنصب تخفف من الالتزامات الإدارية التي يتحملها القنصل ولكن باحتفاظه بالسلطة القنصلية، أصبح يحق له دعوة مجلس السناتوس ورئاسة جلساته . وهكذا يستطيع أن يتدخل في كل أعمال السناتوس سواء بالنسبة لإعداد جداول الأمور التي تعرض عليه، ومنح حق الكلام في كل جلسة، والايحاء بما يرغب من قرارات أو تشريعات . وإذا أضفنا إلى هذا كله تمتعه بالسلطة البروقنصلية(Imperium pro-consulare) على جميع أرجاء الامبراطورية، بما فيها روما، فمعنى ذلك أنه تمتع بحق قيادة جميع الجيوش الرومانية . وبعبارة أخرى، أصبح لا يكاد يتولى شخص قيادة عسكرية في الامبراطورية، إلا بناء على تفويض شخصي منه . وعلى هذا النحو يمكننا أن نقول أن أغسطس أصبحت تتركز في يديه جميع السلطات في الدولة مباشرة أو بطريق غير مباشر فتحكم في التشريع عن طريق تحكمه في المجالس والجمعيات التشريعية وتحكم في إدارة وحكم روما عن طريق ممارسته للسلطة القنصلية، وتحكم في إدارة الولايات عن طريق تمتعه بالسلطة البروقنصلية وما تتضمنه من صفة عسكرية .

خلافة الحكم :

كان للأزمة السياسية التي واجهها أغسطس، عام ٢٣ ق.م. وكذلك ما أصابه من مرض خطير كاد يقضي عليه تأثير كبير على توجيه إهتمامه نحو مشكلة تمس صميم نظامه؛ ونقصد بها مشكلة الخلافة بالنسبة لسلطة الحكم من بعده . من الناحية القانونية والدستورية، لم يكن هذا من شأن رئيس الدولة (princeps) أي أغسطس، ولكنها مسئولية السناتوس وشعب روما الذي كان يدين له بسلطته ومع ذلك فقد خشي أنه إذا لم يتول إقرار هذا الأمر بنفسه، ربما ينشأ بسببها بعد موته حرب أهلية جديدة بين المرشحين المتنافسين على العرش، ولا ينبغي أن

ننسى أن توليه للسلطة التريبونية ، سهلت عليه مهمة تدخله ومحاولته اقتراح خليفة له . وكان أغسطس يأمل في أن يكون خليفته من أسرته ومن دمه ولكنه لم يكن له أبناء وكانت له إبنة واحدة جوليا (Julia) التي كانت قد تزوجت في عام ٢٥ ق.م. من ماركيلوس (C. Claudius Marcellus) ابن أخته أكتافيا (Octavia) وكان في الثامنة عشرة من عمره ؛ وقد عمل أغسطس كل ما في استطاعته على دفع ماركيلوس إلى مسرح الحياة السياسية . وفي سن التاسعة عشرة أصبح هذا الفتى الوسيم عضوا بمجلس السناتو وفي العام التالي عام ٢٣ق.م.،انتخب لمنصب الإيديل الشرفي كما تولى منصبا دينيا آخر ، ثم أدرج اسمه في سجل المرشحين للقنصلية رغم أنه كان عشر سنوات أقل من السن القانونية ، وكان نجاحه في الانتخابات وتوليه القنصلية ، يعتبر أمرا مؤكدا ، فلم يكن يتمتع بتأييد الامبراطور فحسب، ولكنه كان قد اكتسب لنفسه شعبية كبيرة اثناء توليه منصب الإيديل بتقديم المهرجانات واقامة الإحتفالات التي اصطبغت بالبذخ الشديد. ولكن حدث فجأة ان توفي ماركيلوس عام ٢٣ ق.م. نظراً للوباء الذي اجتاح ايطاليا.

وقد وجد أفراد آخرون يتطلعون إلى هذا المجد فهناك زوجته ليفيا (Livia) التي كانت تتمنى أن تجعل وراثة الحكم في أحد ابنيها من زواج سابق وهما تيبيريوس كلوديوس نيرون (Tiberius Claudius Neron) ونيرون كلوديوس دروسوس (Nero Claudius Drusus) كما كان هناك أجريبا (Agrippa) قائد أغسطس المفضل والذي جلب له النصر في معظم معاركه . وفي عام ٢٣ ق.م. عندما مرض أغسطس وأشرف على الموت ، سلم خاتم الدولة إلى أجريبا ، وبعد أن شفي أغسطس من مرضه استطاع أن يحصل لأجريبا على السلطة البروقنصلية على جميع ولايات الامبراطورية ، وبعث به إلى الشرق ليشرف على الأوضاع في سوريا ويقوي التخصينات الدفاعية ضد البرثيين على الحدود الشرقية .

وكان أغسطس مصرا على أن يجعل الخلافة في أسرته ، فبعد وفاة ماركيلوس ، نجد الامبراطور يستدعي في سنة ٢١ ق.م. أجريبا من الشرق ويلزمه بأن يطلق زوجته ويتزوج جوليا ، وفي عام ١٨ ق.م. ، زاد في سلطان أجريبا على ولاية السناتوس كما خلع عليه في الوقت نفسه سلطة التريبونية لمدة خمس سنوات . وفي سنة ١٧ ق.م. أعلن أغسطس تبنيه لابني جوليا وأجريبا وبذلك يكون قد حل مسألة الخلافة ليس لجيل واحد فقط ولكن لجيلين من بعده .

الامبراطورية في عصر أغسطس :

بعد أن فرغ أغسطس من وضع هذه الأسس التي عرضنا لها في مجال السياسة والحكم ، واطمأن إلى أن مقاليد الأمور أصبحت في يديه وحده ، واطمأن إلى استتباب الأمن ، والقضاء على عناصر الفتن والانقسامات الحزبية شرع بعد ذلك في بناء النظام الاداري وإصلاح المرافق العامة في روما وإيطاليا وإقرار الأوضاع في الامبراطورية وتنظيم المالية العامة . كما حاول أن يحل مشكلة الجنود الذين كانت قد تكاثرت أعدادهم في ظروف الحرب الأهلية فسرح كثيرا منهم ومنحهم أموالا وأراضي مكافآت لهم حصل عليها من الولايات المختلفة وخاصة من بعض الولايات الغنية الجديدة التي تمكن هو من إضافتها إلى الامبراطورية . ويأتي على قمة هذه الولايات الجديدة ، مصر التي ألحقت بالامبراطورية الرومانية سنة ٣٠ ق.م. بعد انتصاره على كليوباترا وأنطونيو ، كما أنه شغل ما تبقى من جنود في الجيوش المختلفة ، بتوجيههم إلى الحدود كما حدث في سوريا التي كانت تمثل الحدود الشرقية للإمبراطورية وذلك لمواجهة البارثيين الذين كانوا يكونون دولة في أرض الرافدين بالعراق ، كما حاول أن يوسع من حدود الامبراطورية وكان هذا واضحاً في اتجاهين أساسيين ، الاتجاه الأول نحو الجنوب فنجده يأمر واليه على مصر سنة ٢٩ ق.م. أن يهاجم القبائل الإثيوبية في الجنوب وهي التي

يطلق عليها الآن بلاد النوبة . وفي سنة ٢٤ ق.م. يكلف واليا آخر على مصر بأن يقود حملة إلى جنوب الجزيرة العربية فيما يعرف باليمن . وكان الهدف من هذه الحملة الأخيرة هو إخضاع القبائل العربية في الجنوب التي كانت تتحكم في التجارة الشرقية مع شرق أفريقيا والهند . ونجد نشاطه يمتد إلى حدود أوروبا الشرقية حيث تمكن من أن يلحق ولايات جديدة بالامبراطورية في تلك الأقاليم مثل ولايتي بانونيا وداكيا (المجر ورومانيا حاليا) . كما وجه ضربات قوية في شمال أوربا في الغالة وألمانيا وراء الدانوب مما ألزم القبائل الجرمانية المتبربرة بأن تلتزم حدودها وألا تتعرض للممتلكات الرومانية . وهكذا نجد أن أغسطس لم يترك إقليما من أقاليم الامبراطورية دون أن يوليه عنايته واهتمامه سواء بالنشاط العسكري أو بالاصلاحات الإدارية والمالية أو بإقامة المنشآت والمباني العامة مثل الطرق والحصون وقناطر المياه وأعمال الري وغيرها من الأعمال التي لا زالت آثارها باقية إلى اليوم في كل من أفريقيا وآسيا وأوربا .

الاصلاحات الاجتماعية :

على أن اهتمام أغسطس لم يقتصر على الحرب والسياسة والمال والإدارة ولكنه اهتم اهتماما خاصا بإصلاحات اجتماعية اقترنت باسمه . ونحن نهتم بالتعرف على إصلاحاته الاجتماعية والدينية لأنها بجانب أعماله السياسية تمثل طريقة تفكيره ومنهاج أيديولوجيته ، فقد كان أغسطس شخصية محافظة في فهمه للأخلاق والمجتمع وكان مثله الأعلى أن يعالج المجتمع الروماني من مظاهر الانحلال والتفكك التي أصابته نتيجة للحروب الأهلية المتصلة ، وذلك بأن يعيد له أخلاق البساطة الرومانية الأولى ولكن كما نعرف أن لكل عصر ظروفه وأسلوبه الخاص به في التفكير والسلوك فمجتمع عصر أغسطس كان مجتمعا يختلف كل الإختلاف عن المجتمع الروماني قبل أن تنشأ الامبراطورية وتتدفق الأموال على الرومان وقبل أن يحتد الانقسام الطبقي والصراع الحزبي وقبل أن تزدحم روما بالعناصر الأجنبية التي حضرت إليها من جميع أقطار الأرض والذين أتوا

بعقائد وتقاليد وأخلاق تختلف عن الأخلاق الرومانية القديمة ، ولا ينبغي أن ننسى اعتماد الحياة الاقتصادية والاجتماعية على العبيد الذين جلبتهم الانتصارات العسكرية المتلاحقة . لذلك كانت محاولة أغسطس في إعادة عقارب الساعة إلى الوراء محاولة من نوع مثالي لا يتفق مع الواقع ولا يناسبه وكثير منها لم يكتب له النجاح ولا الاستمرار . ومع ذلك فهي تفيدنا في التعرف على واقع المجتمع وعلى عقلية الطبقة الحاكمة في عصر أغسطس . وحتى مع افتراض حسن النية وراء محاولة إصلاح الأخلاق العامة فإن كثيرا مما قام به أغسطس في هذا المجال قد يمتدح الهدف منها ولكنها لا تتحقق عن طريق التشريع والقانون .

ولعل من أكثر أعمال أغسطس نبلا في هذا المجال هو محاولته تحسين معاملة العبيد . ولكن من ناحية أخرى نجده لا يحترم الحرية الفردية وذلك بإعادته القانون الخاص بالخيانة ضد شخصه (Maiestas) وهو قانون غامض غير محدد ويشمل كثيرا من المخالفات ابتداء من التآمر ضد الدولة إلى السب والقذف في حق الامبراطور سواء بالقول أو بالكتابة أو بالفعل وأحرقت الكتب التي تهاجمه أو تنتقده في الميادين العامة . ويكافأ الوشاة بمنحهم ربع ممتلكات ضحاياهم . وهكذا أصبح القانون أداة للقهر والطغيان في يد الأباطرة من بعد أغسطس . على أنه قد صدرت قوانين أخرى تهدف إلى وضع حد للإباحية الجنسية وتنظيم الزواج وحياة الأسرة . ومن أشهر هذه القوانين ، قانونا يوليوس (Leges Juliae) ١٩ - ١٨ ق.م. وقانون القنصلين پاپيوس وپوپايوس (Lex Papia Poppaea) سنة ٩ ق.م. . وكان الهدف منها هو مقاومة الإنحرافات الأخلاقية وزيادة النسل وإحياء الفضائل الرومانية القديمة .

وقد تضمنت هذه القوانين الجديدة مواد تمنع طول مدة الخطوبة والطلاق ؛ وفرضت على جميع غير المتزوجين من الرجال والنساء الزواج في أقرب وقت ممكن ، وجميع المطلقات تحت سن الخمسين والمطلقين تحت

سن الستين أن يتزوجوا خلال ثلاث سنوات . وفرضت على المخالفين عقوبات وجزاءات كثيرة ، منها : الحرمان الكلي أو الجزئي من الميراث ، أو من تولي المناصب العامة ، والمنع من حضور الألعاب والمهرجانات العامة . وفرض مثل هذه الجزاءات على المتزوجين الذين لم ينجبوا ، حتى في حالة العقم ! في حين كوفىء من لهم ثلاثة أولاد أو أكثر ، بتفضيلهم في تولي المناصب العامة (وسمي هذا الحق ius trium liberorum) . ومما أضعف تأثير هذه التشريعات ، هو منح هذا الحق لأصحاب النفوذ دون أن يستوفوا شروطه ! ومما يدعو للسخرية أن نجد بعضا من أهم رجال الدولة يتمتعون بالاستثناء من هذه القوانين وذلك مثل أغسطس نفسه الذي كانت له ابنة واحدة والامبراطورة ليفيا ذات الولدين والوزير مايكيناس (Maecenas) المتزوج ولم ينجب والقنصلان اللذان سميت القوانين باسميهما وهما پاپيوس وپوپايوس كانا أعزبين وكذلك الشاعران فرجيليوس (Vergilius) ـ وهوراس (Horatius) ! .

ومن أجل مقاومة الانحلال الأخلاقي الذي كان منتشرا في ذلك الوقت تضمنت الشريعات الجديدة قوانين قاسية ضد الزنا ، فسمح لرب الأسرة أن يقتل الطرفين الزانيين في أسرته كما سمح للزوج بممارسة هذا الحق ، كما يعاقب الزوج الذي يتستر على انحراف زوجته . وبقدر ما اعتنى أغسطس بالأخلاق العامة وبزيادة أعداد السكان من المواطنين الرومان ، فقد قاوم بشدة أن تختلط بالدماء الرومانية ، الدماء الأجنبية وخاصة عن طريق ظاهرة تحرير العبيد التي بدأت تعم بين بعض الأسر الثرية . فمعظم هؤلاء العبيد كانوا من أسرى الحروب وكثير منهم من مجتمعات راقية ومتحضرة مثل المجتمعات الهيلينية في الشرق وآخرون منهم كانوا يتميزون بالذكاء والمهارة أو بالجمال ، فكان أرباب بعض الأسر الثرية لكثرة ما عندهم من العبيد ، يؤثرون بعضهم فيحررونهم ويصبحون مواطنين رومانيين ويحق الزواج منهم بعد ذلك ، نساء كانوا أو

رجالا . وقد خشي أغسطس أن تختلط الأنساب الرومانية وأن يضعف الولاء بين هذه العناصر نحو روما ولذلك أصدر عددا من التشريعات تمنع تحرير العبيد بأعداد كبيرة حتى لا تتضخم أعداد المواطنين الرومان وعن طريق الزواج لا يدنس نقاء دم الجنس الإيطالي . أما العبيد الذين يتم تحريرهم دون استيفاء جميع الشروط القانونية فقد حرمهم القانون من التمتع بالمواطنة الرومانية ومنحوا المنزلة الأدنى وأصبحوا مواطنين من الدرجة الثانية باعتبارهم إيطاليين وليسوا رومانا . ويمكن لهؤلاء أن يحوزوا على المواطنة الرومانية إذا ما تزوجوا زواجا شرعيا وأنجبوا أطفال .

الإصلاحات الدينية :

انتهج أغسطس حيال الدين سياسة شبيهة بسياسته الأخلاقية ، وهي الرجوع إلى الأصول والتقاليد الرومانية القديمة ، أي غلبت عليه النظرة الرجعية أيضا ؛ وذلك في عصر قد بعد العهد بينه وبين العقائد القديمة التي كانت تتمثل في عبادة الأرواح الكامنة في مظاهر الطبيعة ، مثل أرواح النهر والحقل والبيت ، والغابة ومفترق الطرق ، والتي كانت قد اختلطت بالعقائد الإغريقية المتمثلة في التجسيد البشري لبعض قوى الطبيعة مثل أبولو إله الشمس . هذه العقائد كانت قد تقادم بها العهد وفقدت تأثيرها في المجتمع الروماني ؛ وكانت محاولة إحيائها محاولة مصطنعة ومفتعلة . لأنه قد ظهرت في المجتمع الروماني عقائد دينية جديدة آتية من الشرق أكثر تأثيرا وأكثر جاذبية . وذلك مثل عبادة الآلهة إيزيس المصرية والإله مثرا من آسيا الصغرى وأدونيس من الكنعانيين والفينيقيين . وسرعان ما شاعت هذه العبادات الجديدة بين عامة المجتمعات الإيطالية ؛ أما الأوساط المثقفة فنجدها قد اتجهت إلى الفلسفة ، وشاعت بينهم مذاهب الرواقية والأبيقورية ؛ وهناك من مزج بين الفلسفة والعبادات الشرقية .

في حين أن أغسطس أغفل كل ما كان حادثا من تطور ديني أو

فلسفي ، واتجه إلى إحياء التقاليد الرومانية القديمة . وبدأ ذلك منذ عام ٤٢ ق.م. تم في عام ٢٨ ق.م. ، وذلك ببرنامج ضخم لإعادة بناء المعابد القديمة . فأصلح منها إثنين وثمانين معبدا حسب قوله في سجل أعماله . كما أنشأ سنة ٢٩ ق.م. معبدين جديدين ، أحدهما ليوليوس (قيصر) المقدس والآخر للإله أبولو ، وذلك باعتبارهما إلهين حاميين لأسرة الامبراطور المعروفة بالأسرة اليولية . ثم أنشأ معبدا للإله مارس المنتقم سنة ٢ ق.م. . وكان إعادة بناء أو ترميم المعابد القديمة ، مناسبة استدعت ممارسة بعض الشعائر القديمة ، مثل عيد الحصاد أو الخصب في شهر أيار (مايو) . أو مثل إحياء الاحتفال بما يسمى المباريات العلمانية (ludi saeculare) سنة ١٧ ق.م. وهو احتفال للتكفير والتوبة وحمد الآلهة ، وكان يحتفل بها حسب النظام الافرودي القديم كل ١١٠ سنوات وقد وضع الشاعر هوراتيوس لهذه المناسبة قصيدته (carmen saeculare) التي تم إنشادها في معبد أبولو المقام على تل البلاتين .

وربما ساعد إحياء الطقوس العتيقة على إذكاء روح الورع والبسالة ، ولكنها لم تقترن بالشعور بالولاء أو الإخلاص للحكومة الجديدة ، ولا خدمت أغراض الدعاية للنظام الذي أقامه أغسطس ذي الطابع الملكي لا الجمهوري في واقعه .

ولكن لعل مما يظهر محاولة استغلال الدين في أسباب الدعاية السياسية هو ما يتمثل على ما يسمى بمذبح السلام الأغسطسي (ara pacis augustae) الذي صور في بعض لوحاته « الأرض الأم » (terra mater) جالسة على صخرة ، ممسكة على حجرها طفلين مع ثمار الأرض . والمذبح يصور هنا السلام والرخاء يسودان على الأرض . وفي لوحة أخرى نرى أغسطس ، فالأرض هي العالم الروماني ، وأغسطس هو الذي حقق السلام والرخاء على الأرض ، وأن ذلك كله لورعه ورضاء الآلهة عنه ، وهو الصلة بين الأرض والآلهة . ومن المعاني الأخرى التي

روّج لها ، عبادة الربة « روما » . وقد وجدناها مصورة على « مذبح السلام الأغسطسي » الذي أقيم في مدينة قرطاجة ، وعليه صُوّرت الربة روما جالسة على كومة من الأسلحـة . وهذه دلالة على دور أغسطس في خدمة روما . فهي الآن ترتكز آمنة على قوة السلاح . وهكذا اقترن شخص أغسطس بالآلهة وبالربة روما ، واقترب كثيرا من الآلهة ، وأصبح هناك مراسم في الأقاليم والولايات لعبادة الامبراطور .

موت أغسطس :

هذه الشخصية الفذة التي دخلت معترك السياسة في معترك محنة من أقسى المحن في تاريخ البشرية ، وهي الحروب الأهلية الرومانية ، وكان لم يتجاوز الثامنة عشرة من عمره ، كان بمثابة الترياق لسموم الدولة الرومانية . ولقد تميز بالصرامة والقدرة الفذة على العمل المتواصل . ولقد أخذ نفسه بالجد قبل أن يأخذ به الامبراطورية ، ولذلك استطاع أن يفرض نفسه على الدولة كلها . وما من شك أنه استطاع أن ينتشل العالم الروماني بعد أن أوشك على الانقسام والتوزع ، ورغم تعقيداته التي لا تكاد تحصى فقد رد له وحدته عسكريا وسياسيا واجتماعيا ، كما على لسان أمهر مؤرخي الامبراطورية الرومانية تاكيتيوس ، فلخص دور أغسطس في هذه العبارة .

Legiones, classes, provincias, cuncta inter se conexa.» (إن الجيوش والطبقات والولايات ، التحمت جميعها بعضها في بعض) .

الباب الثاني

مصر الرومانية

الفصل السادس

التاريخ السياسي لمصر في العصر الروماني

أ - القرنان الأول والثاني من الإمبراطورية الرومانية

أغسطس يفتح مصر :

من العبارات الجغرافية المشهورة أن البحر الأبيض المتوسط وسيلة وصل لا فصل . ورغم أن هذا القول صحيح فى جميع عصور التاريخ ، إلا أنه يمكن أن يقال أن الإمبراطورية الرومانية هى التى جعلت هذه العبارة الجغرافية حقيقة تاريخية بكل معانى الكلمة . لأن الحضارات السابقة المصرية والأشورية والفارسية والإغريقية كانت تشمل عادة منطقة شرق البحر الأبيض المتوسط ، أما روما فقد نجحت فى أن تضم جميع أقطار هذا البحر فى بناء سياسى وحضارى واحد استمر فترة من الزمن تربو على السبعمائة سنة فيما يعرف بالإمبراطورية الرومانية . ورغم أن تحويل حوض البحر الأبيض المتوسط إلى إمبراطورية رومانية استغرق مايزيد على القرنين ونصف ، كانت مصر آخر قطر سقط فى أيدى الرومان من أقطار هذا البحر ، عقب موقعة أكتيوم ودخول أوكتافيان (أغسطس) مصر فى أول أغسطس سنة ٣٠ ق . م . ومن الغريب أن هذا العام يؤرخ فى التاريخ الرومانى نهاية العصر الجمهورى وبداية العصر الإمبراطورى الذى يرأس فيه الدولة « رئيس princeps » وليس قنصلا

(Consul وتعنى زميل) كما كان الأمر من قبل . ولكن هذا التوافق التاريخى بين فتح مصر وبداية الإمبراطورية لايتعدى كونه مصادفة تاريخية، فقد كان من الممكن أن تسقط مصر فى أيدى الرومان من قبل ولا تقوم الإمبراطورية فقد كانت بداية النظام الإمبراطورى فى روما مرهونة بتفرد أوكتافيان بالسلطان بعد القضاء على ماركوس أنطونيوس . وقد حدث أن اقترن مصير مصر البطلمية بمصير ماركوس أنطونيوس وكليوباترا، كما سبق أن بينا، لأن تأخر سقوط مصر البطلمية فى أيدى الرومان لم يكن راجعاً لقوتها ومنعتها بقدر ما كان راجعاً لظروف روما الداخلية وظروف النزاع الحزبى بين السناتو والشعبيين . ويتضح مما ذكرناه فى تاريخ الأسرة البطلمية مقدار الضعف الذى وصل إليه ملوكها المتأخرون، وأنهم منذ منتصف القرن الثانى ق. م. وهم يتقربون ويتزلفون إلى روما بشكل متزايد حتى أصبح الملك البطلمى لايكاد يستقر على عرشه دون رضاء روما ودون أن تسنده قوة رومانية تقيم فى الأسكندرية .

ومع ذلك فلم يكن فتح مصر بالأمر الهين، لأن مصر مهمة دائما دون نظر إلى قوتها أو ضعفها . ولعل السبب فى ذلك هو أن اسمها وتراثها القديم من ناحية وثروتها الزراعية الكبيرة من ناحية أخرى تضفى عليها مجداً وأهمية خاصة . ولم يفت الفاتح الرومانى أن يستغل هذه الفرصة فى أسباب الدعاية السياسية، فأصدر عملة تذكارية خاصة بمناسبة ضمه مصر لسلطان روما . وقد خرجت هذه العملة تحمل صورة التمساح — أشهر الحيوانات النيلية وأحد المعبودات المصرية — وقد كتب تحته عبارة « Aegypto capta »(1) ومعناها « فتح مصر » .

ولكن ماذا كان يعنى فتح مصر معناه بالنسبة لمصر ذاتها أنها لم تعد دولة

---

(1) H. Mattingly. British Museum Catalogue of Coins of the Roman Empire. Vol. I. No 650.

مستقلة تحت حكم الأسرة البطلمية فى الأسكندرية ، وأصبحت ولاية تتبع سلطان روما. هذا من الناحية السياسية ، أما من الناحية الاقتصادية فقد كان الأمر أكثر خطورة ، لأن روما فرضت على مصر جزية مالية وضريبة نوعية من القمح والغلة يجب أن تشحن إلى روما فى كل عام . أى أن جزءاً كبيراً من دخل المصريين وإنتاجهم الزراعى كان يذهب إلى روما دون مقابل . ومن أجل هذا المعنى الاقتصادى احتفل أغسطس بفتح مصر وأصدر تلك العملة التذكارية ليزف النبأ للرومان ويبشرهم أنه قد سخر لبطونهم قمح مصر .

وما كان هذا بالأمر اليسير لأننا نعرف من تاريخ روما أن من يستطيع إطعام الرومان يحكمهم ومن يفشل فى ذلك لا يبقى فى الحكم يوماً واحدا. (١) ولما كانت روما قد أهملت زراعة القمح فى إيطاليا واعتمدت اعتمادا تاما على استيراده من الولايات ، تعتبر السيطرة على مصر — أكبر بلد منتج للقمح فى الإمبراطورية — أمراً بالغ الأهمية من الناحية السياسية . ويوضح هذه الحالة قول المؤرخ الرومانى تاكيتوس « على أن (إيطاليا) لم تصب الآن بالجدب ، ولكننا نفضل استغلال (شمال) إفريقيا ومصر ، وأصبحت حياة الشعب الرومانى رهناً بالسفن وأحداثها » (٢) .

ونظراً لأهمية مصر على هذا النحو ، واشتهارها بجنوح أهلها إلى الثورة — سواء من شعب الأسكندرية أو من أهالى مقاطعة طيبة فى الصعيد — كما حدث مراراً فى النصف الأخير من حكم البطالمة ، فقد اهتم الإمبراطور أغسطس بوضع نظام دقيق لها يكفل استمرار خضوعها للسلطة المركزية فى روما . ويهمنا أن نحدد هنا ثلاث نقاط وهى وضع مصر فى الإمبراطورية الرومانية ، ثم السلطة

(١) حول أهمية تموين روما بالغلال . أنظر : D.Van Berchem, les distributions de blé et d'argent à la plebe romaine sous L'empire, Lenene, 1939.

(٢) Tacitus Annales, XII. 43

العليا فى مصر الرومانية ، وأخيراً الحامية العسكرية (سنتحدث عن سائر النظم الإدارية فى فصل مستقل) . ولإيضاح هذه النقاط الثلاث نورد بعض النصوص القديمة التى تصف وضع مصر الجديد كما عينه الإمبراطور أغسطس :

أولا : استرابون : وقد زار مصر عقب الفتح الرومانى مباشرة وكتب فى عهد الإمبراطور أغسطس نفسه يقول :

« لقد أصبحت مصر الآن « ولاية » ، (Eparchia) تدفع جزية ضخمة ، ويقوم على حكمها رجال حكماء ، وهم الولاة الذين يرسلون إليها تباعاً . ويحتل (الوالى) الذى يرسل إليها مكان الملك .. وهناك ثلاث فرق من الجنود . واحدة منها تقيم فى المدينة (الأسكندرية) ، والأخريان فى سائر القطر ، وإلى جانب هؤلاء توجد تسع سرايا رومانية ، ثلاث منها فى المدينة (الأسكندرية) ، وثلاث على الحدود الإثيوبية فى أسوان ــ كحامية لتلك البقاع ــ ، وثلاث فى سائر القطر . وهناك كذلك ثلاث وحدات من الفرسان معينة فى مناطق الخطر أيضا »(١) .

ثانياً : تاكيتوس : أعظم مؤرخ رومانى . امتدت حياته بين عام ٥٥ وعام ١١٥ ميلادية أو بعدها بقليل ، وتدرج فى سلك الإدارة الرومانية حتى تولى منصب بروقنصل والياً على آسيا الصغرى . وبفضل حياته الإدارية كان مطلعاً على الوثائق الرسمية ، ومن ثم أهمية كتاباته ، كما امتاز بدقة التعبير والإيجاز إلى درجة ملغزة فى بعض الأحيان . وقد وصف وضع مصر فى الإمبراطورية الرومانية بهذه العبارة :

« حكم مصر وقوات الاحتلال بها ، منذ زمن أغسطس المؤله ، أفراد من طبقة الفرسان الرومان ، شغلوا مكان الملوك . فقد رؤى أن من الأصلح أن يبقى للإمبراطور أمر ولاية (Provincia) يصعب الوصول إليها ، وغنية فى القمح »(٢) .

---

(١) Strabo. 17. 1. 12.

(٢) Tacitus, Ann. I. 11

ثالثاً : ديون كاسيوس : عاش فى النصف الثانى من القرن الثانى وبداية القرن الثالث ؛ وتدرج فى سلك الوظائف الرومانية حتى تولى منصب القنصلية للمرة الثانية سنة ٢٢٩ : وكتب تاريخاً لروما استمده من المصـــادر المعاصرة القديمة . وقد وصف النظام الذى فرضه أغسطس على مصر فى هذه الفقرة المشهورة :

« ومنذ ذلك الوقت جعل (أغسطس) مصر تدفع الجزية ، وعين عليها جاللوس كورنيليوس . ونظراً لـكثرة عدد السكان سواء فى المـدن أو فى الريف ، ولسرعة وحدة طباعهم ، وكذلك لوفرة غلاتها وثرائها ، منع أعضاء مجلس السناتو أن يدخلوا مصر لأى سبب كان أو الإقامة بها ، إلا بعد الحصول على إذن خاص منه . ورفض السماح لأفراد هذا الشعب (أى المصريين) أن يصبحوا أعضاء فى مجلس السناتو فى روما . وبعد ذلك تناول أموراً أخرى كلا على حدة ، فأمر الأسكندريين أن يدبروا شئون مدينتهم دون مجلس تشريعى (boulé) ؛ فقد كان يعرف مدى جنوحهم إلى الثورة .

هكذا كانت النظم التى وضعت لهم ، وقد بقى محافظاً عليها إلى الآن ، إلا أنه قد أصبح لهم مجلس تشريعى boulé فى الأسكندرية منذ عهد الامبراطور سيفيروس ؛ وبدأوا يسجلون للعضوية فى مجلس السناتو فى روما ، لأول مرة فى عصر ابنه أنطونيوس [1] » .

هذه هى أهم المصادر التى تصف مصر ووضعها الجديد عند الفتح الرومانى ولنبدأ الآن فى تحديد النقطة الأولى وهى وضع مصر فى الإمبراطورية الرومانية ، ولقد أثار المؤرخون المحدثون حول هذا الموضوع جدلا كثيراً ، محوره هل أصبحت مصر ولاية رومانية ، أو أن أغسطس جعل لها وضعاً خاصاً أشبه ما يكون

---

(١) Dio Cassuis, 51,17

بالملكية الشخصية للإمبراطور [1]. وقد حاول أصحاب الرأى الأخير أن يجدوا مبرراً لوجهة نظرهم فى أن أغسطس نفسه حين كتب فى سجل أعماله المعروف باسم أثر أنقره عن فتح مصر قال « لقد أضفت مصر لسلطان الشعب الرومانى » (Aegyptum imperio papuli Romani adieci) [2] وأنه لم يستخدم فى وصفها لفظ ولاية (provincia) . ونحن لانريد أن نخوض فى غمار هذه المشكلة الجدلية ، لاعتقادنا أن الاختلاف مبالغ فيه وأن وضع مصر فى الإمبراطورية الرومانية لم يكن من الغرابة بالقدر الذى يذهب إليه بعض الباحثين وأن مصر من وجهة نظر القانون الرومانى كانت ولاية رومانية .

ولتبيان ذلك نقول إنه بعد أن استتب الأمر لأغسطس تمت فى عام ٢٧ ق . م . تسوية لتنظيم الإشراف على الإمبراطورية بينه وبين مجلس السناتو . بناء على هذه التسوية قسمت ولايات الإمبراطورية بين أغسطس والسناتو . ونلحظ أن الإمبراطور قد وضع تحت سلطانه الشخصى الولايات التى تمثل جبهات الحرب الرئيسية للامبراطورية والتى بها جيوش محاربة وهى الغالة (وبها قيادة الجبهة الشمالية) وإسبانيا (وبها قيادة الجبهة الغربية) وسوريا (وبها قيادة الجبهة الشرقية) ومصر وهى ولاية جديدة ضمها أغسطس للامبراطورية وأقام بها حامية عسكرية (وبذلك تعتبرمقراً لقيادة الجبهة الجنوبية) . وبهذه الطريقة ركز فى يديه السلطة العسكرية العليا لكل الجيوش الرومانية تقريبا . وهذا هو جوهر الموقف كله ؛ فقد حرص أغسطس على أن يسلب مجلس السناتو سلطة القيادة العسكرية . والسبب فى ذلك واضح ، وهو أن أعضاء هذا المجلس

---

(١) أ كتفى هنا بأن أحيل القارىء إلى العرض الوافى لجميع وجهات النظر الخاصة بهذه المشكلة فى كتاب الدكتور عبد اللطيف أحمد على : مصر والإمبراطورية الرومانية ، ص ٤١ — ٥٧ ، ويوجد بالهوامش بيان بجميع المراجع والمصادر .

(٢) Res Gestae Divi Augusti, 27,1.

هم الذين استغلوا سلطانهم العسكرى وهددوا سلامة الدولة وكيانها بالحروب الأهلية من أمثال ماريوس وسلا وپومپى وقيصر وماركوس أنطونيوس، وخاصة الأخير الذى شن على أغسطس حرباً من مصر ذاتها قبل أن تصبح ولاية رومانية .

فمصر على هذا الأساس قد اعتبرت فى نظر المشرع الرومانى ولاية رومانية عوملت فى تسوية عام ٢٧ ق . م . معاملة الولايات الكبرى الأخرى . وما ينبغى استغلال عدم استخدام لفظ Provincia فى أثر أنقرة على أن مصر لم تكن ولاية . فكل من يقرأ نص أثر أنقره ويدرس أساليب تعبيره يدرك أن هذا الاستنتاج غير صحيح ، لأن أغسطس يستخدم فى وصفه لضم پانونيا وإلليريا للامبراطورية تعبيراً شبيها بعبارته عن ضم مصر ، ولم يشك أحد أن پانونيا وإلليريا كانتا ولايتين رومانيتين . .

ولم يشك أحد من المعاصرين أيضا أن مصر كانت ولاية رومانية وإلا لما غاب عن كل من استرابون وتاكيتوس ملاحظة ذلك وكلاهما يصف مصر بأنها ولاية (provinia أو eparchia) كما ورد فى النصين اللذين قدمنا ترجمتهما فى أول هذا الفصل . ويمكن أن نضيف إلى هذين النصين التاريخيين نصاً قانونياً يرجع إلى نهاية القرن الثانى ولكنه يصف بعض مسئوليات والى مصر على

---

(١) أنظر حول تسوية عام ٢٧ ق.م. وسلطان أغسطس :
R. Syme. The Roman Revolution. (1952) ch. XXII, "Princeps", pp. 313—330; Cambridge Ancient History, X. p. 128.

(٢) Res Gestae, 30. 1, "Pannoniorum gentes, quas ante me principem populi Romani exercitus nunquam adiit, devictas per Ti. Neronem, qui tum erat privignus et legatus meus, imperio populi Romani subieci, protulique fines Illyrici ad ripam fluminis Danui".

الأسس التي عينها الإمبراطور أغسطس . هذا القانون يصف مصر بلفظ ولاية provincia (١) .

يتضح من هذا العرض أن مصر — من حيث وضعها القانوني — كانت ولاية رومانية ، وأنها حسب تسوية عام ٢٧ ق . م . كانت إحدى الولايات التي تتبع الإمبراطور . ويجب أن نذكر أن أغسطس مارس سلطانا مطلقا على هذه الولايات التابعة له ، يختار حكامها على النحو الذي يراه هو ويبقيهم في مناصبهم حسب إرادته الشخصية ، فهم نوابه وممثلوه شخصياً ومسئولون أمامه فقط ، كما كان يحق له أن يصدر ما يشاء من النظم والقوانين في تلك الولايات بما يتفق وظروف كل واحدة . ولم يقتصر أغسطس على ممارسة هذا السلطان في ولاياته فحسب ، بل نجده أحياناً يتدخل تدخلا مباشرا في شئون الولايات التي تتبع مجلس السناتو ، كما حدث في قورينة (برقة) وقبرص (٢) . ولذلك لا ينبغي أن ينظر لسلطان السيادة الذي مارسه أغسطس في شئون مصر على أنه استثناء خاص بها .

رأينا أن أغسطس في تسوية عام ٢٧ ق . م . حاول أن يضعف من شأن مجلس السناتو ، وفي الواقع كان ذلك جزءاً من سياسة مقصودة تهدف إلى إضعاف طبقة النبلاء الذين يمثلهم مجلس السناتو . وتحقيقاً لهذا الهدف اتجه أغسطس إلى العمل على زيادة أهمية الطبقة المتوسطة المعروفة باسم طبقة الفرسان equites وذلك بزيادة الاعتماد عليها سياسيّاً ، فوجدناه يعين

---

(١) Ulpianus apud Digest. I. 17. 1 : " De officio praefecri Augustalis. Praefectus Aegypti non pruis deponit praefecturam et imperium, quod ad similitu dinem procaonsulis lege sub Augusto ei datum est, quam Alexandriam ingressus sit successor eins, licet in "provinciam" venerit: et ita mandatis eis continetur".

(٢) Cambridge Ancient Hist. X. pp. 212,214.

حكاما من بين أفراد هذه الطبقة لولاياته الجديدة ، وفى الولايات القديمة ، حيث التقليد المتبع حتى ذلك الوقت هو تعيين الولاة من أعضاء مجلس السناتو من القناصل والبريتورين السابقين ، نجده لا يميل إلى تعيين ولاة من فئة برو قنصل (أى من القناصل السابقين) ــ وهى الفئة الأرقى والأكثر أهمية من الناحية السياسية وأكثر خطورة من الناحية العسكرية ــ ويعين حتى فى الولايات الكبرى مثل الغالة وأسبانيا وسوريا نوابا عنه من فئة البرو بريتور (legati pro praetore) الأقل أهمية ومن الأسر الضعيفة[1] . وفى حالة مصر ، طبق نظامه المتبع فى الولايات الجديدة ، فعين ولاتها (praefectus) من طبقة الفرسان (كما يتضح من نص المؤرخ تاكيتوس السالف ذكره : (Ann. 1.II) ولكن لما كان لا يجوز لأفراد طبقة الفرسان ــ حسب التقاليد الدستورية الرومانية ــ أن يتولوا قيادة جيوش مكونة من الفرق العسكرية الرومانية (Legiones) ، والتى كان أمر قيادتها قاصراً على أفراد من طبقة السناتو (يحق للفرسان قيادة وحدات الإمدادات العسكرية auxilia) ، فقد اتخذ أغسطس إجراء استثنائياً فى حالة مصر فقط ، بأن منح والى مصر من طبقة الفرسان سلطة الامبريوم (Imperium)[2] التى تخوله حق قيادة جيوش مكونة من فرق رومانية . والسبب فى اتخاذ هذا الإجراء غير العادى فى حالة مصر هو عدم ثقة أغسطس فى ولاء طبقة السناتو له : لقد تآمروا من قبل بقيصر وقتلوه ، كما امتحن أغسطس نفسه بتجربة قاسية على يدى أنطونيوس وحليفته كليوباترا ، حتى كادت من جرائها تتصدع الإمبراطورية بأسرها .

ولما كانت مصر ولاية بعيدة يصعب الوصول إليها بسبب ظروف الملاحة

---

(١) أنظر: R. Syme, The Roman Revolution, p. 326; and Cambridge Ancient History, X, p. 215.

(٢) Digest. 1. 47. 1. وقد سبق أن أوردنا نص هذا القانون .

قديما وارتباطها بمواسم الرياح ، لذلك كان أغسطس يخشى أن يتمكن أحـد أعضاء طبقة السناتو من اكتساب ولاء الجنود لشخصه ـ بحكم حقهم التقليدى فى قيادة الجيوش ـ ويستقل بمصر[١] ، فيحرم روما من مصدر هام للقمح ، مما قد يكون له عواقب خطيرة . من أجل هذا كان الإجراء الاستثنائى الوحيد الذى طبقه أغسطس فى مصر يتعلق بإقصاء هذه الطبقة عنها . فمنح والى مصر من طبقة الفرسان سلطان الامبيريوم لقيادة الجيوش ، كما منع أعضاء السناتو والشخصيات البارزة فى روما من دخول مصر إلا بإذن خاص من الإمبراطور شخصياً . ويوضح هذه السياسة عبارة المؤرخ تاكيتوس المعروفة التى يقول فيها: « إن من بين أسرار توطيد حكم أغسطس أنه أمّن مصر عن طريق منع أعضاء السناتو والشخصيات البارزة من الفرسان الرومان من دخولها إلا بإذنه ، وذلك حتى لا يصيب أحـد إيطاليا بمجاعة عن طريق السيطرة على تلك الولاية ومنافذها البرية والبحرية ، فيصمد بقوة مهمـا كانت صغيرة أمام جيوش عظيمة[٢] » .

* * *

نتتقل الآن إلى النقطة الثانية فى النظام الذى وضعه أغسطس لحكم مصر وهى السلطة العليا فى الولاية . بالنسبة للمصريين احتل أغسطس مكان الملوك

---

(١) لعل من المناسب أن نذكر هنا أن الملك بطلميوس الزمار كان قد أعيد إلى عرشه بمساعدة فرقة من الجيش الرومانى من رجال پومپى، وكان قائدها هو أحد رجاله المسمى جابينيوس. وقد بقيت هذه الفرقة فى الأسكندرية، ولعل هذا هو السبب فى أن پومپى حاول الفرار لمصر بالذات بعد هزيمة فارسالوس . ولقد حارب جنود جابينيوس ضد قيصر فى حرب الأسكندرية . ولا بد أن أنطونيوس قد ترك فى مصر جنوداً آخرين ، قد لا يترددون فى الثورة ضد أغسطس إذا ما وجدوا لهم قائداً مناسباً . كما أن المصريين وأهل الأسكندرية لم يكونوا راضين عن الحكم الرومانى الجديد .

(٢) لاحظ أنه يستخدم هنا أيضاً لفظ Tacitus, Ann. II. 59, provincia حول هذا الإجراء أنظر أيضاً . Dio Cassuis, 51. 17.

البطالمة ، أى أن الإمبراطور الرومانى أصبح ملك البلاد الرسمى ، يتمثل فى شخصه كل ما تمثل فى شخص فرعون من قداسة وتأليه ، وكانت تخلع عليه الألقاب الفرعونية المألوفة . هذا من الناحية الرسمية البحتة بما يتفق وتقاليد الفكر السياسى والدينى والاجتماعى المصرى .

أما من حيث إدارة الولاية وتولى السلطة العليا فيها فقد عين أغسطس لذلك موظفاً من طبقة الفرسان ، كما سبق أن بينا ، وهو الذى يحمل لقب بريفكتوس praefectus أى والى ، ثم منح هذا الوالى سلطانا على مصر (imperium) يكافىء سلطان البروقنصل على ولايته (imperium quod ad similitudinem proconsulis) لهذا كان . (lege sub Augusto ei datum est)[1] والى مصر يعتبر أهم والى من طبقة الفرسان فى الإمبراطورية بأسرها .

وقد منح والى مصر بفضل هذا الإمبريوم سلطانا مطلقا فى الولاية ، حتى ليمكن أن يقال إنه مارس معظم ما كان للملك البطلمى من سلطان[2] ، بحيث أن جميع ما يقرره كان له قوة القانون فى مصر . ولا يحد سلطانه سوى إرادة الإمبراطور وما وضعه من نظم عامة للولاية . فقد كان من سلطة الوالى مثلا أن يحرر العبيد ، ولكن لم يكن فى سلطانه أن يمنح أحداً حق المواطنة فى مدينة الأسكندرية ، لأن ذلك كان من سلطة الإمبراطور نفسه . وإذا عرض للوالى أمر لا يشمله ما منح من سلطان كان يرجع الى الامبراطور شخصيا ليقرر الأمر أولا . وعدا ذلك كان له سلطة قيادة الحامية الرومانية فى مصر وأن

---

(١) Digest. I. 17.1 . ويبدو أن من مراسيم منح الوالى هذا السلطان الاستثنائى أن تقرر الجمعية التشريعية فى روما Comitia ، أنظر : Jones Legacy of Egypt, p. 288.

(٢) أنظر : Tacitus, Ann. I. 11, Strabo, 17, 1. 12.

يستخدمها مباشرة لمواجهة أي ظرف حسب ما يتراءى له ، كما كان له سلطة تعيين الموظفين وعزلهم ومحاسبتهم (عدا كبار الموظفين المعينين من قبل الإمبراطور). ومن الناحية القضائية يعتبر الوالى القاضى الأول للولاية وأحكامه نهائية . وكانت له دورة قضائية ، ليعقد محكمته فى أنحاء مختلفة من مصر فى أوقات مختلفة حتى لا يضطر الأهالى إلى أن يحضروا إلى الأسكندرية بأنفسهم . ومن الناحية الدينية كان يتمتع بمنزلة كبيرة واحترام عظيم من الكهنة ، وعند زيارته للمعابد يعامل معاملة تقرب من معاملة الملوك . وبعبارة أخرى كان الوالى هو الرئيس المباشر للإدارة فى مصر بكل ما فى كلمة الرياسة من معنى ، لأن الإدارة الرومانية فى مصر كما أرادها أغسطس كان طابعها المركزية إلى أقصى حد [1] .

بقى أن نذكر كلمة أخيرة عن الحامية العسكرية الرومانية فى مصر : سبق أن بينا أن أهمية مصر الأساسية بالنسبة لروما ترجع إلى القمح والمال الذى كان يرسل سنويا إلى روما على سبيل الجزية . وإذا أضفنا إلى ذلك ما اشتهر به المصريون فى ذلك الوقت من كثرة ثوراتهم وخاصة فى الجزء الأخير من حكم الأسرة البطلمية بسبب ضعف ملوكهم ؛ لذلك وجدنا أغسطس يقيم فى مصر حامية احتلال كبيرة نسبيا إذا قورنت بالحاميات الرومانية فى كثير من الولايات الرومانية الأخرى ويذكر استرابون أن هذه الحامية تكونت من ثلاث فرق وتسع سرايا وثلاث وحدات من الفرسان [2] . وتقدر قوة هذه الحامية بعدد ٢٢٫٨٠٠

(١) خير دراستين عن الوالى الرومانى فى مصر هما : O. W. Reinmuth, The Prefect of Egypt from Augustus to Diocletion (1935); and A. Stein. Die Prafekten von ägypten in der Römischen Kaiser-zeit (1950),

ولعرض مختصر أنظر Milne, Egypt Under The Roman Rule, pp. 122 ff

(٢) Strabo. 17: 1. 12,

طبقة الكهنة المصريين الذين يمثلون القيادة المنظمة الوحيدة للأهالى (١) .

تبيريوس: هذه هي أهم الأحداث التى حدثت فى الأعوام الأولى بعد فتح مصر زمن الامبراطور أغسطس . ولما خلفه الإمبراطور تبيريوس بعث أحد أفراد الأسرة الإمبراطورية البارزين المعروف باسم جرمانيكوس كحاكم عام للولايات الشرقية فى آسيا ، وانتهز جرمانيكوس فرصة وجوده فى الشرق وقام بزيارة مصر فى سنة ١٩ . وكان يقصد من القيام بهذه الزيارة التعرف على آثار مصر ، ولو أنه ادعى الحرص على مصلحة الولاية سبباً له . ولكن جرمانيكوس حين ذهب إلى مصر لم يستأذن من الإمبراطور ، حسب قرار أغسطس بعدم السماح لأعضاء مجلس السناتو بدخول هذه الولاية دون إذن الإمبراطور . وزيادة على ذلك وصلت الأخبار للإمبراطور أن جرمانيكوس أثناء زيارته للأسكندرية لم يحافظ على المظهر الرسمى للحكام الرومان، بل سار بين الناس بغير حرس خاص مرتديا الملابس الإغريقية ومنتعلا صندلا ، كما فتح صوامع الغلال وخفض أسعار القمح ، لأنه صادف أن كانت مصر تعانى من قلة القمح ، وارتفاع أسعاره بسبب انخفاض الفيضان فى ذلك العام . كل ذلك قربه إلى قلوب الناس ، وجعلهم يخلعون عليه من مظاهر التعظيم والتمجيد مما يليق بشخص الإمبراطور فقط ، حتى اضطر جرمانيكوس إلى إصدار أوامره ينهاهم عن ذلك .

ويبدو أن الإمبراطور تبيريوس لم يرض عن هذه الزيارة وجميع ملابساتها ، ولعله ضاق بأعمال جرمانيكوس ومسلكه الذى زاد من شعبيته بين الأهالى ويبدو أن ثورة تبيريوس لهذه الزيارة كانت شديدة ، حتى أنه أثار موضوعها فى الحال فى مجلس السناتو وهاجم جرمانيكوس ، ولامه نوعاً ما

(١) أنظر : Milne, Egypt, p. 11; and Camb. Anc. Hist. X, 290

لمسلكه من حيث اتخاذه الزى الإغريقى وإهماله للمظهر الرومانى ، ولكنه اتخذ من عدم استإذانه ذريعة لتوجيه أعنف النقد له لأنه قد خالف قاعدة من قواعد الحكم التى وضعها أغسطس [1] .

اشتهر تبيريوس عامة بالحزم فى الإدارة والعناية بشئون الولايات خاصة ، ومن ذلك ما يروى أن والى مصر فى عهده بالغ فى جمع الجزية حتى زادت على المبلغ المقدر سنويا ، فلامه على ذلك ، وقال له كلمته المشهورة « إنما أرسلتك لتجز وبر الأغنام لا لتسلخها » [2] . وهناك من الدلائل ما يبين أن مصر قد بدأت تدخل فى عهده مرحلة الانتظام والاستقرار الاقتصادى وأن جهود أغسطس لإنعاش اقتصاد البلاد قد بدأت تؤتى ثمارها . وأهم دليل على هذا الاتجاه هو إصدار عملة جديدة فى مصر . ذلك أن أغسطس منع إصدار عملة فضية فى مصر، واكتفى بأن تصدر دار السكة فى الأسكندرية دراخمات برنزية فقط . وفى الوقت نفسه حدد قيمة العملة البرنزية بالنسبة للدينار الرومانى الذى على أساسه تقدر الجزية السنوية . أدرك تبيريوس التعقيد الذى ينجم عن نظام العملة فى مصر، ولذلك قرر إصدار عملة فضية جديدة من فئة الأربع دراخمات ، (ويبدو أن هذه العملة كانت خليطاً من الفضة والبرنز) ، وكان لهذه العملة الجديدة قيمة الدينار الرومانى [3] ذاته .

---

(١) أهم مصدر عن زيارة جرمانيكوس لمصر هو Tacitus, Ann. II. 59. (وتوجد ترجمة عربية للنص اللاتينى فى كتاب مصر والإمبراطورية الرومانية للدكتور عبد اللطيف أحمد على ص ٧٢ — ٧٥) . وتوجد إشارات متعددة أخرى لهذه الزيارة فى . Pliny, Nat. Hist; VIII. 185; Josephus, Contia Apion, II. 63; Suetonius, Tiberius, 52, 2; S. B. 3924; f p. OX, XXV. 2435, early 1st. cent. A. D. (?)

(٢) Dio Cassius, 57, 10. 5,

(٣) تعتبر دراسة نظام العملة المصرية فى العصر الرومانى من أعقد الدراسات ويكتنفها كثير من الغموض حول سياسة أغسطس وتبيريوس فى هذا الصدد أنظر : L. C. West and A. C. Johnson, Currency in Roman and Bysantine Egypt (1944) Chaps i—ii: Johnson, Roman Egypt, pp. 424 ff; and id.: Egypt and the Roman Empire (1951) pp. 179

ويعتبر إصدار هذه العملة أهم عمل قام به تبيريوس فى مصر وخاصة من ناحية تنظيم علاقة مصر الاقتصادية بالإمبراطرية الرومانية . فهو من ناحية نظم أمر تحديد الجزية السنوية ويسر طريقة تقديرها وجمعها ، ومن ناحية أخرى وضع أساساً ثابتاً للتبادل التجارى بين مصر والإمبراطورية ، مما يسر عملية الدفع بالدينار أو تحويل الدينار إلى عملة مصرية جديدة مباشرة أو بالعكس . وقد ظهر أثر هذا جليا فى مدى الانتشار العالمى الذى أصابته تجارة الأسكندرية فى العصر الرومانى .

فتنة عام ٣٨ بين الأسكندريين واليهود:

ذكرنا من قبل أن الرومان نظروا إلى اليهود فى مصر على أنهم جالية أجنبية يمكن اصطناعها إلى جانبهم ، فهى تختلف عن المصريين أصحاب البلاد الأصليين ، وعن الإغريق الذين أكسبهم الفتح المقدونى والسلطان البطلمى حقا وقوة تشعرانهم بانتمائهم إلى البلاد . لذلك عامل الرومان اليهود معاملة فيها كثير من المحاباة ، وابتدأ هذه السياسة أغسطس بأن أقر جميع حقوق اليهود وامتيازاتهم ، ومن بينها مجلس شيوخهم المسمى جيروزيا (gerousia) . فى حين أن الأسكندريين — أرقى فئة بين الإغريق — لم يعاملوا مثل هذه المعاملة وسلبوا مجلسهم التشريعى المسمى بولى (boulé) . وفى الوقت نفسه كان الأسكندريون يضيقون بالحكم الرومانى أشد الضيق ، لأنه سلب مدينتهم مجدها السياسى ، فأصبحت عاصمة لولاية رومانية بعد أن كانت عاصمة إمبراطورية مستقلة . ويبدو أن اليهود لم يقنعوا بما كان عليه حالهم ، وحاولوا أن يزيدوا من امتيازاتهم ، فادعوا لأنفسهم مواطنة الأسكندرية ، وراحوا يترددون على جمنازيوم المدينة ويقحمون أنفسهم فى مبارياته وتدريباته . ويبدو أن خلافاً عنيفاً نشأ بين الأسكندريين واليهود حول مواطنة الأسكندرية وحق اليهود

فيها . وراح كل فريق يفند أسانيد الجانب الآخر . وقد وصلتنا فى هذا الصدد كتابات يوسيفوس للمؤرخ اليهودى الذى تولى أمر الدفاع عن وجهة النظر اليهودية . ولم يقتصر فى دفاعه على محاولة إثبات حق اليهود فى مواطنة الأسكندرية بشتى الأساليب فحسب ، بل لجأ إلى مهاجمة قادة الأسكندريين واتهامهم بزيف انتسابهم إلى الأسكندرية ، كما فعل فى هجومه على أبيون فى كتابه Contra Apionem. ولكن لا ينبغى أن نأخذ ما يقال فى هذه الاتهامات مأخذ الجد ، فهى لا تعدو أن تكون نوعاً من المهاترات السياسية التى تكثر أيام المحن والأزمات السياسية .

لم يكن مستغرباً إذن أن يضيق الإسكندريون بموقف اليهود ومحاباة الرومان لهم ، فاتخذوهم هدفا للتنفيث عن سخطهم على الحكم الجديد . وأخذت بوادر النزاع بين اليهود والأسكندريين تظهر جلية منذ نهاية حكم الإمبراطور الثانى تبيريوس ، حين اضطر الوالى على مصر ويسمى فلاكوس أن يقوم بحملة لجمع الأسلحة من الأهالى . ولكن ذلك لم يجد شيئاً ، وما إن تولى العرش الإمبراطور الثالث جايوس الملقب كاليجولا حتى نشب صراع مسلح بين اليهود والأسكندريين ، فيما يعرف بفتنة عام ٣٨ . وذلك عندما مر بالأسكندرية أجريبا (Agrippa) الملك اليهودى أثناء عودته من روما بعد أن ولاه كاليجولا ملكا على إيتوريا ، وهى إمارة صغيرة إلى الشمال الشرقى من يهوذا (أى فلسطين) .

وكان هذا الملك معروفاً من قبل لدى الأسكندريين بأنه ربيب القصر الإمبراطورى فى روما ، حيث توطدت العلاقات بينه وبين الإمبراطور الجديد كاليجولا ؛ وأنه كان مبذراً متلافا إلى درجة الإفلاس . فعجبوا إذ رأوه يصبح ملكا فجأة ، فأطلقوا عليه ألسنتهم الحداد بالسخرية والتجريح . ولما

كان أجريبا صديقا لـكاليجولا ، خشوا أن يغضب الإمبراطور لما أصاب صديقه من إهانات . فراحوا يتلمسون علة يبررون بها مسلكهم ، ووجدوها فى إعراض اليهود عن عبادة الإمبراطور ورفضهم إقامة التماثيل له فى دور عبادتهم . فهاجم الأسكندريون اليهود واقتحموا دور عبادتهم محاولين إقامة تماثيل الإمبراطور بها . وبذلك أحرجوا الوالى فلاكوس أشد الإحراج . وقد سبق أن اضطهد هذا الوالى الأسكندريين وأغلق أنديتهم ومنعهم من حمل السلاح . فإذا حاول هذه المرة قمع الأسكندريين ، فربما يفسر ذلك بأنه عدم ولاء من جانبه للإمبراطور . وبذلك نجح الأسكندريون فى استمالة فلاكوس إلى جانبهم ، ولعلهم تمكنوا من رشوته أيضا (١) ، فسلط على الحى اليهودى جنود الجيش الرومانى يعاونهم الأسكندريون بالقتل والسلب والنهب والتدمير. أمام هذه المحنة سعى اليهود إلى أجريبا ليتوسط لدى صديقه الإمبراطور وفعلا نجح السعى وبعث الإمبراطور قوة عسكرية إلى الأسكندرية ، دخلتها ليلا وألقت القبض على فلاكوس وأخذته إلى روما حيث حوكم ونفى ثم قتل فى منفاه . عند ذلك أرسل كل من اليهود والأسكندريين وفوداً تمثلهم إلى الإمبراطور وتبرىء ساحتهم من التهم الموجهة إليهم . وقد بقى لنا وصف لهذه السفارات فى كتاب « سفارة إلى جايوس » للفيلسوف فيلون ، رئيس الوفد اليهودى ، ومنه نعرف أن هذه السفارات لم تسفر عن نتيجة ذات بال ، لأن الإمبراطور شغل عنها ببعض شئونه الخاصة (٢)

---

(١) كما قد توحى P. OX., 1089. 57 = Musurillo acts of the Pagan Martyrs, No. II.

(٢) وردت أخبار هذه الفتنة فى كتابى الفيلسوف اليهودى فيلون In Flaccum, ed by Legatio ad Gaium; Box.

الإمبراطور كلوديوس :

استمر النزاع بعد ذلك بين الأسكندريين واليهود ، بينما اجتهد الوالى الرومانى فى مصر قمعه بشتى الوسائل ، حتى تولى كلوديوس عرش روما عقب اغتيال جايوس كاليجولا فى ٢٤ يناير عام ٤١ . فانتهز الجانبان فرصة تولى إمبراطور جديد العرش وأرسل كل منهم بعوثا تهنئه بالحكم وتعرض عليه القضية برمتها .

ومن حسن الحظ أنه قد عثر حديثا على بردية يونانية تحتوى على الرد الكامل لكلوديوس وهو عبارة عن رسالة من الإمبراطور موجهة إلى الأسكندريين (١) . وكل عبارة فيها تنطق بما اتصف به هذا الإمبراطور من الاتزان وسعة الحيلة . فهو فى هذه الرسالة يتناول مطالب الأسكندريين واليهود جميعا ويردعليها واحداً واحداً ، على نحو يضع الأمور فى نصابها ويُرى كلا من الأسكندريين واليهود موقف الإمبراطور النهائى .

ومن دراسة هذه الرسالة نعرف كثيراً من الأوضاع الداخلية فى الأسكندرية وبعض ما كان يعانى منه كل من الأسكندريين واليهود وما كانوا يسمون للحصول عليه ، فالإمبراطور كلوديوس يقسم رسالة إلى ثلاثة أقسام رئيسية (عدا الخطاب والمقدمة والخاتمة) : الأول للرد على ما رفعه إليه الأسكندريون من آيات الولاء والتمجيد ، والثانى للرد على مطالب الأسكندريين ، والثالث خاص بمسألة اليهود فى الأسكندرية .

فى القسم الأول من الرسالة يعلن كلوديوس قبوله لبعض اقتراحات الأسكندريين بتكريمه وتمجيده ، عن طريق الاحتفال بعيد ميلاده وإقامة عدة تماثيل له ولأفراد أسرته فى أنحاء مختلفة من مصر ، وإطلاق اسمه على إحدى

(١) H. I. Bell, Jews and Christians in Egypt, P. Lond. 1912,

قبائل مدينة الأسكندرية ، ولكنه يرفض رفضاً تاما اقتراحهم بتعيين كاهن خاص لعبادته وإقامة معابد خاصة لذلك ، وينبههم إلى أن مثل هذه الفكرة تمس مشاعر معاصريه ، لأن الناس جميعا ألفوا أن يكون الكهنة والمعابد للآلهة فقط . وهذا الموقف من كلوديوس يبين لنا مدى اتزانه وأنه لا يضعف أمام الملق والمديح .

وفى القسم الثانى يتناول كلوديوس أموراً أكثر أهمية تتعلق بنظم مدينة الأسكندرية . فمن ذلك مثلا ما يتعلق بمواطنة الأسكندرية ، التى كانت تمنح صاحبها امتيازات جمة مثل الإعفاء من ضريبة الرأس وإمكان الحصول على المواطنة الرومانية مباشرة فضلا عن المركز الأدبى الممتاز الذى كان يتمتع به الأسكندريون . من أجل ذلك حرص كثير من فئات السكان المختلفة على إقحام أنفسهم ضمن مواطنى الأسكندرية دون وجه حق . ويبدو أن هذه المشكلة قد أصبحت مصدر قلق شديد للمشرفين على أمور المدينة[1] ، حتى أنهم اضطروا آخر الأمر إلى رفعها إلى الإمبراطور شخصياً . وكان رد كلوديوس هو تثبيت المواطنة وامتيازاتها على كل المواطنين فى عهده ، باستثناء من كان من نسل جارية . وكذلك يوافق كلوديوس على اقتراحات الأسكندريين بأن يكون اختيار كاهن المعبد الإمبراطورى فى المدينة يتم بطريق الاقتراع ، وأن يكون مدة تولى الوظائف المدنية ثلاث سنوات . ويضيف الإمبراطور إلى ذلك قوله « سوف يتصرف الموظفون على نحو أكثر حذراً واعتدالا حينما يحسون بقرب تقديم الحساب عن أى إساءة ارتكبوها وهم فى الوظيفة » . ونفهم من إدخال نظام الاقتراع على وظيفة الكاهن أن تولى الوظائف الأخرى كان يتم بطريق آخر ولعله الانتخاب ؛ كما نفهم من تعليق الإمبراطور على تحديد مدة

---

(١) ورد ذكر هذه المشكلة أيضاً فى البردية المشهورة P. S. I., 1160 (early empire).

الوظائف بثلاث سنوات أنها كانت قبل ذلك غير محددة أو أطول من ثلاث سنوات على أى حال .

وفى ختام هذه الفقرة يتناول الإمبراطور مطلبا عزيزا على الأسكندريين طالمــا سعوا للحصول عليه منذ عهد الإمبراطور أغسطس نفسه ، ألا وهو إنشاء مجلس تشريعى للمدينة ، وهنا يجب على كلوديوس أن يـكون على حذر فيما يقول ، فهو يعرف مدى حرص الأسكندريين على تحقيق هذا المطالب ، ولـكنه يعرف أيضاً أن الإمبراطور أغسطس قد سبق أن رفض إجابتهم إلى رغبتهم ، إن لم يكن هو الذى سلبهم مجلسهم التشريعى ، وكل ما صدر عن أغسطس من نظم وتشريعات لا يجرؤ كلوديوس أن يتناولها بالنقض أو التغيير . ولهذا وجدناه يرد على طلب الأسكندريين بأنه سوف يتصل بواليه على مصر ليبحث له الأمر ، وفى الواقع كان معنى هذا الرد هو تأجيل النظر فى المسألة إلى أجل غير مسمى كما نقول الآن :

بعد ذلك ينتقل كلوديوس إلى القسم الثالث من رسالته الخاص بالمسألة اليهودية ، وهنا تتبدل لهجته فى الحديث كل التبدل ، فبدلا من أسلوب المجاملة والسياسة نجده يصطنع الصرامة والحزم ، وينذر كلا من الأسكندريين واليهود ، أنه لن يسكت على استمرار منازعاتهم ، فبينما ينصح الأسكندريين بحسن معاملة اليهود ، ينبه اليهود إلى حقيقة وضعهم فى المدينة ، لأنها ليست وطنهم الأصلى وليست مدينتهم ، وأن عليهم أن ينعموا بما أتيح لهم فيها من رغـد العيش وألا يسعوا إلى نيل أكثر مما لهم (ولعله يقصد مواطنة الأسكندرية) ، وألا يثيروا القلاقل بإحضار مزيد من اليهود إلى المدينة من خارجها سواء من مصر أو من سوريا .

هذه هى رسالة الإمبراطور كلوديوس إلى الأسكندريين ، وتعتبر من أهم

الوثائق التي وصلتنا عن مصر في العصر الروماني . ونحن لا نعرف مدى ما أحدثته هذه الرسالة الحكيمة من تأثير في الخلاف بين اليهود والإغريق في الأسكندرية فإحدى برديات المجموعة المعروفة باسم أعمال الشهداء الوثنيين أو أعمال الأسكندريين تبين أن في عام ٥٣ على أغلب الاحتمالات قدم إزيدور ولامبسون من زعماء الأسكندريين للمحاكمة أمام الإمبراطور كلوديوس في روما ، وكان الطرف الآخر في القضية أجريبا الملك اليهودي وصديق الإمبراطور (١) .

والبرديات التي تحتوي على أخبار هذه المحاكمة ناقصة ومبتورة في أكثر من موضع بحيث لا يمكننا معرفة حقيقة التهمة التي من أجلها حوكم إزيدور ولامبسون ، ومع ذلك فلهذه الوثيقة أهميتها الخاصة لأنها تعطينا مثالا من أمثلة ذلك الأدب السياسي الذي روج له الأسكندريون في جهادهم ضد الحكم الروماني وهو الذي يطلق عليه إصطلاحاً « أعمال الشهداء الوثنيين أو أعمال الأسكندريين » للتشابه بينه وبين « أعمال الشهداء المسيحيين » فيما بعد . وأدب الشهداء الوثنيين يمثل زعماء الأسكندرية وهم يحاكمون ويستشهدون دفاعاً عن مدينتهم ، مظهرين في ذلك ألواناً من الجرأة والبطولة مما يضعهم في مصاف شهداء أصحاب المبادىء . فمن النسخ المختلفة التي وصلتنا عن محاكمة إزيدور نجد هذه المواقف المثيرة :

إزيدور : مولاي قيصر ، أرجوك أن تسمع مني قصة مآسي وطني .

الإمبراطور : سأهبك هذا اليوم .

وهنا وافق على ذلك جميع أعضاء السناتو الحاضرين كمساعدين للإمبراطور لعلهم من هو إزيدور .

كلوديوس قيصر : لا تقل شيئاً ضد صديقي (أي أجريبا) . لقد سبق أن.

---

(١) Musurillo. acts of the Pagan Martyrs (acta Alexandrinorum), No, IV. acta Isidori.

قضيت على اثنين من أصدقائى ، ثيون رئيس المدينة (ا كسيجيتيس) . .
لامبسون لإيزيدور : لقد رأيت الموت بعينى . . .

كلوديوس قيصر : إزيدور ، لقد قتلت كثيرين من أصدقائى .

إزيدور : كنت أطيع أوامر الإمبراطور حينئذ . وكذلك بالنسبة لك ، فأنا مستعد لإدانة أى شخص تشاء .

كلوديوس قيصر : أحقاً أنت ابن راقصة يا إزيدور ؟

إزيدور : أنا لست عبداً ولا ابناً لراقصة ، وإنما جمنازيارخس لمدينة الإسكندرية العظيمة . ولكن أنت ابن منبوذ لسالوم اليهودية ، ولذلك ..

لامبسون لإزيدور : قد لا نملك سوى الإذعان لإرادة ملك مجنون (بعد ذلك يتحدث كلوديوس ، ونفهم أن الحكم قـــد صدر بإعدام إزيدور ولامبسون) .

وفى نسخة أخرى من المحاكمة ذاتها ، يهاجم إزيدور الملك أجريبا ؛ وذلك عندما يدافع عنه الإمبراطور ، فيقول إزيدور : « مولاى قيصر ، ماذا يعنيك من أمر أجريبا ، وهو يهودى لا يساوى شروى نقير » كلوديوس قيصر : ماذا تقول ؟! إنك لأوقح الناس جميعاً ..

هذا مثال من الأدب السياسى الذى استمد الأسكندريون مادته من مواقف حقيقية فى تاريخ صراعهم ضد السيطرة الرومانية . وهذا هو سر أهمية ذلك الأدب بالنسبة للمؤرخ ، فرغم المبالغة التى قد يصطنعها الـكاتب فى وصف الموقف إلا أنه يعتمد فى أغلب الأحيان على معلومات حقيقية . ولهذا فنحن لا نشك أن هذه المحاكمة حدثت فى عهد الإمبراطور كلوديوس وأن إزيدور ولامبسون

لقيا حتفهما نتيجة للمحاكمة ، كما تؤيد ذلك بردية أخرى من القرن الثانى [1].

نيرون (٥٤ - ٦٨):

بعد كلوديوس الحازم المعتدل تولى حكم روما نيرون الذى تمتاز شخصيته بالتطرف وعدم الاتزان فى معظم مايصدر عنه . ورغم كثرة جرائمه فى روما ، فيبدو أن ميله المحموم نحو الفن قد جعله يكن لمصر كثيراً من الإعجاب بها ورغبة قوية لزيارة آثارها . ويقال إنه أراد أن يصيب عصفورين بحجر واحد ، فاعتزم القيام بحملة عسكرية إلى إثيوبيا وراء حدود مصر الجنوبية ، وفى الوقت نفسه يزور مصر ويشاهد آثارها العجيبة [2] . وبذلك يكون قد أدى واجبه كحاكم من ناحية ، وكذلك أرضى رغبته الشخصية من ناحية أخرى . ورغم الشروع فى تنفيذ هذه الخطة الماثلة ، إلا أن شيئاً منها لا يتحقق نظراً لقيام ثورة يهودية كبيرة فى فلسطين ، شغلت الإمبراطور وجيوشه ، وجعلته يحول استعداداته من إثيوبيا إلى فلسطين . وما كان من الممكن أن تحدث مثل تلك الثورة فى فلسطين ولا يكون لها صدى فى مصر ، حيث العلاقات بين الإغريق واليهود دائمة التوتر . وفعلا نشبت فتنة بين الفريقين فى الأسكندرية وكان نيرون فى عام ٦٦ قد عين والياً على مصر تبيريوس يوليوس إسكندر ، وهو من حيث النشأة يهودى مصرى من الأسكندرية ، ولكنه ارتد عن دينه واكتسب المواطنة الرومانية وأمكنه التدرج فى سلك الوظائف الرومانية . وقد حاول تبيريوس اسكندر أن ينصح رؤساء الجالية اليهودية بالتزام الحكمة ، ولكن دون جدوى ، فاضطر إلى أن ينزل قوات الجيش الرومانى المعسكرة فى معسكر نيقوبوليس (مصطفى كامل برمل الأسكندرية) وأن يوجهها إلى مصدر الثورة

---

(١) Musurillo, acts, No. XI. 78—80.

(٢) عن هذه الحملة أنظر Anderson. in Camb. anc. Hist. Vol.X, pp. 880 ff.

فى منطقة اليهود ، حتى ليقال إن خمسين ألفاً منهم هلكوا فى تلك الفتنة .

ويبدو مع هذا كله أن مصر لم تغرب عن فكر نيرون ، فحينما سمع بثورة الجند ضده واختيارهم جالبا Galba إمبراطورا ، فكر فى أن يعتزل فى مصر أو أن يطلب أن يعين واليا عليها

ڤسبسيان (٦٩ - ٧٩) :

كان العام الذى أعقب مقتل نيرون (٦٨ — ٦٩) عام فتن وفوضى فى روما ،تعاقب فيه على العرش أربعة أباطر ، جالبا وأوتو وفيتلليوس وڤسبسيان وقد عرف لهذا السبب بعام الأباطرة الأربعة . فلم يكن الإمبراطور يستقر على عرشه سوى أسابيع أو أشهر قليلة وذلك بسبب تدخل الجيوش الرومانية فى الغرب فى شئون السياسة والحكم . فكان الجنود يعينون ويعزلون الأباطرة حسب أهوائهم المتفرقة . ولم تتدخل الجيوش فى الولايات الشرقية فى عملية تعيين الأباطرة وعزلهم فى أول الأمر ، حتى إذا كان عام ٦٩ أعلن ڤسبسيان قائد الجيوش فى سوريا نفسه إمبراطورا ، وقد بقى مركزه غير مؤكد حتى أول يوليو حين أعلن والى مصر مناصرته له وأخذ له يمين الولاء من الجيش الرومانى فى الأسكندرية، وكان لا يزال فى روما إمبراطورا آخر له ولاء الجيوش الغربية . عند ذلك اتجه ڤسبسيان نحو الأسكندرية ليحارب الإمبراطور القائم فى روما وهو فيتليوس من هناك ، عن طريق منع إرسال قمح مصر إلى روما . ولكنه لم يضطر إلى تنفيذ تلك الخطة لأن الجنود فى الولايات الغربية وفى روما أعلنوا ولاءهم لڤسبسيان بسرعة لم تكن متوقعة . هذه الحادثة تدل على مدى خطورة مصر بالنسبة لروما،وليس أدل على ذلك من أن ڤسبسيان اعتبر تاريخ بدء حكمه منذ أول يوليو عام ٦٩ وهو تاريخ إعلان والى مصر ولاءه له ، رغم أن الإمبراطور فيتليوس بقى متربعاً على عرش روما حتى ٢١ ديسمبر من العام نفسه.

وقبل أن يذهب فسبسيان إلى روما حضر إلى مصر لأخذ البيعة بنفسه. فاستقبله الناس فى الأسكندرية استقبالا رائعاً، وعاملوه معاملة الإله. وسرعان ماظهرت له معجزات فأبرأ ضريرا، ورد ذا عاهة سليما معافى. ولكن بعد أيام النشوة والفرح الأولى باستقبال أول إمبراطور يحضر إلى مصر شخصياً منذ أغسطس، سرعان ماتبين الأهالى أن إمبراطورهم المؤله ليس سوى رجل أعمال دقيقة، يعرف صالح خزائنه قبل كل شىء، فزاد الضرائب وتشدد فى جبايتها إلى آخر درهم. وهنا أطلق الأسكندريون عليه ألسنتهم الحداد بالسخرية، وأطلقوا عليه من الأسماء كل ماهو ساخر لاذع حسب ماتوحى المناسبة. من ذلك أنه طالب أحد الأفراد بمبلغ ستة أوبل (وهو مبلغ زهيد لاتزيد قيمته على ثلاثة قروش)، فأطلق عليه أهل الأسكندرية لقب «أبو ستةأوبل» فانتقم منهم فسبسيان بأن فرض على مواطنى مدينة الأسكندرية ضريبة الرأس بنفس المقدار وهو ستة أوبل. وهو مبلغ تافه، ولكن مجرد إخضاع الأسكندريين لضريبة الرأس. كان يعتبر إهانة ومساساً بمكانتهم، نظراً لأنهم كانوا معفين منها وكانوا يعتزون بهذا الامتياز كل الاعتزاز. على أى حال يقال إن تيتوس ابن الامبراطور شفع للأسكندريين وألغيت الضريبة(١).

ومن مصر أرسل فسبسيان ابنه تيتوس مع جيوش من مصر ليتولى أمر حصار بيت المقدس. وقد انتهى هذا الحصار بسقوط بيت المقدس وتدمير المدينة نهائياً سنة ٧٠، الذى يعتبر تاريخ نهاية دولة بنى إسرائيل فى فلسطين. ويبدو أن بعض عناصر من يهود فلسطين فرت إلى مصر وحاولت تأليب اليهود بها للثورة ضد الرومان، ولكنهم لم يصيبوا نجاحا كبيراً. وبعد عودة تيتوس إلى مصر، أظهر كثيراً من التودد والعطف نحو الأهالى، كما شهد حفلة تكريس

(١) عن فسبسيان فى مصر أنظر Milne, Egypt under Roman Rull, 28 ff.

عجل أبيس إلهاً ، مما زاد من تعلق المصريين وحبهم له .

ويبدو أن مظاهرة الإجلال التى أبداها تيتوس نحو الآلهة المصرية تمثل اتجاهاً جديداً فى السياسة الرومانية نحو الديانة المصرية ، لأن الإمبراطور دوميتيان من بعده (٨١—٩٦) أنشأ معابد فى روما ذاتها لكل من إزيس وسرابيس . ورغم أن هذه الآلهة — وخاصة إيزيس — كانت معروفة ومعبودة من قبل فى روما وإيطاليا ، إلا أن إنشاء الإمبراطور معابد خاصة لها فى روما كان بمثابة اعتراف رسمى بهذه الآلهة ، بعد أن استمرت تعبد هناك بصورة غير رسمية .

تراجان (٩٨— ١١٧)

تنشط الحياة السياسية من جديد بصورة عنيفة فى عهد الإمبراطور تراجان . وتأتلف عدة عوامل لإثارة الشعور العام وبعث روح الثورة ، من ذلك سوء إدارة وسلوك الوالى الرومانى فى ذلك الوقت ، ولكن أخطر من ذلك حدوث مجاعة بسبب انخفاض النيل ، وأخيراً تجدد الصراع بين اليهود والإغريق على نحو لم يسبق له مثيل .

ويبدأ تاريخ مصر فى عصر تراجان بالحادثة الأولى الخاصة بالوالى الرومانى ، إذ قد وصلتنا عنها بردية على جانب كبير من الأهمية . هذه البردية هى إحدى وثائق أعمال الشهداء الوثنيين [1] . وهى تصف محاكمة الوالى لمصر أمام الإمبراطور فى روما ؛ ويتولى أمر مهاجمته المتحدث باسم وفد الأسكندريين الماثل أمام الإمبراطور لهذه المناسبة . ومما تحتويه هذه البردية نعرف أن التهم الموجهة إلى الوالى المتهم ، ويسمى فيبيوس ماكسيموس ؛ متعددة متشعبة ، وهى الابتزاز والربا واستغلال السلطة والتعسف مع مخالفة القانون إلى جانب

(١) Musurillo, acts, No. VII.

الفساد الأخلاق والانحراف الخلقي. ويدلي المتحدث بأقواله في قوة وثبات ، وفي كل مرة يأتي بالأدلة التي تدين الوالي ، ويقف وقفة طويلة عند موضوع الفساد الخلقي ويصف هيام الوالي بغلام وظهورهما معا بمنظر يسيء إلى الشعور العام .

ورغم أن التهمة الأصلية هي تهمة الابتزاز، فإن إيراد المسائل الأخلاقية كان المقصود منه إثارة الإمبراطور ضد الوالي وكسبه إلى جانب الأسكندريين ، ولا يبعد أن كاتب البردية قد أسهم في المبالغة أيضاً بعض الشيء ليزيد من العنصر الروائي للمحاكمة ، مما يتفق وطابع أدب الشهداء الوثنيين ، خاصة وأن الهدف الأساسي من حفظها ونشرها هو الدعاية ضد الحكم الروماني في مصر ، ومما لا شك فيه أن هذه التهم والشكاوى أنهت ولاية ماكسيموس على مصر في شيء كثير من الخزى ، حتى أن اسمه أزيل من ثلاثة نقوش عثر عليها(١) .

ولعل ما سمعه تراجان من سوء الحكم في مصر حفزه على الاهتمام بأحوال هذه الولاية ، فما أن ألمت بمصر المجاعة بسبب انخفاض فيضان النيل ، اهتم تراجان بالأمر كل الاهتمام ، فأرسل إلى مصر أسطولا محملا بالغلال مما كان محفوظا لحاجة روما ، وبذلك خفف من ضائقة البلاد (٢) .

ولكن سحائب اضطراب جديد أخذت تتجمع في أنحاء البلاد ، إذ أخذ النزاع التقليدى بين اليهود والإغريق يظهر من جديد ، ولكن يبدو أنها كانت حركة قصد اليهود من ورائها إحراج الحكومة الرومانية عموما . بدأت من الأسكندرية ثم أخذت هناك (١١٠ أو ١١٣) ، وأرسل بعض زعماء اليهود والأسكندريين للمحاكمة أمام الإمبراطور الروماني ، كما توضح إحدى برديات أعمال الشهداء الوثنيين المعروفة باسم "Acta Hermaisci"(٣) .

(١) I. G. R. 1148; 1175; 1357 = C. I. L. 14148₂.

(٢) Pliny Jun. Paneg, 31—32.

(٣) Musurillo, Acts, No. VIII.

ومن هذه البردية نعرف أن أفلوطينا ، زوجة الإمبراطور ، كانت متشيعة إلى جانب اليهود ، وأنها سعت للتأثير على تراجان ليكون فى جانب اليهود . ويدرك هرميسكوس هذه الظاهرة ، ويثيرها فى حدثه إلى الإمبراطور ، إذ يقول له إن مجلسه غاص باليهود، فيغضب الإمبراطور . ولكن هرميسكوس يستمر مخاطباً الإمبراطور فى ثبات تام « أيزعجك إذن أن أذكر اليهود ؟ إذا كان الأمر كذلك ، فأولى بك أن تساعد بنى قومك وأن لا تتصدى للدفاع عن اليهود الملحدين » .

وتنتهى البردية بعد ذلك دون أن تذكر نتيجة المحاكمة ولكنها تذكر أن معجزة حدثت حينئذ ، وهى أن تمثال الإله سرابيس الذى كان يحمله الوفد الأسكندرى تصبب عرقاً فجأة ؛ فدهش الإمبراطور وتصايح الناس فى روما وهرعوا إلى الجبال خشية نذير الإله .

ويبدو أن الاضطرابات تجددت فى الأسكندرية بعد ذلك فى عام ١١٤ ثم أخمدت فى الحال . ثم انتهز اليهود فرصة انشغال الإمبراطور فى الحرب ضد البارثيين فى الشرق حتى أشعلوا نار ثورة جامحة فى أنحاء مختلفة من مصر وبرقة؛ واستطاعوا أن يسيطروا على البلاد بعض الوقت . وعجزت الجيوش الرومانية القليلة الموجودة فى مصر عن مواجهة الموقف ؛ فاضطر الوالى أن يلجأ إلى تجنيد الأهالى فى فرق محلية فى كل نوموس أو مقاطعة تحت قيادة الحاكم المحلى (Strategos) ومن حسن الحظ أن لدينا مجموعة كبيرة من أوراق البردى خاصة بأبولونيوس[1] استراتيجوس إحدى مقاطعات الصعيد وتلقى ضوءاً على ظروف

---

(١) وقد نشرت هذه الأوراق فى مجموعة P. Giessen (= Griechische Papyri im Museum des oberhessischen Geschichtsuereins Zu Giessen, 1910—1912); Die Bremen Papvri, ed. U. Wileken, (1936).

هذه « الحرب ضد اليهود » كما أسماها الأهالى . ونعرف من أوراق أبولونيوس أنه لم تحدث معركة فاصلة بين الجانبين ؛ وقام استراتيجوس كل نوموس بمعاونة الأهالى المسلحين لتأمين منطقته وتصيد الثوار المارقين من اليهود حتى قضى عليهم تماما .

ومن الإجراءات العسكرية التى تمت على عهد تراجان فى مصر إدخال بعض التعديل فى الحامية الرومانية ؛ وإقامة حصن جديد عند رأس الدلتا وهو المعروف باسم حصن بابليون ؛ ومنذ هذا التاريخ بقى هذا الحصن من أهم نقط الدفاع عن مصر .

هادريان (١١٧ — ١٣٨) :

وفى عهده شهدت مصر ثالث زيارة من امبراطور رومانى ؛ إذ حضر هادريان إلى مصر فى شتاء عام ١٣٠ عن طريق فلسطين والفرما إلى رأس الدلتا ثم صعد فى جنوب مصر إلى طيبة ثم عاد إلى الأسكندرية . وما من شك أن الهدف الرسمى للرحلة هو التفتيش على ولايات الإمبراطورية الشرقية ؛ ولكن هذه الزيارات فى مصر تأخذ عادة طابع الرحلات السياحية فقد اهتم هادريان أثناء وجوده فى الصعيد بدراسة أحوال البلاد قدر ما اهتم بزيارة معالم آثار مصر الشهيرة وكان من أحبها إلى نفوس الزوار حينئذ زيارة تمثالى ممنون اللذين كان يخرج منهما صوت جميل عند مشرق الشمس بفضل تبخر الندى وهبوب نسيم الصباح .

ومن أهم أعمال هادريان فى مصر هو إنشاء مدينة يونانية جديدة ؛ وهى مدينة أنتينوبوليس ؛ فكانت أول مدينة يونانية ينشئها الرومان فى مصر إلى جانب المدن الأربع السابقة . وقيل إن هادريان أنشأ هذه المدينة تخليداً لأحد أفراد حاشيته المقربين إليه الذى يسمى أنتينوس Antinous والذى توفى أثناء الرحلة المصرية . ونظراً لميل هادريان القوى إلى الحضارة اليونانية فقد أراد أن

تكون هذه المدينة بمثابة مركز جديد لنشر الحضارة الإغريقية فى صعيد مصر ، ولهذا جعل مواطنيها من الإغريق فى مصر ، الذين نقلهم من مدينة بطلمية ومن الجالية الإغريقية فى الفيوم المعروفة باسم « الـ ٦٤٧٥ إغريقيا المستقرين فى مقاطعة أرسنوى » وقد تمتع مواطنو هذه المدينة بجميع النظم المألوفة فى المدن اليونانية كما كانت فى مدينة نقراطس القديمة بما فى ذلك مجلس تشريعى الذى كانوا يعتزون به كل الاعتزاز ومن بين ما تميز به مواطنو أنتينوبوليس أيضاً هو تمتعهم بحق الزواج من مصريات ، وهو ما لم تتمتع به المدن اليونانية الأخرى فى مصر [١] . ولعل هادريان أراد من وراء ذلك محاولة إيجاد جيل يجرى فى عروقه الدم المصرى ومثقف ثقافة يونانية . ولكى ييسر للمدينة الجديدة سبيل الازدهار الاقتصادى مد طريقاً بينها وبين برنيقة على البحر الأحمر ، وزود هذا الطريق بمحطات للحراسة والمياه [٢] . وهو مشروع عاد على المدينة بالخير العميم ، لأن تجارة مصر الشرقية كانت فى ذلك الوقت قد بلغت ذروة من القوة والنشاط وشملت الهند . وبذلك استطاع هادريان أن يربط مدينته الجديدة منذ نشأتها بعجلة الاقتصاد المصرى .

بعد رحلة الصعيد ذهب هادريان إلى الأسكندرية حيث أعلن حمايته للمكتبة والموسيون ، وجلس مع العلماء وتحدث إليهم ، كما زاد عددهم بإضافة عدد من العلماء المتنقلين إلى سجل علماء الموسيون [٣] .

وكان لاهتمام هادريان بالثقافة اليونانية فى مصر أثر واضح فى بعث نشاط فنى ذى طابع يونانى مصرى تجلى فى الرسوم الجميلة لوجوه الأفراد التى وجدت

---

(١) حول مدينة أنتينوبوليس أنظر E. Kuhn, Antinooupolis (1913); H. I. Bell, Antinooupolis, a Hadrian Foundation, Journal of Roman Studies, 30 (1940) pp. 130 ff.

(٢) I. G. R., No. 1142.

(٣) Historia Augusta. Haditianus. 20.

على عدد من الموميات المحنطة والتى عثر عليها فى منطقة الفيوم ، وبلغت أوجها الفنى فى منتصف القرن الثانى(١) .

أنطونينوس التقى (١٣٨ — ١٦١) Antoninus Pius

رغم طول مدة حكمه فإن تاريخ مصر السياسى فى عهده يكاد يكون خاليا إلا من ثورة جامحة فى الأسكندرية نجهل أسبابها، ولكن نعلم أن الوالى الرومانى ذهب ضحيتها (سنة ١٥٣) . وقد قاست الأسكندرية كثيراً جزاء ثورتها ، ولكن الإمبراطور بعد ذلك حضر لزيارة المدينة وأقام بها بعض المنشآت مثل ميدان للسباق وباب الشمس فى الشرق وباب القمر فى الغرب .

مار كوس أوريليوس (١٦١—١٨٠) Marcus Aurelius

فى عهد هذا الإمبراطور الحكيم الفيلسوف بدأت الإدارة الرومانية فى مصر تتكشف عن عيوبها الحقيقية . فمنذ ثورة المصريين ضد جباة الضرائب الرومان فى عصر الإمبراطور أغسطس لم يشترك المصريون من أهل الريف اشتراكا إيجابياً فى حركة ضد الحكم الرومانى وظلت الفتن والثورات قاصرة على أهل الأسكندرية واليهود . أما منذ منتصف القرن الثانى لم يستطع المصريون احتمال شدة وطأة الحكم الرومانى ونظام الضرائب المرهق وضروب مختلفة من أنواع الخدمة والعمل الإجبارية بجانب ضريبة القمح وضريبة الرأس وضريبة الملح وضرائب الأرض المتعددة وضرائب التجارة والصناعة النوعية والتغذية ، كان على الأهالى أن يقوموا بأعمال إجبارية مجانية تتدرج من تولى وظائف مختلفة فى الإدارة المحلية إلى تسخير ما يمتلكه الأفراد من دواب وفى سبيل نقل الغلال من القرى إلى الأسكندرية لتشحن بعد ذلك فى السفن إلى روما . ويأتى فى الدرج الأسفل

---

(١) Edgar Cairo Catalogue, Graeco—Egyptian Coffins, p. XIV; Hilde Zaloscer, Potrats aus dem Wusten—Sand,(1961)

من هذه الخدمات الأعمال اليدوية مثل بناء السدود والجسور وتقوية ضفاف النيل وقت الفيضان حتى لا تفيض مياهه فتغرق القرى والمدن . وكانت هذه الأعمال تفرض على الأهالى كرها دون أجر ، كل حسب منزلته وأملاكه . فالعمل الأرقى للأكثر مالا والعمل الأحقر للأكثر فقرا. ولكن جهود الأباطرة الأولية فى شق الترع والعمل على إصلاح الأراضى وتحسين الحالة الاقتصادية عموما إلى جانب، وجود الجيش الرومانى الذى أشرف على تنفيذ رغبات الإدارة الرومانية، كل ذلك كان كفيلا باستمرار سير العمل ومنع المصريين من التقصير فى القيام بمسئولياتهم نحو الإدارة الرومانية. ولكن حين أهملت الترع والمصارف وتعاقبت بعض الفتن والثورات مثل ثورة اليهود فى عهد الإمبراطور تراجان ساءت ظروف الزراعة كثيرا ولم يقبل الأهالى على العناية بأرضهم لعلمهم بعدم جدوى جهودهم وأن ثمرة أعمالهم ستذهب إلى روما دون أن يبقى لهم منها شيء يذكر .

وليس أدل على خطورة الأحوال الزراعية من أن كثيرين من أصحاب الأرض لجأوا إلى الفرار من أرضهم لعجزهم عن دفع الضرائب ؛ وكانوا يلجأون إلى المدن الكبرى وخاصة الأسكندرية حيث يمكنهم الاختفاء والعثور على عمل فى خضم حياتها التجارية والصناعية النشطة. فإذا تعذرت أمامهم سبل الحياة فى الأسكندرية لجأوا إلى أحراش شمال الدلتا ومستنقعاتها ليحيوا حياة تشرد فطرى .

هذه هى الحالة التى واجهتها الإدارة الرومانية فى مصر فى الجزء الأخير من القرن الثانى ، وكانت أول نتيجة لهذه الحالة السيئة أن انتهز المصريون إرسال الحامية الرومانية للحرب فى منطقة الدانوب ، فقاموا بثورة عنيفة تحت زعامة أحد الكهنة يدعى إزيدور سنة ١٧٢ ، وكان مركز الثورة هو منطقة شمال الدلتا . ويبدو أن حركة إزيدور كانت من القوة بحيث أن القوات الرومانية

الموجودة فى البلاد عجزت عن مواجهتهم حتى كادت الأسكندرية ذاتها تسقط فى أيدى الثوار . ولإنقاذ الموقف فى مصر اضطرت روما إلى إرسال قوات من سوريا يقودها الحاكم هناك المسمى أفيديوس كاسيوس (Avidius Cassius) ، وبدلا من أن يقابل الثوار فى معركة فاصلة ، لجأ كاسيوس إلى الحيلة والمكيدة وإحداث الفرقة بين صفوف الثوار ، حتى نجح فى استمالة بعضهم ، ثم تعقب من تبقى منهم فى شكل جماعات صغيرة حتى قضى على الثورة .

ولكن ما إن أخمدت ثورة المصريين حتى واجهت روما فى مصر فتنة أخرى أشد خطورة ، صاحبها ومدبرها هو القائد الرومانى المنتصر نفسه أفيديوس كاسيوس . ويقال إن كاسيوس تآمر مع الإمبراطورة فوستينا على اغتصاب الحكم بعد موت ماركوس أوريليوس ؛ ولما بلغه نبأ كاذب بموت الإمبراطور ، اندفع كاسيوس فى الكشف عن مؤامرته وإعلان نفسه إمبراطورا وأخذه البيعة من الجنود فى عام ١٧٥ . ولم تتردد مصر كثيرا وعلى رأسها مدينة الأسكندرية فى مناصرته ، لأن المصريين فى ذلك الوقت كانوا يؤيدون كل انشقاق أو فتنة ضد السلطة المركزية فى روما ، وليس ذلك عن حب فى الثائر أو المنشق ولكن كرها للسلطان الرومانى عموما . ويبدو أن مثل هذا الشعور كان شائعا أيضا فى الولايات الشرقية ، إذ سرعان ما اعترف به السوريون وغيرهم فى الولايات الشرقية . ولكن ثورة كاسيوس فشلت بنفس السرعة التى قامت بها ، إذ اغتاله أحد ضباطه بعد مضى ثلاثة أشهر من قيام ثورته .

وفى العام التالى (١٧٦) زار ماركوس أوريليوس الولايات الشرقية بما فيها مصر ، وبدلا من أن ينتقم منهم لمناصرتهم ثورة كاسيوس عفا عنهم وأظهر

من ضروب الرحمة والشفقة ما يتفق وما اشتهر به هذا الإمبراطور من الحكمة والفلسفة . فقد اكتفى بعزل الوالى ونفيه وكذلك أفراد أسرة كاسيوس ذاته وكان المتوقع أن يصدر عليهم جميعاً الجزاء التقليدى للثوار والمنشقين وهو الإعدام[1].

كومودوس (١٧٦ — ١٩٢) Commodus:

لم تستمر طويلا سياسة المسالمة وروح العطف والتسامح التى اتبعها ماركوس أوريليوس ، إذ كان ابنه وخليفته كومودوس على النقيض من ذلك ، ميالا إلى العنف والانتقام . فأثار الأحقاد القديمة وصمم على تعقب أسرة أفيديوس كاسيوس وقضى عليهم جميعاً ، كما انتقم من الأسكندريين فحاكم زعماءهم وقتل كثيرين منهم . وقد وصلتنا بردية من عهد الإمبراطور كومودوس تعتبر مثالا متأخراً من مجموعة أعمال الشهداء الوثنيين . وتحتوى هذه البردية على أجزاء من محضر محاكمة هليودوروس (ابن كاسيوس ؟) وأبيانوس رئيس جمنازيوم الأسكندرية . ويبين الحوار الذى دار بين أبيانوس والإمبراطور مدى الكراهية التى احتفظ بها أهل الأسكندرية ومصر عامة تجاه الحكم الرومانى ، كما تكشف عن جوانب من سوء الحكم وكذلك عن شخصية كومودوس نفسه . ولعل من المناسب أن نورد ترجمة الفقرات الهامة من هذه الوثيقة :

أبيانوس : . . . الذين يرسلون القمح إلى المدن الأخرى ، فيبيعونه بأربعة أضعاف ثمنه ، حتى تعوضوا ما أنفقوا .

الإمبراطور . ومن الذى يأخذ هذه الأموال ؟

---

(١) عن ثورة كاسيوس ومسلك أوريليوس الحليم حيالها أنظر :
Historia Augusta, Harcus Aurèlius Antoninus, 25—26; and ibid, Avidius Cassius, VII.

أبيانوس : أنت

الإمبراطور : أواثق أنت من ذلك ؟

أبيانوس : كلا ، ولـكن سمعنا ذلك .

الإمبراطور : ما كان ينبغى أن تنشر هذه الدعوى قبل أن تستيقن من النبأ . (إلى) بالجلاد !

وفى موضع آخر ، حينما يؤخذ أبيانوس إلى ساحة الإعدام يرى هليو دوروس فيقول له :

أليس لديك ما تقوله عنى يا هليودوروس بينما أنا أساق إلى الموت ؟

هليودوروس : لن يمكننا أن نتكلم ، إذا لم يكن هناك من يستمع الينا ؟

فامض يا بنى إلى الموت ، ذلك المجد ، إذ أنك تموت من أجـل وطنك الجليل ، فلا تبتئس .

عند ذلك يستدعى الإمبراطور أبيانوس مرة ثانية ويقول له :

ألا تعرف إلى من تتحدث الآن ؟

أبيانوس : (أجل) أبيانوس يتحدث إلى طاغية .

الإمبراطور : لا ، بل إلى ملك .

أبيانوس : لا تقل أنت هذا ! كان يحق لوالدك أنطونينوس المؤله أن يكون إمبراطوراً . ولتعلم أنه كان أولا فيلسوفا ، وثانيا زاهدا ، وثالثاً خيراً . أما أنت فلك عكس هذه الصفات : طاغية وشرير وفاسد الأخلاق .

فأمر قيصر بأن يساق أبيانوس إلى الإعدام . وبينما كان أبيانوس يؤخذ بعيداً قال :

امنحنى شيئاً واحدا ، يا مولاى قيصر !

الإمبراطور : ماذا ؟

أبيانوس : امنحنى أن أعدم وأنا أرتدى شارات الشرف الخاصة بى

الإمبراطور : لك ما سألت (١)

هذه فقرات من هذه المحاكمة الهامة ، لما اشتملت عليه من إشارات لها دلالتها التاريخية . من ذلك مايتهم به أبيانوس الإمبراطور من أن الرومان كانوا يمارسون تجارة خبيثة وهى أخذ القمح من مصر وبيعه فى الخارج بأربعة أضعاف ثمنه الأصلى . كما تكشف كلمات أبيانوس عن مدى التقدير والحب الذى احتفظ به أهل الأسكندرية لذكرى الإمبراطور أوريليوس ، فوصف بالفلسفة والزهد والخير، وهو ما لم يوصف بها إمبراطور رومانى آخر فى جميع أعمال الشهداء الوثنيين التى يغلب عليها - كما سبق أن ذكرنا - طابع مهاجمة الرومان عموماً . ويتضح من هذه المحاكمة أيضاً، التى حدثت حوالى عام ١٩٠ أنه بعد أكثر من مائتى سنة من الحكم الرومانى أن جذوة المقاومة لازالت متقدة فى نفوس المصريين ؛ بل نلحظ فى هذه المحاكمة أن الموقف ازداد صراحة إذ غاب عنصر النزاع مع اليهود وأصبح الصراع ضد الرومان وجها لوجه . ولعل الموجهين للسياسة فى روما قد بدأوا يخشون من ازدياد تفاقم الأحوال فى مصر ، وخاصة بعد ثورة الرعاة فى شمال الدلتا وثورة كاسيوس بعد ذلك ومناصرة المصريين له ، فقام كومودوس ببناء أسطول جديد لنقل الغلال من شمال إفريقيا إلى روما ، لإمكان مواجهة الموقف إذا تأخر قمح مصر (٢) . هذه الخطوة الهامة لم يقدم عليها الرومان إلا فى نهاية القرن الثانى مما يدل على أن الأحوال فى مصر لم تعد تبعث على الاطمئنان الكامل .

---

(١) Musurillo, Acts, No. XI "Acta Appiani".

(٢) Historia Augusta, Commodus, 17. 7.

ب - مصر فى فترة المحنة الكبرى للإمبراطورية الرومانية فى القرن الثالث

يعتبر القرن الثالث الميلادى من أخطر فترات التاريخ لأنه يمثل مرحلة الانتقال — الكبرى من الحضارة القديمة إلى حضارة العصور الوسطى. وكما يحدث فى فترات الانتقال الكبرى تكثر الأزمات المختلفة فى المجتمع من سياسية واقتصادية واجتماعية ودينية ، وذلك لأن النظم القديمة تتكشف عن عيوبها وقصورها أمام الظروف الجديدة فتنهار ، بينما تأخذ نظم جديدة أو متطورة عن النظم القديمة فى الظهور . وهذا هو ماحدث فى القرن الثالث فى الإمبراطورية الرومانية. ولكن ليس هنا مجال الحديث عن أوضاع الإمبراطورية عامة ، وإنما سنكتفى من ذلك بما يمس مصر فقط .

ومن أبرز معالم التاريخ السياسى لهذه الفترة كثرة الانقسامات السياسية ، والتنازع حول العرش وتدخل الجيش فى هذه المنازعات السياسية، يعينون الأباطرة ويعزلونهم أو يقتلونهم حسب انقسام ولائهم وتوزع أهوائهم . ونلاحظ أنه كان للمصريين موقف يكاد يكون موحداً فى أثناء ذلك كله، وهو مناصرة كل وعى للعرش أو ثائر على السلطة المركزية فى روما . وكان السبب الأساسى لهذا الموقف من المصريين هو كراهيتهم الشديدة للحكم الرومانى . وقد رأينا مثلا من ذلك فى ثورة أفيديوس كاسيوس ضد الإمبراطور الحكيم ماركوس أوريليوس . وسوف تتكرر الأمثلة بعد ذلك فى خلال هذا القرن .

سبتميوس سيفيروس Septimius Severus (١٩٣ — ٢١١) :

بعد موت كومودوس تولى العرش برتينا كى (Pertinax) فى أول يناير

سنة ١٩٣ ؛ ولكنه لم يبق فى الحكم سوى ثلاثة أشهر حتى لقى مصرعه على أيدى بعض فرق الجيش فى ٢٨ مارس سنة ١٩٣ . بعد ذلك تنازع الحكم عدد من الأدعياء رشحتهم الجيوش المختلفة هم سبتميوس سيفيروس بانونيا (بمنطقة الدانوب) وألبينوس فى شمال الغالة ونيجــير فى سوريا . وقد ناصرت مصر حاكم سوريا فصدرت باسمه العملة كما استخدم اسمه فى تأريخ الوثائق أيضاً . ولكن سرعان ما تمكن سيفيروس من القضاء على منافسيه الواحد بعد الآخر ودانت له الإمبراطورية بأسرها .

وفى شتاء ١٩٩ — ٢٠٠ زار سيفيروس مصر وقام بالجولة المألوفة للسائح الرومانى فى ذلك الوقت وهى زيارة بعض معالم الآثار المصرية ومنها تمثالى ممنون بطبيعة الحال . ويقال إن سيفيروس أصلح رأس أحد التمثالين ، ولكن نتج عن هــذا الإصلاح توقف صدور الصوت الذى كان ينبعث منهما عند شروق الشمس . ولكن زيارة سيفيروس لمصر لم تكن لمجرد النزهة أو السياحة والترويح عن النفس ، بل كان لها هدف ونتائج على جانب كبير من الأهمية . فلابد أن سيفيروس كان على علم تام بسوء ما وصلت إليه الأحوال فى مصر ، فقد ساءت الحالة الزراعية كثيراً فى الجزء الأخير من القرن الثانى ، وأصيب الجهاز الإدارى بعجز بيّن تبعاً لذلك ، إذ تعذر وجود عــدد كاف من أصحاب الأراضى لتولى جميع مناصب الإدارة المحلية فى النومات المختلفة . وكان لابد من القيام بإصلاح أساسى لتدارك الحالة قبل أن ينهار النظام الإدارى فى الولاية تماماً ، ولهذا أقدم سيفيروس على إدخال أول إصلاح جذرى على النظام الذى وضعه أغسطس لمصر منذ أكثر من قرنين من الزمان . ويتلخص إصلاح سيفيروس فى أنه قرر إنشاء مجلس تشريعى (بولى boule) فى الأسكندرية وفى مراكز النومات (متروبوليس وجمعها متروبولات) . وسوف نتناول أهمية هذا الإصلاح فى معرض الحديث عن الإدارة ، ولكن يكفى هنا أن نقول إن الهدف الأساسى

من هذا الإصلاح لم يكن العمل على تقوية النظم السياسية الحرة فى المدن ، بل جعل هذه الجمعيات التشريعية الجديدة مسئولة عن ملء الوظائف الإدارية فى النوموس ، وبعبارة أخرى ألقى عبء الإدارة المحلية على كاهل أعضاء هـذا المجلس التشريعى بدلا من سلطات الإدارة المركزية[1] . ويجب أن نذكر هنا أن المدن فى الولايات الرومانية الأخرى كانت تتمتع من قبل بنظام المجالس التشريعية ، وكانت مصر استثناء من هذه القاعدة . ولهذا يعتبر إنشاء المجالس التشريعية فى مدن مصر محاولة لتوحيد نظم الإدارة والحكم بين مصر وسائر ولايات الإمبراطورية .

كاراكلا Caracalla (٢١١ – ٢١٧) :

كان تشريع سيفيروس الخطوة الأولى فى محاولات إصلاح النظم الرومانية وقد أعقبتها خطوة ثانية على جانب كبير من الأهمية . ذلك أن ابنه وخليفته الإمبراطور كاراكلا أصدر فى عام ٢١٢ تشريعاً هاماً فحواه منح المواطنة الرومانية لجميع سكان الإمبراطورية من الأحرار . ويفهم من المصادر الأدبية والقانونية القديمة — كما ورد عند ديون كاسيوس وأدلبيان — أن هـذا المنح كان عاماً شاملا[2] . ولـكن عثر حديثاً على بردية تحتوى على نص

---

(١) المصادر الأدبية تجعل منح المجلس التشريعى قاصراً على الأسكندرية : (Dio Cassius, 75, 13 : Historia Augusta, Severus, 17) ولـكن ثبت من الوثائق البردية أن هذه المجالس أنشئت فى جميع مراكز النومات منذ زمن سيفيروس وقد جمعت المصادر البردية ودرست بواسطة : P. Jougue, La Vie Municipale, pp. 334 ff; id., Les Boulai à la fin du IIIe Siecle, Revue d'Egypte, N. S. I. p. 73; A. H. M. Jones, Cities of the Eastern Roman Provinees. p. 329 and notes; E, P. Wegener, in Symbolae van Oven, pp. 160 ff; and in Mnemosyne (1948) pp. 15—42; 115—132; 297—326.

(٢) Dio Cassius. 77: Ulpian, Digest I. 5. 17 : "In orbe Romano qui sunt ex constitutione imperatoris Antonini (). e. Caracalla) cives Romani effecti - sunt".

قانون كاراكلا[1] ، ونظراً لأن هذه البردية مشوهة وناقصة فى أكثر من موضع صعب تفسير عبارة وردت بها توحى بأن منح المواطنة الرومانية لم يكن شاملا وأن هناك استثناء معيناً ينص على عدم تمتع الطبقة المسماة « بالخاضعين » (dediticii) بمنحة هـــذا القانون . ورغم أن المقصود بلفظ « الخاضعين dediticii » هم الأعداء الذين حملوا السلاح وحاربوا الشعب الرومانى ولما هزموا خضعوا[2] فقد اختلف المؤرخون المحدثون فيما إذا كان قانون كاراكلا (المعروف اصطلاحاً باسم Constitutio Antoiniana) يشمل المصريين أو أنهم كانوا ضمن طبقة الـ dediticii ولذلك ظلوا خارج المواطنة الرومانية ، وأن قانون كاراكلا طبق فى مصر على أهل المدن وعواصم النومات (متروبولات) فقط. ورغم استمرار الاختلاف بين العلماء حول هذه المشكلة إلى الآن ، الا أن الدراسات الحديثة المعتمدة على الوثائق البردية بصفة خاصة قد أثبتت أن تطبيق قانون كاراكلا فى مصر كان عاماً شاملا للمصريين جميعاً سواء من أهل المدن أو الريف[3] . (ونكتفى الآن بهذا القدر عن قانون كاراكلا ، وسوف نعود للحديث عنه وعن نتائجه فى مصر فى فصل الإدارة) .

فى عام ٢١٥ زار الإمبراطور كاراكلا مصر ، أى بعد ثلاثة أعوام من صدور قانون المواطنة الرومانية ، ولعله كان ينتظر أن يستقبله الأهالى بالحفاوة

---

(١) P. Gissen, 40

(٢) Gauis, Inst. I, 14. "Vocantur autem peregrini deditícu hi qui quondam adversus populum Romanum grmis susceptis pugnaverunt, deinde victi se dediderunt.

(٣) أشمل دراسة حديثة لموضوع قانون كاراكلا هو كتاب : Christoph Sasse, Die Constitutio Antoniniana (1958). وللتفسير الذى أخذت به فى النص أنظر : E. Bickermann, Das Edict des Kaisars Caracalla in P. Giss. 40 (Berlin, 1926): H. W. Beranio, The Dediditicu of the Constitiutio Antoniniana, in Trans action of the American Philological Association, 85 (1954) pp. 188—196.

والإكبار ، شكراً وتقديراً لقانونه ، ولكن يبدو أن الأسكندريين لم يحتفلوا بهذا القانون ولم يسعدوا بصدوره — كما سنبين فيما بعد، ولذلك سخروا من الإمبراطور الذى شبه نفسه بالإسكندر الأكبر ، وألمحوا فيما أطلقوا عليه من أسماء أنه قاتل أخيه جيتا ، الذى كان شريكه فى الحكم . فلم يحتمل كارا كلا هذه السخرية وانتقم من الأسكندريين شر انتقام ، فاجتمع بهم فى الجمنازيوم وخاطبهم بلهجة قاسية وأمر بأن يجند شبان الجمنازيوم ثم قتلهم: ثم أرسل جيشه فى المدينة بالقتل والسلب والتدمير(١) . كما أمر بإخراج جميع المصريين الذين ازدحموا فى الأسكندرية فارين من قراهم ، حتى يتجنبوا دفع الضرائب أو القيام بالخدمات الإجبارية . ولم يستثن سوى بعض المصريين الذين لهم عمل أساسى فى المدينة (٢) .

* * *

الجزء الأكبر من القرن الثالث بعد ذلك بين كارا كلا ودقلديانوس يعتبر من أعصب فترات التاريخ ، كثرت فيها المحن والمؤامرات والانقسامات السياسية والحروب الأهلية فى معظم أجزاء الإمبراطورية الرومانية . وكان من الطبيعى أن تضعف السلطة المركزية فى روما نتيجة لذلك ، فكثر أدعياء العرش ، كما كثرت محاولات الاستقلال فى الولايات ، قام بها زعماء محليون تارة أو قواد الجيوش الرومانية ذاتها تارة أخرى ولم يشذ تاريخ مصر فى تلك الفترة عن هذه الصورة العامة للإمبراطورية . وسوف نحاول الإيجاز قدر المستطاع فى تناول تاريخ هذه الفترة ، نظراً لأن أى إفاضة فى دراستها ستدخلنا فى تاريخ روما ذاتها وتخرجنا عن حدود موضوعنا وهو مصر فى العصر الرومانى . ولهذا

---

(١) Dio Cassius 77, 22—23; Historia Augusta, Caracalla,6.

(٢) P. Giss, 40

سنقتصر على الإشارة إلى أحداث الإمبراطورية التى شملت مصر ، فتأثرت بها أو أثرت فيها .

فمن بين الأحداث التى ابتدأت بها محنة الصراع من أجل السلطة الخلاف الذى نشأ بين مارقينوس (Marcinus) الذى خلف كارا كلا مباشرة سنة ٢١٧ وإيلاجبالوس (Elagabalus) الذى ادعى أنه ابن كارا كلا ، وانحاز الأسكندريون إلى جانب مارقينوس ضد ابن كارا كلا خصمهم القديم ، بينما اتخذ الجيش جانب إيلاجبالوس ، وتعرضت الأسكندرية نتيجة لذلك لمعركة بين الفريقين قاست المدينة من جرائها أهوالا كثيرة . ويذكر أن مارقينوس عين قائدا لجيش مصر من بين أعضاء السناتو ، مخالفاً بذلك لأول مرة قاعدة وضعها أغسطس منذ حوالى قرنين ونصف قرن [1] . ولكن يجب ألا نبالغ فى أهمية هذه الحادثة ودلالتها ، فإن نظام أغسطس لحكم مصر قد نقض فى أركانه الأساسية بحيث فقد صفاته وملامحه الأصلية ، وخاصة على يدى سيفيروس وكارا كلا .

ومن المحتمل أن الإمبراطور سيفيروس اسكندر زار مصر فى عام ٢٢٨/٢٢٩ وحاول التخفيف عن الولاية بالتنازل عن بعض الضرائب . ولكن أباطرة تلك الأيام كانوا تحت سيطرة الجنود ، وكان سيفيروس اسكندر من هذا النوع من الأباطرة ، ورغم طيب طويته لم يتمكن من أن يمنع الجنود من القضاء على اثنين من خيرة رجال هذا العصر وهما أولبيانوس الفقيه القانونى الشهير ، وديون كاسيوس آخر مؤرخى روما الكبار . وأخيرا راح سيفيروس إسكندر نفسه ضحية مؤامرات الجند وقتل فى عام ٢٣٥ .

وتلاحقت على مصر أخبار الأباطرة وأحياناً تضاربت هذه الأخبار ، دون

---

(١) Dio Cassius. 78. 35.

أن تشترك مصر فى صنع هذه الأخبار ، ولم يزد تأثير هذه الأحداث فى مصر على تغيير اسم الإمبراطور فى كتابة تواريخ الوثائق . وكثيراً ما سقطت أسماء بعض الأباطرة من هذه التواريخ لشدة قصر الفترة التى قضوها على العرش فى روما . حتى إذا كان منتصف القرن الثالث تربع على عرش روما الإمبراطور ديقيوس ، وكان المسيحيون قد بدأوا يظهرون كقوة يحسب لها حساب فى الحياة العامة، فقرر هذا الإمبراطور القيام بحملة شاملة للقضاء على جميع أتباع الدين الجديد قضاء تاما فى الإمبراطورية . وكانت خطته هى أن يفرض على جميع الأهالى أن يعلنوا تمسكهم بعقيدته فى الآلهة القديمة عن طريق العبادة والتضحية لها ، وأن يتم ذلك أمام الموظفين المسئولين ، وعلى كل فرد أن يحصل على شهادة من هؤلاء الموظفين باستيفاء هذا الاختبار ، ومن يرفض القيام بهذا الاختبار كان جزاؤه الموت . وكانت فترة حكم هذا الإمبراطور (٢٤٩ – ٢٥١) محنة كبرى للمسيحيين عموماً ، وقد وجدنا نماذج من هذه الشهادات على بعض البرديات التى ترجع إلى هذا التاريخ[1] .

وقد بلغت الفوضى السياسية والعسكرية فى القرن الثالث أوجها فى الفترة التالية (٢٥٢ — ٢٦٨) حين كثر التطاحن بين أدعياء العرش وانقسم ولاء الجنود واشتد ضعف السلطة المركزية فى روما ، مما أدى إلى إعلان كثير من الولايات استقلالها عن روما ، بما فى ذلك مصر فمن الواضح أن مصر فى سنة ٢٦٠ اعترفت بمرقيانوس وكويتوس الأباطرة فى سوريا ، وكلها بعد ذلك أعلنت الوالى إيمليانوس إمبراطورا بها ، حتى تمكن أحد ممثلى السلطة المركزية فى روما من القضاء على هذه الفتن المحلية ، وألقى القبض على إيمليانوس ورد مصر إلى حظيرة الإمبراطورية الرومانية . ويبدو أن كثيرا من القتلى راحوا ضحية

---

(١) Eusebius, Hist. Eccles VI. 41; Bell. Gults and Creeds, p. 85.

هذه الأحداث حتى لقد قيل إن الأسكندرية فقدت نحوا من ثلثى أهلها [1] .

زينوبيا ملكة تدمر تبسط سلطانها على مصر :

فى أثناء القرون الثلاثة الأولى من الإمبراطورية ازدهرت فى الشرق إمارة تدمر (Palmyra) الواقعة فى الصحراء التى تفصل بين سوريا ودولة بابل . وكان محور نشاطها ومصدر ثروتها الأساسى هو نقل التجارة بين الشرق الأقصى وبابل من ناحية وسواحل سوريا من ناحية أخرى . كما مدت نفوذها التجارى جنوبا ونافست الأسكندرية فى تجارة البحر الأحمر ، ومنذ القرن الثانى كثيرا ما تعاون تجار تدمر مع تجار الأسكندرية فى العمل معاً فى التجارة الشرقية ، ويشهد على ذلك عدد من النقوش التى تثبت وجود تجار تدمريين مستقرين فى مدينة قفط فى صعيد مصر ، ومركز النقل التجارى من البحر الأحمر إلى الأسكندرية [2] .

هـذه الجمهورية التجارية فى الشرق دخلت سلطان الإمبراطورية الرومانية منذ عصر مبكر ، ولعله يرجع إلى زمن الإمبراطور تبيريوس [3] ، ولكنها عوملت معاملة ودية وتمتعت بنوع من الاستقلال الداخلى ، واستطاعت أن تفيد كثيراً من ظروف النشاط التجارى فى الإمبراطورية الذى تزعمته الأسكندرية فى القرنين الأول والثانى ، مما مكنها من أن تلعب دوراً سياسياً إيجابيا فى القرن الثالث . منذ استطاع أحـد حكامها . . أودينات . . Odenathus أن يستخدم ثروة مدينته فى تكوين جيش قوى ساعد به الإمبراطور الرومانى جالينوس (Gallinus) ، حتى أن هذا الإمبراطور عينه قائدا عاما على

(١) Eusebuis, Hist. Eccles. VII. 21.

(٢) A. J. Reinach, Rapport sur Les Fouilles de Coptos. p. 17; C. I. S, II. 3. 3910; O. G. L, S. 639: S E G. VIII. 703

(٣) يذكر جـوجيه أن تدمر أضيفت إلى الإمبراطورية زمن تراجان (Precis de l'Histoire d'Egypte, p 398) ولكن جونز يبين أن ضمها إلى الإمبراطورية كان أقدم من ذلك كثيراً Jones, Cities, 267 and notes.

ولايات الشرق . ولما توفى أودينات خلفه ابنه الطفل « وهب اللات » (Thus) (Vaba:la) الذى سيطرت عليه وعلى الدولة معا والدته الملكة الطموح المعروفة باسم زينوبيا . هذه الملكة لم تقنع بالمركز الممتاز والثراء العريض اللذين كانت تتمتع بهما تدمر وإنما أرادت أن تكون لها إمبراطورية ، وبدأت تبسط سلطانها على الولايات الشرقية ، بما فيها مصر ، فأرسلت إلى مصر جيشاً ضخماً عام ٢٦٩ واحتلتها ، بناء على اتفاق سابق مع بعض الزعماء المحليين المسمى

تيماجينيس (Timagenes) ورغم مقاومة الحامية الرومانية فى مصر وصمودها ضد جيوش زينوبيا فى أكثر من موقع إلا أنها فشلت فى الاحتفاظ بمصر من أيديهم . حتى إذا تولى عرش روما الإمبراطور أورليانوس عام ٢٧٠ ، لجأ إلى أعمال السياسة فى مواجهة الخطر التدمرى فاعترف أولا بوهب اللات ابن زينوبيا شريكا له فى الحكم ، وصدرت العملة فى الأسكندرية تحمل صورة الإمبراطورين على الوجهين . ولكن بعد مرور عام واحد رفض وهب اللات الاستمرار فى هذا الحكم المشترك وقرر الاستقلال وأعلن نفسه امبراطورا ، مما أدى إلى قيام الحرب بين روما وتدمر . وصدرت العملة فى الأسكندرية تحمل صورة وهب اللات وزينوبيا فقط ، مما يكشف عن مدى نفوذ هذه الملكة فى توجيه السياسة فى تلك الأيام . على أى حال فى الحرب التى نشبت بين تدمر وروما ، هاجم الإمبراطور بنفسه من الشمال فى آسيا الصغرى ، بينما أرسل القائد بروبوس (Probus) إلى مصر ، وسرعان ماسقطت مصر فى أيدى الرومان من جديد فى عام ٢٧١ . ورغم انتصار الإمبراطور أورليانوس على تدمر أيضاً وأخذه زينوبيا أسيرة فى موكب نصره إلى روما ، فإن قياد هذه الولايات الشرقية لم يسلس له تماما ، وسرعان ما قامت ثورة فى كل من تدمر والأسكندرية عام ٢٧٢ . وكان قائد الثورة فى الأسكندرية أحد كبار تجارها يسمى فرموس (Firmus) ، الذى يقال إنه جمع ثروة طائلة من تجارة البردى

والصمغ العربى ، واستطاع أن يجمع جيشاً من ماله الخاص . إن قيام تاجر مثل فيرموس بثورة الأسكندرية يوحى بأنه كان على علاقة مع ثوار تدمر أيضاً . أمام هاتين الثورتين فى وقت واحد ، اتجه الامبراطور أوريليانوس إلى تدمر أولا ، وقضى على الثورة هناك ، ثم تحول إلى مصر حيث انتصر على فيرموس وحاصر الثوار فى حى البروخيون فى الأسكندرية ؛ حتى اضطروا إلى التسليم ولكن بعد أن دمر هذا الحى تماما وكان مركزا لأهم مبانى المدينة (1) .

بعد ذلك غادر أدريليانوس مصر وتركهـا فى أيدى قائده بروبوس (Probus) لإخضاع قبائل البليمى فى الجنوب ، الذين استغلوا فرصة الثورات المتتالية وتوغلوا فى مصر الجنوبية . وبينما كان بروبوس يعمل على إخضاع مصر العليا توفى أوريليانوس ، فانتهز الجيش فى مصر هذه الفرصة وأعلنوا قائدهم إمبراطوراً . وقد استطاع بروبوس أن يفرض نفسه على الإمبراطورية بأسرها وأن يبقى فى الحكم مدة خمسة أعوام (٢٨٦ — ٢٨٢) ، قضاها فى نشاط جم فى حروب ومواقع مستمرة على حدود الإمبراطورية المختلفة . ولكنه قتل فى عام ٢٨٢ بواسطة الجنود ، الذين قتلوا ثلاثة من الأباطرة أيضاً فى العامين التاليين حتى تولى عرش الإمبراطورية دقلديانوس الذى سيتولى مهمة بناء الإمبراطورية من جديد على أسس جديدة تعتبر فاتحة طور جديد من أطوار الإمبراطورية الرومانية .

---

(١) عن مصادر هذه الفترة أنظر :
Jouguet, Precis de l'Hist. d'Egypte, I. p. 404.
Historia Augusta, Firmus. وأهم مصدر عن فيرموس وثورته

الفصل السابع

معالم النظم والحضارة في مصر في العصر الروماني

تكوين المجتمع

يذكر المؤرخ چوزيفوس فى نهاية القرن الأول أن عدد سكان مصر — باستثناء سكان الأسكندرية — كان سبعة ملايين ونصف مليون[1]. فإذا قدرنا للأسكندرية نصف مليون من السكان[2]، أصبح المجموع ثمانية ملايين نسمة تقريباً. وهو رقم تقريبي ويجب أن نكون على حذر من تطبيقه على مصر فى جميع عصورها القديمة، فنحن نعرف مايصيب السكان من الزيادة والنقصان حسب ظروف الرخاء أو ظروف الأوبئة والقحط والحروب. أما من حيث تكوين هذه الملايين الثمانية، فهى لم تختلف كثيراً عن تكوينها فى عصر الأسرة البطلمية، فلا زالوا غالبية من المصريين وأقليات متفاوتة الحجم من الإغريق واليهود وجماعات مختلفة من السوريين والفينيقيين والليبيين وغيرهم. ولكن أهم تغير طرأ على المجتمع المصرى هو وجود عنصر جديد هام، وهم المواطنون الرومان الذين جاءوا مع الحكم الجديد سواء ممن جاءوا للعمل كموظفين فى إدارة الولاية أو جنود فى الجيش الرومانى، أو من رجال الأعمال والتجار. وكثير

---

(١) Josephus, Bell. Jud, II. 16 4.

(٢) يذكر ديودور الصقلى (XVII. 52. 6.) أن عدد الرجال الأحرار فى الأسكندرية فى عام ٦٠ ق. م. يزيد على ٣٠٠٠٠٠ رجل. فاذا أضفنا إلى هؤلاء النساء والأطفال والعبيد. فان اقتراح نصف مليون سكان الأسكندرية — فى المتوسط — يكون رقما محافظا لا مبالغة فيه.

من هؤلاء استقر فى مصر وكونوا بمرور الزمن جالية رومانية وجدت فى مناطق مختلفة من مصر بعد ذلك .

ومن وجهة النظر القانونية الرومانية قسم سكان مصر إلى قسمين أساسيين رومان ومصريين ، ثم اعتبر الأسكندريون طبقة ممتازة من المصريين أحيطت بكثير من الامتيازات الخاصة . ومن ثم أصبح لفظ المصريين يطلق اصطلاحا على جميع سكان مصر عدا الأسكندريين ، من إغريق ويهود ومصريين وغيرهم(١) . ومقياس هذا التقسيم هو ضريبة الرأس Laographia التى فرضت على المصريين، ولهذا فهى لا تقع على المواطنين الرومان فى مصر، أما الأسكندريون فقد «أعفوا» منها(٢) ، أما سائر السكان فكانوا يدفعون ضريبة الرأس . ومع ذلك فقد حرص الرومان على إبقاء المجتمع المصرى مقسما تقسيما طبقياً . فميز بين فئات « المصريين » فى المعاملة ، فتفاوت مقدار ضريبة الرأس بالنسبة للعناصر الإغريقية أو المتأخرة من سكان عواصم القومات (المتربوليين Metropolites) وبالنسبة للمصريين الفلاحين من أهل القرى والريف(٣) .

ولنبدأ بالحديث عن الطبقة الجديدة فى المجتمع المصرى وهى طبقة الرومان ، أرقى طبقة فى مصر فى ذلك الوقت وتمتعت بأكبر قدر من الامتيازات . من حيث تكوينها ، نجدها تتكون أساساً من الموظفين الرومان الذين عينهم الإمبراطور فى المناصب الكبرى بالإدارة المصرية ، ومن رجال الأعمال الرومان

---

(١) E. Bickermann, in Archiv of Papyrsforsching, (1927) p. 239; (1428) pp. 40 ff.

(٢) أشير إلى هذا الاعتقاد أكثر من مرة فى المصادر القديمة = P. S. I. 1160 Musurillo, No. 1; and No. IV, col, ii, 25—30; Dio Cassius, 66, 8. 5; cf Wallace, Taxation, pp. 118 ff. (بشأن الضريبة التى فرضها فسبسيان عليهم) .

(٣) Wallace, Taxation, pp. 121 ff.

الذين حضروا إلى مصر من أجل عقد صفقات تجـارية فى الأسكندرية ، ومن جنود الحامية الرومانية . ومامن شك أن الحامية الرومانية كانت أهم مصـدر لإحضار الأجانب إلى مصر ، ذلك أنها كانت تضم أصلا أفراداً من جميع أنحاء الإمبراطورية فى أعداد كبيرة . وعند تسريحهم كانوا يمنحون الجنسية الرومانية ، وكثيراً ما آثروا البقاء فى مصر بعد ذلك لأسباب مختلفة . ولـكى نعرف مقدار ما أسهم به الجيش الرومانى فى تكوين الطبقة الجديدة يجب أن نذكر أولا أن عدد ذلك الجيش فى عصر الإمبراطور أغسطس كان ٢٢٫٨٠٠ ، جندى ، ثم خفض إلى ١٦٫٧٠٠ جندى فى عصر الإمبراطور تيبريوس ، ثم خفض أخيراً فى القرن الثانى إلى ١١٫١٠٠ جنـدى [١] . ورغم أن الجيش الرومانى كان يسمح لمواطنى المدن اليونانية فى مصر بالانخراط فى سلـكه ، إلا أن العدد الأكبر من أفراده كان يؤخذ عادة من مواطن الولايات الرومانية الأخرى ، وخاصـة فى أثناء المائة وخمسين عاماً الأولى من الحـكم الرومانى ، وبعد ذلك ازداد عدد من الجند محلياً فى مصر حتى أصبحوا الغالبية فى جيش مصر البيزنطية [٢] .

ولم يبق جنود الحامية الرومانية معزولين عن الأهالى داخل معسكراتهم ، لا يظهرون أمام الناس إلا وقت الثورات والمحن . بل على العكس من ذلك ، فإن ثورات المصريين فى ذلك الوقت كانت فى معظم الأحيان فى فترات متباعدة

---

(١) J. Lesquier, L'Armèe Romaine d'Egypte, esp. pp. 101—114

(٢) المصادر الأساسية الخاصة بالجيش الرومانى فى مصر هى: C. I. L. III.6627 (Early first century); Musè d'Alexandrie, Ino. No. 2577, (157 A. D.). ed by Abdullatif Aly, in Annals of the Faculty of arts, Ain Shams University, (1955) pp. 113—146; C. I. L. III. 5680 (194 A. D.). وتوجد إشارة إلى كثير من المعلومات الجزئية الأخرى الواردة فى البردى والنقوش فى كتاب: G. Forni : Il Reclutamento delle Legioni de Augusto a Dio Clezisno (1953) iu Appenidice, B. Tab. 1. p. 167, Tab III, p. 185. Tab IV, p. 204. and p. 95.

وكثيراً ماطالت فترات الهدوء والاستقرار . فكان من الطبيعى أن يبحث الجنود لأنفسهم عن مجالات أخرى لنشاطهم ، خاصة وأن فترة الجندية فى الجيش الرومانى كانت تمتد عادة إلى خمسة وعشرين عاماً ، وهى سنوات شباب ونضج الإنسان . ولذلك لم يكن مستغرباً أن يخرج من معسكراتهم وأن يتصلوا بالأهالى فى مختلف وجوه الحياة اجتماعياً واقتصاديا ، رغم مخالفة ذلك لقوانين الجيش الرومانى . فمن الناحية القانونية مثلا ، كان محظوراً على الجندى أن يتزوج طوال مدة خدمته العسكرية ، ولكن فى الواقع كثيراً ما أنشأ الجنود علاقات خاصة مع النساء من أهل البلد وخاصة فى الأسكندرية ، وأنجبوا منهم أطفالا غير شرعيين. وكان من المستحيل أن تقف السلطات الرومانية فى مصر من هذه الحالات موقفا متزمتاً ، وإنما أغمضت أعينها عما كان جاريا ، وعند تسريح الجنود كان يعترف بزواجهم (Epigamia) الذى تم بصورة غير قانونية أثناء الخدمة، وكان الجنود وزوجاتهم وأبناؤهم يمنحون المواطنة الرومانية [١] .

وتبين لنا أوراق البردى كيف كان هؤلاء الجنود يعقدون هذه الزيجات أثناء الخدمة العسكرية . ففى إحدى البرديات نجد خطابا موجها من شخص فى الأسكندرية إلى والده يذكر فيه أن جنديا قد طلب الزواج من أخته وهو يستشير والده فى الأمر [٢] . ولكن مادام مثل هذا الزواج معتبراً غير قانونى فإن عقد زواج حقيقى لا يمكن تسجيله . ولذلك لجأ الطرفان إلى حيلة قانونية بجعل الاتفاق بين الجندى والمرأة فى صورة عقد يكفل للزوجة ضماناً كافياً ،

---

(١) كان يتم ذلك على الأقل بالنسبة للوحدات المعروفة باسم auxilia وخير مثال على لك هو البردية المشهورة

B, G. U. 113 (140 A. D.) = Wiicken, Chrest. No. 458.

نأن زواج الجنود أنظر : Lesquier, L'armèe Romaine. pp. 263—279.

G. L. Chessman, The Auxilia of the Roman Arm , (1914) pp 119 ff.

(٢) P. S. I., VIII, 967 (1st or 2nd Century A. D.)

وذلك عن طريق اعتبار «المهر» ـ الذى كانت تقدمه الزوجة عادة عند زواجها ـ بمثابة وديعة لدى الزوج، ووقع الطرفان عقد وديعة . وقد وصلتنا على أوراق البردى إحدى هذه العقود الذى تم بين جندى فى الجيش الرومانى يسمى جايوس يوليوس أبوليناريوس وامرأة تسمى بترونيا . وفى هذا العقد يعترف الجندى أنه استلم من بترونيا ملابس نسائية قيمتها ثلاثمائة دراخمة إلى جانب حلى من الذهب « المشغول » [1] . ورغم أن جميع الشروط الواردة فى هذا العقد تشبه تماماً شروط عقد الوديعة ، إلا أن الأشياء المودعة تكشف وجه التحايل على القانون، إذ من المستبعد والمستغرب أن تودع امرأة ملابس نسائية لدى جندى يقيم داخل معسكراته . خاصة وأن هذه الأشياء المودعة هى نفس الأشياء التى يرد ذكرها عادة فى وصف مهر المرأة فى عقود الزواج العادية [2] .

ويبدو أن مثل هذا الزواج عُمِّر وتكونت منه أسرات لها أبناء وعبيد أيضاً ، ولدينا أدلة كثيرة تثبت أن هؤلاء الجنود كانوا يرعون أبناءهم من زوجاتهم غير الشرعيات رعاية جميع الآباء لأبنائهم . فى عدد من الوثائق البردية نجد جنوداً يتعاقدون مع مرضعات لأطفالهم وأطفال عبيدهم أيضاً [3] . كما أن أبناء هؤلاء الجنود كانوا يجندون عادة فى فرق الحامية الرومانيـــة ، وكان يذكر رسمياً أمام أسمائهم أنهم من مواليد المعسكرات (Kastresios) باليونانيـــة و ex castris باللاتينية) [4] .

لم يقتصر نشاط جنود الجيش الرومانى فى مصر على الزواج وتكوين

---

(١) B. G. U. III. 729 (144 A. D.)

(٢) مثل B. G. U. IV. 1050—2 (Augustan Age).

(٣) B. G. U. IV. Nos 1105 ; 1107 ; 1107 ; 1108 ; 1109 (Augustan age).

(٤) أنظر مثلا : C. I. L, III. 6627; and 5680 ؛ والجداول الواردة فى نهاية كتاب : Forni, II Recrutamento, Appendice B.

الأسر ؛ بل كثيراً ما نقابلهم فى وثائقنا فى مجالات مختلفة من النشاط المــــالى والاقتصادى ، وخاصة كملاك للأراضى[1] وممولين ، بقروض المال نظير فوائد مجزية . وهى تجارة مربحة مارسها كثير من الأثرياء فى مصر الرومانية[2] .

يتضح من هذا العرض أن جنود الحامية الرومانية فى مصر لم يهبوا الحياة العسكرية كل وقتهم ، وأنهم بالتدريج امتزجوا بالحياة فى البيئة حولهم اجتماعياً واقتصادياً . ولعل الواجب العسكرى لم يحتل المكان الأول من اهتمامهم ويبدو أن هذه الحال لم تكن قاصرة على الجيش الرومانى فى مصر ، فإن ظروف السلام والاستقرار النسبى التى سادت الجزء الأكبر من تاريخ الإمبراطورية فى القرنين الأولين شجعت الجنود الرومان فى الولايات المختلفة على الانغماس فى أوجه النشاط السلمى فى البيئات التى وجدوا بها[3] ولعل خير ما يصور هــذه الحقيقة هو الوصف الذى يورده المؤرخ تاكيتوس لجنود الحامية الرومانية فى سوريا فى عصر الإمبراطور نيرون ، عندما عهد إلى كوربولا (Corbula) أن يقودهم ضد البارثيين : « فقد وجد خمول جنوده أشد خطراً عليه من مكيدة أعدائه ؛ إذ أن جيشه كان يتكون من فرق أتت من سوريا ؛ كسالى من جراء

---

(١) الاعتقاد السائد أن أغسطس منح إقطاعات عسكرية Colonia للجنود الرومان فى مصر . أنظر : Lesquier, L'Armée romaine. p. 328; Rostovtzeff. Soc. & Ec. Hist. of the Roman Empire, 2ad ed; p. 287, وقد ورد ذكر الإقطاعات العسكرية Kolonia فى بعض الوثائق البردية مثل : P. Giss. 60. Col iii, 6 (119 A. D.); Wilcken, Chrest. 461, 26 (beginning of 3nd. cent. A. D); of also P. Ryl.II. 202 (late 1st cent. A.D.) and the remarks of Rostovtzeff. op. cit, vol. II, p. 669, note44

(٢) P. Hamb. No. 1(57 A.D.); P, Lond. II. 142. p.203 (65A.D.) B, G. U. III, 741 (193—4 A. D); p. Found, 45 (153 A.D

(٣) ففى شمال إفريقيا مثلا نجد أن نحواً من نصف الجنديين للفرقة الرومانية Legio III. Augusta يذكرون أنهم من مواليد المعسكرات : C. I. L. VIII 18067 (Castris)

السلام الذى استمر طويلا ، لا يكادون يحتملون حياة المعسكرات . وكان من بين هذا الجيش أيضاً جنود لم يقوموا بالحراسة أو الملاحظة ، فكانوا ينظرون إلى الأسوار والخنادق على أنها نوع من غرائب الوجود . ليس لديهم خوذات أو دروع ، وإنما هم رجال أعمال مترهلون قضوا خدمتهم العسكرية داخل المدن (١).

هذه كلمة مختصرة عن أفراد الجيش الرومانى كعنصر من عناصر المجتمع المصرى أثرت فيه وتأثرت به ثم اندمجت فى صفوفه آخر الأمر . لأن هؤلاء الجنود ، بعد أن ارتبطوا بالبيئة المصرية اجتماعيا عن طريق الزواج واقتصادياً عن طريق ملكية الأرض والمعاملات المالية الأخرى ، لم يغادروا مصر بعد أن قضوا بها مدة خمسة وعشرين عاما تحت اسم الخدمة العسكرية ، واستقروا بالبلاد نهائياً أصبحوا الأساس الذى تكونت منه الجالية الرومانية فى مصر . ويمكن أن نضيف إليهم ، كما سبق أن ذكرنا بعض الموظفين الذين حضروا من روما للعمل فى إدارة الولاية ، وكذلك بعض من حضروا من أجل الاستفادة من عمليات التبادل التجارى . ولكن هؤلاء كانوا قلة بالنسبة لأعداد الجنود الذين استقروا فى مصر . على أن الجالية الرومانية لم تبق قاصرة على هؤلاء ، وإنما انضم إليهم عدد كبير من أبناء الطبقات الممتازة فى مصر الذين سمح لهم بالخدمة العسكرية فى الجيش الرومانى واكتسبوا الجنسية الرومانية عن هذا الطريق ، وكذلك عدد من طبقة الأسكندريين الأرستقراطية الذين استطاعوا الحصول على المواطنة الرومانية . وقد زاد عدد الجالية الرومانية فى مصر كثيراً من هذا السبيل فوجدنا كثيراً من الرومان يحملون أسماء مختلفة ، الجزء الأول عن الاسم ـ رومانى ـ وهو عادة اسم الإمبراطور الذى اكتسب المواطن فى عهده المواطنة الرومانية ـ والجزء الأخير من الاسم يونانى ، مما يكشف عن أصله من بين

(١) Tacitus, Annales, XIII. 35.

صفوف الإغريق فى مصر وخاصة من مواطنى الأسكندرية[1] .

هؤلاء المواطنون الرومان - مهما كان أصلهم والطريقة التى حصلوا بها على المواطنة الرومانية - كانوا يمثلون الطبقة العليـــا فى مجتمع مصر الرومانية . فـكان يختار منهم كبار موظفى الإدارة ، كما كانوا يتمتعون بامتيازات كثيرة مثل الإعفاء من بعض الضرائب أو دفع ضرائب مخفضة ، والإعفاء من القيام بالخدمة الإجبارية وتولى الوظائف المحلية - فى بداية العصر الرومانى عــلى الاقل[2]. وحيثما وجد الرومان فى مصر فى أعدادا كبيرة كونوا لأنفسهم رابطة تجمعهم (Conventus Civium Romanorum) ، وساهموا كمجموعة مستقلة فى حياة المدينة أو البلدة التى هم بها . ومن ذلك ما تـكشف عنه بردية من (البهنسا) فى صعيد مصر ، إذ تتحدث عن اجتماع عام لأهل مدينة أو كسيرنخوس (البهنسا) ، وتذكر أنه اشترك فى هذا الاجتماع موظفو المدينة وشعبها والمواطنون الرومان والأسكندريون المستقرون بها[3] .

وقد بقى المواطنون الرومان فى مصر متمتعين بهذا الوضع الممتاز حتى بداية القرن الثالث عندما صدر قانون كارا كلا بمنح المواطنة الرومانية لجميع سكان الإمبراطورية .

* * *

إذا ما نظرنا إلى عناصر المجتمع الأخرى التى كانت موجودة من قبل ،

---

(١) مثل أسماء Sabina Apollonarion, Marcus Antonius Heliodorus, and Marcus Antonius Aper, in P.S.I. No. 1325 (176—180 A.D)

(٢) المصادر الخاصة بهذه الامتيازات هى: B.G.U. 180 (172 A,D) Wilcken Chrest 396. Wilcken Chrest 463, i, 10—20 (87—9) أنظر كذلك : Wilcken, Grundz, p 339 ff.; Oertel, Liturgie, p. 387 ff. Johnson, Roman Egypt, p. 609 ff.

(٣) P, Ox. III. 73 (138—160 A.D.) = Wilcken, Chrest, No. 33

نجد على قمة الهرم الطبقى المصرى طبقة الأسكندريين ، وقد بقيت محتلة هذه المكانة أيضا وتلى الرومان مباشرة . فجريا على عادة الرومان فى حكم الولايات من اصطناع أقلية أرستقراطية فى الولاية ، يمنحونها امتيازات خاصة ، لذلك فعلوا فى مصر وحافظوا على وضع الأسكندريين الممتاز . بل يمكن أن يقال إن الوضع القانونى لمواطنى الأسكندرية اكتسب أهمية خاصة فى العصر الرومانى فعدا بعض الامتيازات التى تمتعوا بها مثل الإعفاء من ضريبة الرأس التى فرضت على جميع المصريين ، وحق الالتحاق بالجيش الرومانى جعل للرومان حق اكتساب المواطنة الرومانية مباشرة (وليس عن طريق الخدمة العسكرية) قاصرا على الأسكندريين ، بحيث أن أى مصرى آخر كان عليه أن ينال مواطنة الأسكندرية أولا حتى يسمح له باكتساب المواطنة الرومانية [١] . وقد انعكس هذا الوضع الممتاز للأسكندريين بالنسبة لسائر سكان مصر فى لغة الوثائق الرسمية الخاصة بالضرائب وقوائم أصحاب الأملاك فنجد هذه الوثائق فى بداية العصر الرومانى تقسم الملاك إلى فئتين هما « الأسكندريين» و « المحليين » [٢] (والمقصود بالفئة الأخيرة هم سائر الملاك من أهل المنطقة التى بها الأرض) . هذه المقابلة بين الأسكندريين وسائر الأهالى فى وثائق الضرائب تبين قوة الإسكندريين كطبقة اقتصادية ؛ وفى الواقع بسبب تحكمهم فى وسائل الإثراء عن طريق التجارة العالمية أصبحوا أثرى طبقة فى مصر وأكبر ملاك للأراضى .

ولكن الأسكندريين لم يقنعوا بكل هذه الامتيازات ، ولعلهم كانوا يضيقون بوجود طبقة أخرى أرق منهم رسمياً داخل البلاد وهى طبقة المواطنين

---

(١) Pliny, Epist. X. 6—7

(١) P. Lond. II. 192, p. 222, l. 82 ff Augustus or Tiberius; and in the edict of the Prefect Tiberius Julius Alexander, O. G. I. S. II. 669 = S B. V, No, 8444.

الرومان ؛ فعملوا على الدخول فى دائرة المواطنين على أوسع نطاق ممكن . وقد تمكنوا من تحقيق ذلك بفضل بعض الامتيازات القانونية التى منحت لهم ، أولا عن طريق السماح لهم بالالتحاق بالجيش الرومانى . وثانيـــا بجعل حق اكتساب المواطنة الرومانية مباشرة قاصراً عليهم فى مصر . وسرعان ما أصبح عدد كبير من المواطنين الرومان فى مصر أسكندريين أصلا . وإذا بهذا التطور ينعكس أيضا فى لغة الوثائق الرسمية ، وأصبحت قوائم الضرائب تقسم أصحاب الأراضى إلى فئتين ، هما « فئة الرومان والأسكندريين » و « فئة المحليين » . ظهر هذا الربط بين الرومان والأسكندريين فى الوثائق لأول مرة بعد منتصف القرن الأول بقليل ، واستمر استخدامه خلال القرن الثانى ، مما يبين أن الرومان والأسكندريين كانوا فى نظر الإدارة المركزية يكونون طبقة اقتصادية واحدة (١). ويوضح ظاهرة هذا الترابط الطبقى ويؤكد وضعهم الممتاز وثيقة بردية ترجع إلى عام ١٣٩ وتحتوى على خطاب من إستراتيجوس قفط إلى الوالى ، ويشكو إليه أن المواطنين الرومان والأسكندريين والجنود القدماء المستقرين فى نوموس قفط والمكلفين بجمع الضرائب قد عصوا أوامره ، ويدعون أنهم لا يخضعون لسلطان الإستراتيجوس مثـل جامعى الضرائب المحليـين (enchorioi) ومن الغريب أن رد الوالى على هذا الخطاب يأتى مؤيداً لموقف الرومان والأسكندريين والجنود القدماء ؛ إذ يأمر الوالى بأن يرفع الإستراتيجوس هذه المسألة إلى موظف أرقى منه مرتبة وهو الإبيستراتيجوس (epistrategos) ، الذى كان من اختصاصه الإشراف على عدد من النومات معا (٢) . هـذه الوثيقة الهامة توضح مدى ما تمتعوا به من امتيازات إلى درجة عدم خضوعهم للموظفين المحليين .

---

(١) P, Merton, II. 63, 7 ff. (58 A. D.): Stud Pal. p. 62 ff., i, 331 f. (72—3 A. D.); B. G. U. IX. 1894 (158 A. D.)

(٢) B. G. U. III. 747 (129 A. D.)

غير أن الإصلاحات التى تمت فى خلال القرن الثالث من نشر نظام الحكم المحلى فى النومات ومنح المواطنة الرومانية للجميع فى أول هذا القرن ثم إلغاء امتيازات الأقليات وتطبيق اللامركزية تطبيقاً مطلقاً على يد دقلديانوس فى نهاية القرن نفسه ، قضى امتيازات الأسكندريين والرومان معا ، إذ أصبح الجميع مواطنين رومانا ، يدفعون الضرائب على قدر سواء ويتحملون نصيبهم كاملا فى الحكم المحلى ، كل حسب قدرته المالية .

* * *

عدا الرومان والأسكندريين يأتى سائر السكان الذين كانوا اصطلاحا يسمون « مصريين » (١) . وليس معنى هذا أنهم جميعاً كانوا يكونون طبقة واحدة ، فقد كانوا ينقسمون بدورهم إلى طبقات وفئات مختلفة المنزلة والمكانة. ولكن الصفة المميزة لهم جميعا هى خضوعهم لضريبة الرأس ، ومع ذلك لم يعاملوا كلهم بخصوص هذه الضريبة معاملة سواء . فوجدنا الفئات الأكثر رقياً وأكثر ثراء مثل الإغريق والمتأغرقين من أهل المتربولات يدفعون ضريبة الرأس مخفضة الى اثنى عشر دراخمة أو ثمانية عشر دراخمة ، حسب منزلتهم الاجتماعية . أما الغالبية الكبرى من فقراء الفلاحين المصريين فكانوا يدفعون الضريبة كاملة وهى أربعون دراخمة (٢) .

وقد حرص الرومان منذ البداية على هذا التقسيم الاجتماعى والتفرقة الطبقية (٣) . فظهرت فى مناطق مختلفة جماعات عرفت باسم الهيلينيين وخاصة

---

(١) يتضح هذا التقسيم بين أسكندريين ومصريين أيضا فى P. Columbia, 123 التى نشرت فى Apokrimata, Decisions of Septimius severus on Legal Matters, ed by W. L. Westermann and A. A. Schiller, New-York, (1954).

(٢) Wallace, Taxation, pp.

(٣) خير وثيقة تظهر هذه الحالة هى مذكرة القوانين المالية للايديوس لوجوس B.G.U.V.I وتوجد ترجمة إنجليزية لهذه البردية فى كتاب : Johnaux, Roman Egypt. No. 444

فى الدلتا والفيوم ، وكان أرقى مظهر لهم جماعة مواطنى مدينة أنتينوبوليس التى أنشأها هادريان ، وكانوا يسمون « بالهيلينيين الجدد » [1] . وقد كان هادريان شديد العطف على مدينته الجديدة ومنح مواطنيها كثيرا من الامتيازات ، كما سبق أن ذكرنا فى حديثنا عن هادريان ومن هذه الامتيازات أنه أعفى مواطنى هذه المدينة من القيام بتولى الوظائف خارج مدينتهم [2] ، ومن المحتمل أنهم أعفوا أيضا من ضريبة الرأس ولو أننا لا نملك نصاً صريحاً فى هذا الصدد .

ووجد فى كل نوموس بعد ذلك طبقة ممتازة من أهل عاصمتها المتروبوليس ، وعرفوا باسم المتروبوليين (metropolitai)، وكان الطابع الغالب على هؤلاء هو الطابع الإغريقى سواء فى اللغة أو أسلوب الحياة ، رغم أن كثيرين منهم كانوا مصريين متأغرقين [3] . ويبدو أنه وجدت بين هؤلاء المتروبوليين طبقة ضيقة ممتازة تعرف باسم أبنـاء الجمنازيوم (apo tou gymnasiom) [4] وهم المواطنون الذين تعلموا وتخرجوا فى معهد المدينة . وكان أبناء الجمنازيوم يكونون ما يشبه بطبقة أرستقراطية محلية فى الريف وكان منهم موظفو الحكم المحلى .

أما خارج المتروبوليس وجد ملايين الفلاحين وصغار المزارعين من المصريين المنتشرين فى القرى والكفور . وكانوا أكثر الطبقات فقراً وأكثرها أعباءاً ، يدفعون ضريبة الرأس كاملة (أربعين دراخمة) ، ويؤدون جميع الضرائب الأخرى ، كما كانوا يخضعون لأعمال السخرة ، مثل بناء الجسور وترميمها وشق الترع وحفر المصارف ، إلى غير ذلك من أعمال الحراسة والنقل .

---

(١) ورد ذكر الهيلينيين فى الدلتا وطيبة وأنتينوبولس فى O, G .I. S. 709 وفى الفيوم (أرسنوى) P. M. Meyer, Jun. Pap., No. 48; and P. Tebt. II. 566 (131—2 A. D.).

(٢) B. G. U. IV. 1022 (196 A. D) = Wildeem, Cluest. 29.

(٣) أنظر : Bickerman, in Archiv fiir Papyrusforschuns (1928) p, 356.;

(٤) Ibid. p. 376.

وقد استمر هؤلاء المصريون على أسلوب حياتهم القديمة التى ألفوها منذ آلاف السنين . يتحدثون اللغة المصرية الشعبية ، (التى وصلت إلينا فى حروفها الديموطيقية) ويعبدون الآلهة المصرية القديمة ، ويقومون بالواجبات نفسها نحو الأرض ونحو سادة الأرض . ولكن لما اشتدت وطأة الحكم الرومانى على البلاد وكثرت أعباء التزامات طبقة الفلاحين وصغار المزارعين مع تأخر الأحوال الاقتصادية ، ضاق أفراد هذه الطبقة بالحال ولجأوا إلى الفرار من أراضيهم ، باحثين عن مخبأ فى مستنقعات الدلتا الشمالية وأحراشها ، أو ملجأ فى مدينة كبيرة مثل الأسكندرية حيث يمكنهم الاختفاء فى زحمة سكانها وربما وجدوا بها عملا يقيمون به أودهم(١) . وليس أدل على خطورة الفرار من الوطن الأصلى على هـذا النحو من الثورة المعروفة باسم ثورة الرعاة عام ١٧٢ فى عهد الإمبراطور ماركوس أورليوس . وكان السبب الرئيسى للفرار من الأرض هو شدة وطأة الضرائب التى عجز كثير من الزراع عن دفعها ، وخشوا وحشية معاملة جامعى الضرائب فآثروا الفرار دون أن يخبروا أحدا . ولكن جامعى الضرائب كانوا يذيقون أهل المزارعين الفارين أسوأ أنواع العذاب ليعرفوا منهم مكان مخبإهم أو ليأخذوا منهم الضريبة . وقد وصلتنا بردية من القرن الثانى تحتوى على خطاب من صبى علم باعتزام والده الفرار سرا ، فكتب إلى أحد أقاربه يطلب منه أن يحصل له من والده على مبلغ من المال يمكنه هو أيضا من الفرار إلى الأسكندرية خشية أن يقتص موظفو الإدارة منه بعد اختفاء والده(٢) .

---

(١) P. Princ. 1, 9; III, 8, 16 (31 A. D,); and 14, III, 20, V, 21 (23—40 A. D.); P. Graux, nos. 1 (45 A. D.); 2 (55—9 A D.); and 3 (51 A. D.); P. Uppsala, 7 (163 A. D.)

(٢) P. Philadelphie. No. 33 (2nd cent. A. D.)

وقـد عرض المؤلف لهذه البردية فى الفصل الذى كتبه عن « الأسكندرية فى العصر الرومانى » فى كتاب « تاريخ الأسكندرية منذ أقدم العصور » الذى قامت بنشره محافظة الأسكندرية (١٩٦٣) ص ٨١ .

ويبدو أن حالات الفرار هـذه نت كثيرة ومتكررة بحيث أنها كانت تصيب الحياة فى الريف بضرر شديد لقلة الأيدى العاملة ، بقدر ما كانت تفسد الحياة فى المدن الكبرى حين تكتظ بالمتعطلين . ولهذا وجدنا الولاة يصدرون بيانات خاصة بهذا الشأن ، يطلبون فيه من كل شخص أن يعود إلى موطنه وعمله الأصلى . وقد وصلنا بيانان من العصر الرومانى بهـذا الشأن ، الأول أصدره الوالى ڤيبيوس ماكسيموس عام ١٠٤ ، يعلن فيه أنه بمناسبة الإعداد لإجراء إحصاء عام للسكان يجب على كل من ترك موطنه لأى سبب من الأسباب أن يعود ثانية وأن يستأنف عمله فى زراعة الأرض . ومع ذلك يتضمن البيان إستثناء واحدا بشأن الذين تحتاج مدينة الأسكندرية إلى عملهم ، وهؤلاء كانوا معروفين ومسجلين لدى السلطات الرسمية(١) . أما البيان الثانى فهو بيان الإمبراطور كاراكلا الذى أصدره عند زيارته لمصر سنة ٢١٥ ، وصاحبها اضطرابات عنيفة فى الأسكندرية ، أدت إلى قتل الكثيرين من أهلها . وسواء أكان اصدور هذا البيان علاقة باضطرابات الأسكندرية أو أنه محاولة لإقرار الناس على موطنهم الأصلى ولإنعاش الريف ، وخاصة بعد تصميم المواطنة الرومانية وإلغاء التفرقة بين فئات المجتمع المختلفة من الناحية القانونية ، فقد أمر كاراكلا بأن يطرد من الأسكندرية المصريين ، واستثنى من ذلك فئات معينة ، مثل تجار الخنزير ، ورجال القوارب النيلية وجالبو الحطب لوقود الحمامات . ولعل هذه هى الفئات التى استثناها بيان ماكسيموس السابق ، لأن الوقود واللحوم (ومن بينها وأهمها للمدينة لحم الخنزير) كان المواد الأساسية التى كانت تجلب إلى الأسكندرية من داخل البلاد ؛ ورجال القوارب هم الذين يقومون بالمواصلات بشتى صنوفها بين الريف والعاصمة . ويتعلق هذا البيان

---

(١) لدينا من العصر البطلمى العفو العام الذى أصدره الملك يوارجتيس الثانى .

(٢) P. London, 904 (104 A D.) = Wilcken, Chrest. 202.

بطبيعة الحال بالمصريين الذين لم يكن مقرهم الأصلى الأسكندرية ، أى المصريون الغرباء بها ، الفارين من الريف لسبب أو لآخر . فقد كان من بين سكان الأسكندرية الأصليين كثير من المصريين ، وهؤلاء لا يشملهم قرار الطرد . وينبه إلى ذلك الجزء الأخير من البيان حيث يقول : من اليسير التمييز بين عمال النسيج المصريين (من أهل المدينة) وبين الفلاحين المصريين (الفارين من الريف) عن طريق لغتهم ومظهرهم وعاداتهم[١] . وهو يبين ما سبق أن ذكرناه من أن المصريين وخاصة من أهل الريف ظلوا محافظين على أساليب حياتهم ولغتهم وتقاليدهم ولم يتأثروا كثيراً بالأجانب الذين حكموا مصر فى العصرين البطلمى والرومانى .

* * *

جالية أخيرة يجب أن نتحدث عنها وهى جالية اليهود فى مصر الرومانية . عرفنا فى دراستنا للسكان فى العصر البطلمى أن اليهود كانوا من أقدم الجاليات الأجنبية فى مصر وأكثرها عددا ، ولا شك أنهم استمروا كذلك فى العصر الرومانى . فمن حيث كبر حجم هذه الجالية يذكر فيلون أن عدد اليهود فى مصر فى بداية العصر الرومانى بلغ المليون[٢] . ورغم أننا لا نستطيع تحقيق هذا النبأ ، إلا أن ذكر فيلون لمثل هذا الرقم يدل على ضخامة الجالية اليهودية فى مصر فى ذلك العصر ، بل لعل عددهم زاد فى الأسكندرية فأصبحوا يشغلون اثنين أو أكثر من أحياء المدينة الخمس ، بعد أن كانوا يقطنون حياً واحداً وهو المعروف باسم « دلتا »[٣] .

---

(١) عثر على بيان كارا كلا هذا فى البردية المشهورة : P. Giss. 40, lines 16 ff. = Wilcken Chrest 22.

(٢) Philo, In Flaccum, 6.43

(٣) Philo, In Flacc. 55; and Legatio, 20, 132; Joseph. Bell. Jud. II. 487; Apion, No. 33.

وقد وجد الرومان فى اليهود فئة أجنبية عن البلاد يمكن استمالتها واستخدامها لصالحهم ، ولذلك سارع الإمبراطور أغسطس إلى الاعتراف بجميع الامتيازات والنظم التى تمتع بها اليهود فى العصر البطلمى[1] . فأقر حريتهم الدينية وسمح لهم بالمحافظة على رابطتهم المنصرية المعروفة باسم پوليتيوما (politeuma) ، بما لها من رئيس (ethuarch) ومجلس شيوخ (gerusia) ، وهو أمر اعتزوا به كل الاعتزاز نظرا لأن أغسطس رفض السماح للأسكندريين بممارسة حياة سياسية عن طريق مجلس تشريعى . وكان وضع اليهود الممتاز وعطف الرومان عليهم ، مصدر إثارة لحقد الأسكندريين عليهم ، مما أدى إلى كثير من حوادث الفتن والاضطراب بين الفريقين فى الأسكندرية فى العصر الرومانى ، كما سبق أن بينا فى الفصل الخاص بالتاريخ السياسى .

ويبدو أن اليهود لم يقنعوا بما نالوه من عطف ورعاية الرومان ، فأخذوا يدعون لأنفسهم مزيداً من الحقوق والامتيازات . فمن ذلك أنهم ادعوا أن يهود الأسكندرية كانوا مواطنين أسكندريين ، متمتعين بمواطنة المدينة كاملة. وقد انقسم العلماء قديما وحديثاً بشأن هذه القضية أشد الانقسام ، وليس هنا مجال العرض التفصيلى لجميع جوانب هذه المشكلة التاريخية ، وإنما سنكتفى بالعرض لها باختصار ، خاصة وأن حدة الخلاف قد هدأت فى الأعوام الأخيرة وأن الرأى السائد الآن هو عدم صحة دعوى اليهود القديمة وأنهم لم يكونوا مواطنين أسكندريين .[2]

---

(١) عن معاملة أغسطس لليهود أنظر : Joseph. Antiq XIV. 7. 2; XIX. 5, 2; P. Lond. 1912, 85 ff. in « Jews and Christians ». by Bell; Strabo, 17. 1; Philo, Legatio, 10.

(٢) الدراسات الأساسية لهذا الموضوع هى : Schubart, in Archiv Pap V (1909 — 1913) pp. 118 — 120. Bell, Jews and Christians. pp. 10—21. esp. p. 10 note 1; Corpus Papyrorum Judaïarum, 1, Introduction by Tcherikover, pp. XIII. ff.; Cl. Préaux, Les Etrangers à l'Epoque Hellenistique, Societé Jean Bodin, IX. (1958) pp. 157 ff.

ظهرت هذه المشكلة فى بداية العصر الرومانى ، ولعل السبب فى قيامها هو أن مواطنة الأسكندرية اكتسبت فى ذلك الوقت امتيازين جديدين ، وهما أن مواطنة الأسكندرية أصبحت الطريق المؤدى إلى الحصول على المواطنة الرومانية بالنسبة للمصريين (ويهود مصر كانوا مصريين من وجهة النظر الرسمية)؛ ومن ناحية أخرى تمتع مواطنو الأسكندرية بامتياز هام آخر وهو إعفاؤهم من ضريبة الرأس التى زحفت على المصريين جميعاً . فأراد اليهود أن ينتهزوا فرصة عطف الرومان عليهم واكتساب هذه الامتيازات عن طريق اعتبارهم مواطنين أسكندريين . وراح زعماء اليهود وكتابهم قديماً من أمثال جوزيفوس يثبتون صدق هذه الدعوى ويدللون عليها بشتى الحجج والأساليب ، وأن تمتعهم بهذا الحق قديم قدم المدينة ذاتها .(1) وفى الوقت نفسه انبرى زعماء الأسكندريين يفندون حجج اليهود ويدحضون دعواهم .(2) وبذلك غاب وجه الحق فى هذه المشكلة ، وانقسم العلماء المحدثون بشأنها انقسام القدماء ، ولم يخل انقسامهم من ميل إلى نزعة عنصرية أو دينية أحيانا . وظل الأمر كذلك حتى مطلع القرن العشرين حين نشرت بردية على جانب كبير من الأهمية .(3) وبالرغم من أن البردية مهشمة فى بعض أجزائها ، إلا أن ما بقى منها واضح المعنى وله أهمية كبيرة. فالبردية تحتوى على شكوى مقدمة إلى والى مصر من شخص يهودى من مدينة الأسكندرية يسمى هيلينوس ، ويطلب أن يعفى من دفع ضريبة الرأس نظراً لبلوغه سن الستين . وأهمية هذه البردية ترجع إلى الطريقة التى وصف بها هيلينوس وضعه الرسمى فى المجتمع ، فوصف نفسه أولا بأنه مواطن أسكندرى (Alexandreus)؛ ولكن موظفاً رسمياً فيما يبدو أصلح هذا الوصف وجعله

---

(1) Joseph. C. Apion, 1, 189; II, 37; Bel'. Jud. II. 487; Antiq. XIV. 188; XIX, 281; Philo, In Flacc. 8. 53.

(2) نجد رأى أبيون الأسكندرى فى : Joseph. C. Apron, II. 38.

(3) B.G.U. IV 1140 (Angustan age); ef Archiv Pap. V. pp. 118—120.

يهودى من الأسكندرية .[1] ثم يذكر هيلينوس بعد ذلك أن والده مواطن أسكندرى Alexandreus . من هذه المعلومات القليلة يمكن استنتاج بعض الحقائق الهامة :

أولا : أن هناك فرقا فنياً بين الصفتين «مواطن أسكندرى» (Alexandreus) و«يهودى من مدينة الأسكندرية» (Joudaios the apo Alexandrias)، وإلا لما لزم تصحيح التعبير من الواحدة إلى الأخرى ، لأن المواطن مواطن مهما كان عنصره[1] .

ثانياً : أن من الممكن لليهودى أن يصبح مواطناً أسكندريا ، كما يثبت لقب والد هيلينوس الرسمى . ولكن لما لم يكن الابن هيلينوس نفسه مواطنا ، اقترح جوجيه أنه حينما منح اليهودى مواطنة الأسكندرية كانت المنحة شخصيــة إلى درجة أنه لم يستطع توريثها لأبنائه .[2] ولكن ليس لدينا مايثبت صحة هذا الإقتراح ، لأن مواطنة الأسكندرية كانت وراثية ولعل تفسير اختلاف الصفة الرسمية بين الابن ووالده ، هو أن الابن ولد قبل أن يحصل والده على المواطنة ولهذا اكتسب الوضع الاجتماعى لوالده الذى ولد فيه ، ولما حصل الوالد على المواطنة فيما بعد لم يكتسبها هيلينوس لهذا السبب .

ثالثا : من أهم مميزات المواطن الأسكندرى أنه كان معفى من ضريبة الرأس ، ومن الواضح من هذه البردية أن يهود الأسكندرية وبالتالى يهود مصر جميعا كانوا يدفعون هذه الضريبة .

من هذا يتضح أن اليهود فى مصر الرومانية استمروا فى الوضع الاجتماعى نفسه الذى كان لهم فى العصر البطلمى ، وأن أغسطس والأباطرة الرومان من

---

(١) أنظر Bell, Jews and Christians. p. 14 ;

(٢) Jouguet, La Vie Municipale . p. 21.

بعده أقروا لهم الامتيازات التى منحها لهم الملوك البطالمة . فكانت لهم حرية العبادة الدينية ورابطة خاصة بهم تسمى پوليتيوما ، ومجلس شيوخ ، ورئيس جالية ، وأن هذا الرئيس ومجلس الشيوخ كانوا يكونون محكمة خاصة باليهود تفصل فى القضايا التى تتعلق بالشئون الدينية ، كما كان لهم مكتب خاص لتسجيل الوثائق المتعلقة بهم . ورغم العطف الذى ناله يهود الأسكندرية على أيدى الرومان إلا أنهم لم يصبحوا جزءاً من جماعة مواطنى الأسكندرية وظلوا من الناحية القانونية فى نظر الإدارة الرومانية بعض « المصريين » يدفعون ضريبة الرأس [1] ، كما كان يدفعها سائر سكان مصر عدا المواطنين الرومان والأسكندريين .

عرضنا فيما سبق للعناصر الأساسية الكبرى التى تتكون منها المجتمع المصرى فى ذلك الوقت ؛ وقد وجدت أيضاً فئات أخرى من الأجانب من بلاد أسيوية مختلفة أو بلاد إفريقية مجاورة أو من الولايات الرومانية المختلفة . منهم من كان يقيم فى مصر أو فى الأسكندرية إقامة مؤقتة من أجل التجارة أو أى سبب آخر، ومنهم من كان يقيم إقامة مستديمة . هذه الأقليات الأجنبية التى استوطنت مصر لم تبق طويلا محتفظة بشخصيتها القومية وسرعان ما تأغرقت واصطبغت بالطابع الإغريقى فى اللغة والمظهر والعادات وأصبحوا ضمن الفئة المصرية اليونانية

---

(١) هناك بردية أخرى تتعلق أيضا بدفع اليهود ضريبة الرأس هى **Acta Isidori** من أعمال الشهداء الوثنيين (Musurillo, Acta. IV) وفيها إشارة غير واضحة من جانب إزيدوروس إلى أن اليهود كانوا مثل المصريين . ومساوين لدافعى الضريبة . فيرد أجريبا ملك اليهود قائلا « إن الحكام فرضوا الضريبة على المصريين. أما (اليهود) فلم يفرضها عليهم أحد » . وقد نتج عن هذا التعارض الظاهر فى النص انقسام بين العلماء . ولكن يبدو لى أن التفسير الصحيح هو ما يقترحه روبرتز (C. H. Roberts) وهو أن أجريبا يتحدث عن اليهود كأمة خارج مصر وأن ضريبة الرأس لم تفرض عليهم . أما اليهود فى مصر فيدفعونها لأن هذه الضريبة قد فرضت فى مصر (أنظر الاقتراح الذى ورد فى Musurillo' Acta, pp. 139—140)

الذين سكنوا عواصم النومات ، وكانوا يمثلون الطبقة البوجوازية فى الريف المصرى .

وأخيرا يجب أن نعلق هنا على اصطلاح وجد فى وثائق مصر اليونانية الرومانية وكثيرا ما أسىء فهمه ، وهو لقب « فارسى من السلالة » (Perses les epigones) معلوماتنا عن أصل هذا الاصطلاح قليلة جداً ، ولا نكاد نعرف الظروف التى نشأ واستعمل فيها بادىء ذى بدء وأول ما قد يتبادر إلى الذهن أنه لقب لأفراد من سلالة الجالية الفارسية كانت موجودة بمصر فى عصر السيادة الفارسية قبل الفتح المقدونى . وسواء أكان هـذا هو المعنى الأول لهذا الاصطلاح أو لم يكن ، فالوثائق البردية التى نشرت حديثاً تثبت بما لا يدع مجالا للشك أن لقب « فارسى من السلالة » لم يعن منذ نهاية القرن الثانى قبل الميلاد قومية أو جنساً أو طبقة اجتماعية ، كما ظن بعض الدراسين[1] ؛ وأن استخدامه ، اقتصر فى نهاية العصر البطلمى والعصر الرومانى على كونه تعبير قانونى يستخدم اختيارا فى العقود بواسطة الأفراد الذين يقع عليهم الإلزام المادى ، وخاصة فى حالة المدين . ولقد أمكن إثبات هذا التفسير عندما لاحظنا فى عقود الديون أن أفراداً من طبقات وجنسيات مختلفة يستخدمون هذا التعبير عندما يكونون مدينين فقط وأهمية استخدام هذا الاصطلاح فى العقد ، أنه بمثابة ضمان إضافى للدائن ، إذ يصبح له شخصياً حق اعتقال المدين فى الحال أى (agogimos) إذا ما أخل بشروط العقد .

(١) أنظر مثلا : R. Taubenschlag, The Law of Greco-Roman Egypt, pp. 7—8; Schubart, in Archiv Pap. V, p. 112 ff.

(٢) صاحب هذا التفسير هو T. G. Tait, in Archiv Pap. VII. p. 180 والمصادر الأساسية هى : P. Reinach, 25 (105 B. C.); P. Ryl. IV. 588 (84 — 78 B. C.) esp. Introduction to it by Turner; P. Hamb 1. 2 (59 A. D.).

(٣) حول دلالة اصطلاح agogimos أنظر : Taubenschlav, Law, p.407,4

١ — الأسماء والألقاب :

من وسائل التنظيم الاجتماعي في أي دولة ضبط أسماء المواطنين حتى لا تضطرب الحقوق . وقد كان هذا التنظيم ممارساً في مصر القديمة ، فكان كل فرد يسجل عند ميلاده ووفاته . وفي العصرين اليوناني والروماني ازداد الاهتمام بهذه الناحية اهتماماً كبيراً نظراً لوجود جنسيات متباينة تمتعت بعضها بامتيازات خاصة ، كما وجدت المدن اليونانية التي تمتع مواطنوها بقوانين وحقوق خاصة . وفي العصر الروماني زداد الأمر تعقيدا نظراً لأن حق الانضمام إلى الجيش الروماني كان قاصرا على مواطني المدن اليونانية ، كما أن ضريبة الرأس التي فرضت على السكان طبقت بنسب مختلفة للفئات والطبقات المختلفة كما أعفى منها الأسكندريون نهائياً . لذلك كله كان ضبط السلم الاجتماعي والطبقي أمراً بالغ الأهمية من الناحية المالية بالذات بالنسبة للقائمين على الإدارة والحكم . فوضعت قواعد دقيقة جداً لمراعاة كتابة الاسم واللقب والوضع الاجتماعي بطريقة وافية . وأي محاولة للتزوير بتغيير الاسم أو الوصف الاجتماعي كانت تجازى بأشد العقاب[١] .

وفيما يتعلق بأسماء الأفراد ، كان هناك ميل متزايد بين المصريين نحو اتخاذ أسماء إغريقية . فلو تركت هذه الظاهرة دون تنظيم فلابد أنها ستنتهي إلى حالة من الفوضى ؛ لهذا عهد إلى رئيس الإدارة المالية في العصر الروماني المعروف باسم « إديوس لوجوس » للإشراف على مسألة تسجيل الأسماء ، وكان على كل من يرغب في تغيير اسمه أن يتقدم إليه بطلبه[٢] ولعل الأسماء المختلطة التي نقابلها في الوثائق (مصرية ويونانية) تبين أن أصحابها قد اكتسبوا أسماء

(١) يتضح من مرسوم ملكي أنه في العصر البطلمي أن في بعض حالات التزوير قد تصل العقوبة إلى حكم الإعدام : B G. U. VI. 1250 (II B. C.)

(٢) Wilcken, Chrest. 52 (194 A. D.); of Suetonius, Claudius, 25.

يونانية مؤخراً، فاستخدموا أسماءهم المصرية القديمة إلى جانب أسمائهم اليونانية الجديدة للدلالة على شخصياتهم . من هذا يتضح مدى اهتمام البطالمة أولا والرومان من بعدهم بضبط الأسماء والألقاب ؛ ولا غرو فالاسم واللقب يعينان الوضع الاجتماعى للفرد فى البناء الطبقى للمجتمع والوضع الاجتماعى يعين مسئولية الفرد والطريقة التى يعامل بها فيما يتعلق ببعض الأعمال والضرائب وخاصة ضريبة الرأس .

فيما يتعلق باختلاط الدم بين عناصر المجتمع المختلفة ، فمما لا شك فيه أن ذلك تم عن طريق الزواج بينهم[1] . فلا بد أن الدم الذى جرى فى عروق فئة المتروبوليين من أهل عواصم النومات كان مختلطا أشد الاختلاط ، من إغريق ومصريين وأسيويين وغيرهم ؛ إذ لم يمنع القانون زواج هذه العناصر بعضها من بعض . وحتى مؤسسة هادريان الهيلينية فى مصر مدينة انتنوبوليس ، منح لمواطنيها « الهيلينيين الجدد » امتياز حق الزواج من المصريات . اما المـــدن اليونانية الأخرى فى مصر فقد حظر على مواطنيها الزواج من المصريات ، ومع ذلك فتنص بعض مواد قانون الإيديوس لوجوس بأنه إذا حدث زواج بين مواطنى الأسكندرية المصريين ، « على جهل منهم بحقيقة الأمر » ، فإن الدولة كانت تعترف بالأمر الواقع وتمنح أبناءها مواطنة الأسكندرية[2] . أما الزواج بين الرومان والمصريين ، فيبدو أنه منع من حيث المبدأ[3] .

يتضح من ذلك على أى حال أن العناصر الأجنبية اختلطت بالمصريين ، وكانت النتيجة الطبيعية لذلك الاتجـــاه بمرور الزمن هو زيادة تمصير الإغريق وغيرهم بالتدريج ، حتى إذا العصر البيزنطى بعد ذلك غلب الطابع المصرى فى كثير من أوجه النشاط فى الدولة ، وخاصة فى المجال المذهبى الدينى .

---

(١) Wilcken, Grundz., p. 23.

(٢) P. Gnomon, articles, 45—47,

(٣) P. Gnomon, article, 52.

ب - نظم الإدارة

كانت السياسة الرومانية في مصر محافظة إلى حد بعيد ، ولم تدخل النظام الإدارى المصرى من التعديلات إلا ما كان ضروريا جداً وفى أضيق الحدود فى بادىء الأمر . فيمكن أن يقال إن التعديل الأساسى الذى أدخله أغسطس فى نظام مصر هو إقامة موظفين جدد ليقوموا بمهام منصب الملك البطلمى السابق ، أما سائر الموظفين والنظم فقد بقى كما هو ، حتى أن الأسماء والاصطلاحات الرسمية بقيت دون تغيير هام فى معظم الأحيان (١) .

فيما يتعلق بمنصب الملك ، فقد أصبح الإمبراطور الرومانى هو الملك الشرعى وفرعون مصر ؛ فمثل على المعابد ، كما كان البطالمة يمثلون من قبل ، فى زى الفراعين المصريين . وفوق رأسه التاج المزدوج لمصر العليا والسفلى ، وأمامه اسمه محفوراً داخل « خرطوشة » بالحروف الهيروغليفية . ولكن كان ذلك كله ضرورة من ضرورات الحياة الدينية والسياسية والاجتماعية المصرية ، التى لا تستقيم إلا بوجود فرعون على رأسها ، ولو كان مجرد رمز بعيد ، كما كان الإمبراطور الرومانى .

أما من الناحية العملية فقد أقام أغسطس موظفا جديداً ليمارس جميع سلطات الملك السابقة وسمى Praefectus أو والى . وكان اسمه الرسمى والى مصر

---

(١) قام عدد من العلماء بدراسة النظام الإدارى لمصر الرومانية مثل :
Jouguet, La Vie Municipale; Oertel. Die Liturgie; U. Chapot, L'Egypte Romains, pp. 271 ff.: Milune. Egypt Under The Romans Rule, pp. 120 ff; A. H. M. Jones, Cities of the Eastern Roman Provinces, pp.311 ff,

(Praefectus Aegypti) وأحيـــــــانا سمى والى الأسكندرية ومصر
(Praefectus Alexandreae et Aegypti)[1]. وكما سبق أن ذكرنا، كان والى مصر يختار عادة من طبقة الفرسان الرومان، ولكنه منح سلطانا برو قنصليا[2] ـ بصفة استثنائية ـ ليتولى قيادة الجيش الرومانى فى مصر . فقد كان هذا الوالى هو الحاكم الفعلى للبلاد ، هو الرئيس الإدارى ، وقائد الحامية الرومانية ، والقاضى الأعلى لجميع أنواع القضايا . وهو يستمد هذا السلطان من الإمبراطور شخصياً الذى يعينه ، وبذلك يصبح الوالى ممثل الإمبراطور فى الولاية . وعدا كبار الموظفين الذين كانوا يعينون بواسطة الإمبراطور ، كان الوالى يعين سائر الموظفين فى جميع المستويات الإدارية. ويبدو أنه كان له حق تعيين حكام المدن اليونانية فى مصر بعد أن يتم ترشيحهم واختيارهم بواسطة المواطنين . ومن حيث سلطته القضائية ، فقد كان من حق الأفراد والجماعات أن يرفعوا شكاياتهم وقضاياهم إلى الوالى ، سواء فى الأسكندرية ، أو فى أثناء الدورة القضائية التى كان يقوم بها مع هيئة محكمة فى مراكز الولاية الرئيسية (الأسكندرية فى منتصف الصيف ، يناير فى الفرما ، وأول الربيع فى ممفيس). عدا هذه المسئوليات الإدارية والقضائية والعسكرية ، كان من أهم واجباته الإشراف على الناحية المالية للولاية ، وخاصة جمع الضرائب وإرسالها إلى روما ، سواء من القمح أو نقداً بالعملة[3] ولا يخفى أن الوالى كان فى حاجة إلى معاونة مجموعة من كبار الموظفين تساعده على إنجاز مسئولياته المتعددة . ويأتى على رأس هذه الجماعة من المساعدين الرئيس القضائى

---

(١) كما فى نقش جالوس أول والى رومانى فى مصر O. G. I. S. 654 = د . عبد اللطيف أحمد على : مصر والإمبراطورية الرومانية ، ص ٥٩ (مع ترجمة عربية) .

(٢) Ulpianus in Digest, I. 17. 1

(٣) أهم دراستين عن الوالى الرومانى فى مصر هما: O.W. Reinmuth. The Prefect : of Egypt from Augustus to Diocletian (1935); and Stein, Die Praefekten Von Aegypten in der römischen Kaiserzeit (1950).

أو وزير العدل (juridicus أو dicaiodites) الذى يعتبر مع الوالى أهم تجديد أدخله الرومان على نظام الموظفين فى مصر . ورغم قلة ما لدينا من المعلومات عن منصب الرئيس القضائى (juridicus) واختصاصاته ، إلا أن الهدف الأساسى من إنشاء هذه الوظيفة الجديدة هو تزويد الإدارة الرومانية فى مصر « بخبير قانونى » ، نظراً لأن الوالى من طبقة الفرسان التى يشتغل أفرادها عادة بالقضاء والقانون فى روما ، وإنما كان معظمهم من رجال الجيش أو السلك الإدارى أو الأعمال التجارية والمالية ، ممن لم تكن لديهم خبرة خاصة بالقانون الرومانى . ولهذا أنشأ أغسطس وظيفة الرئيس القضائى ليكون بمثابة مستشار قانونى ورقيب فى نفس الوقت على تصرفات الوالى حتى لا تتعارض أحكامه وإجراءاته مع مبادىء القانون العام فى روما . وفى كثير من الأحيان كان الوالى يستشيره فى الأحكام قبل إصدارها أو أن ينيبه عن نفسه فى النظر فى القضايا الكثيرة التى كانت ترفع إليه. الرئيس القضائى (juridicus) على هذا النحو قام فى بعض اختصاصاته بمهام قاضى القضاة (archidicastes) فى العصر البطلمى .

عدا هذين المنصبين الجديدين بقى النظام الإدارى لمصر فى أساسه دون تغيير هام ، ولو أن اختصاصات بعض الموظفين أصابها شىء من الزيادة أو النقصان حسب اتجاهات الحكام الجدد . ففيما يتعلق بالإدارة المالية للبلاد استمر يشرف عليها المشرف المالى (Dioicetes) ورئيس الحساب الخاص أو الإديوس لوجوس (idios logos) ولكن الأول (dioicetes) فقد كثيراً من أهميته السابقة فى العصر البطلمى ، وأصبح الآن مجرد موظف إدارى يساعد الوالى فى الجانب الاعتيادى من المالية ، وهو تقدير الضرائب سنوياً وجمعها . وذلك لأن الوالى أصبح المسئول الأول عن مالية البلاد . أما الإديوس لوجوس فقد زادت أهميته كثيرا ، وأصبح هو المشرف على الجانب غير الاعتيادى من المالية. ونظرا لاضطراب الحياة الاقتصادية للبلاد فى نهاية العصر البطلمى ومحاولة الرومان

إصلاحها على أسس جديدة فقدعهد إلى الإديوس لوجوس بمهمة تنفيذ القوانين الجديدة . ومن أهم واجباته الإشراف على إدارة الأراضي والممتلكات التي قرر القانون مصادرتها باسم الدولة سواء لأن أصحابها قد هجروها أو تأخروا فى دفع الضرائب المستحقة عليها أو لأنهم ارتكبوا مخالفة قانونية جزاؤها استيلاء الدولة على أملاكهم أو جزء منها (١) . ثم زيد فى مهام هذا الموظف مرة أخرى حين استولت الدولة على ممتلكات المعابد وجعلت الإديوس لوجوس الكاهن الأكبر للمعابد والمشرف المالى على ماليتها وممتلكاتها(٢) .

وفيما يتعلق بالإدارة المالية للبلاد عين عدد من الموظفين يحملون لقب procurator أو epitiopos للإشراف على إدارات فرعية معينة . ومن أهم هؤلاء الموظفين بروكوراتوس مخازن الغلال فى الأسكندرية (وعرف الحى الذى وجدت فيه هذه المخازن باسم نيابوليس Neapol is ومن اختصاصاته الإشراف على جمع الغلال ونقلها إلى الأسكندرية حيث كانت تخزن استعدادا لشحنها إلى روما . وهناك موظف آخر من هذه الطبقة وهو المشرف على أملاك الإمبراطور الخاصة (Procurator usiacus) وكانت هذه الأملاك تشتمل على مساحات كبيرة من الأرض الزراعية ، وكان للإشراف عليها أهمية خاصة للإمبراطور شخصياً (٣) . وكان هذان الموظفان يعينان عادة من بين عبيد الإمبراطور المحررين ، وهى فئة استخدمها أغسطس وخلفاؤه فى كثير من مرافق الإدارة فى شتى أنحاء الإمبرطورية ؟ وذلك نظرا للولاء الذى يربط عبد الإمبراطور المحرر بشخص الإمبراطور .

---

(١) اختصاصات الإديوس لوجوس المالية محددة فى مصدرين رئيسيين : Strabo, 17. 1. 12 (c. 797); P. Gnomom, in B G. U. Vol. V.

(٢) P. Tebt. II 302 (71—2 A. D.) = Wilcken, Chrest. 368, of. Wilcken, Grundz. pp: 158—9, 300 ff; and Jones. Cities, p. 316.

(٣) of. Milne, Egypt, p. 125.

عدا هؤلاء الموظفين الكبار فى الإدارة المركزية فى الأسكندرية والذين كانوا يختارون بواسطة الإمبراطور شخصيا من المواطنين الرومان من طبقة الفرسان عادة ، وجد موظفان نعرفهما من العصر البطلمى أيضا وهما قاضى القضاة (archidicastes)والسكرتير العام(hypomnematographos)يبدوأن هذين الموظفين كانا يعملان كمساعدين للوالى ، يستشيرهما فى الشئون القانونية والإدارية المصرية المحلية ، ويمكن أن ينيبهما فى تقرير بعض الأمور . ولكن يبدو أن وظيفة قاضى القضاة (archidicastes) قد طرأ على طبيعتها بعض التغيير ، إذ استولى الرئيس القضائى الرومانى الجديد (juridicus) على اختصاصاته القضائية ، وأصبحت وظيفة قاضى القضاة إدارية قبل كل شىء ، وهى رئاسة دار المحفوظات الرسمية التى تحفظ بها نسخ من جميع الوثائق والعقود التى تعقد فى أنحاء مصر جميعا ، وكان مقر عمله هو الأسكندرية ، وترفع إليه الوثائق من جميع الأهالى فى النومات المختلفة وكانت وظيفتا قاضى القضاة (archidciastes) والسكرتير العام (hppomnematographos) يمثلان أرقى منصب يستطيع أن يشغله مواطن فى مصر ، ويبدو أنه كان يعين فيهما عادة مواطنون من مدينة الأسكندرية [١]

وظيفة أخيرة أصبح يتولاها مواطنون رومانيون من طبقة الفرسان هى وظيفة الإبيستراتيجوس (epistrategos) ، وهى تعتبر حلقة الوصل بين الإدارة المركزية فى الأسكندرية والإدارة المحلية فى سائر البلاد. ذلك أن مصر كانت مقسمة إلى ثلاث أجزاء إدارية كبرى هى الدلتا ومصر الوسطى(Heptakomia) ومنطقة طيبة فى

---

(١) كما اقترح تيرنر Turner فى تعليقه على P. Ox. XXII. 2349 فيما يتعلق بوظيفة archidicastes . أنظر قائمة بأسماء من شغلوا هذه الوظيفة فى A. Calaki Aegyptus, 32, (1952). pp. 408 ff.

الجنوب (Thebaid) ، ويشرف على إدارة كل إقليم موظف كبير هو الإبيستراتيجوس . ومن الثابت أن هذا التقسيم وهذه الوظيفة ترجع الى العصر البطلمى[١]، وأن الجديدفى نظامها الرومانىهو أن من تولوها كانوا من المواطنين الرومانيين ؛ وفى حين أن إبيستراتيجوس طيبة فى العصر البطلمى كانت له سلطة عسكرية وإدارية فإن هذا الموظف فى العصر الرومانى أصبح موظفاً إدارياً فقط . فالإبيستراتيجوس كان الرئيس الإدارى لعدد من النومات تنقسم إليها منطقته ، وكان مرؤوسه المباشر هو الإستراتيجوس ، رئيس النوموس، ولكن يبدو أن الإبيستراتيجوس لم يكن يقيم فى منطقة إدارته ، بل فى العاصمة بالأسكندرية ، وكان يكتفى بالقيام بجولات إدارية وتفتيشية فى النومات التى تتبع إدارته ؛ كما كانت ترفع له التقارير أو المظالم فى مقره بالعاصمة بانتظام ، أما عن طبيعة وظيفته فهى الإشراف على حسن سير العمل فى منطقة اختصاصه من الناحية الإدارية ، والقيام بأى تحقيقات إدارية ، إلى جانب رفع ترشيحات الموظفين فى الإدارة المحلية ليتم تعيينهم بواسطة الوالى . وقد بقيت هذه الوظيفة حتى نهاية القرن الثالث حين ألغاها الإمبراطور دقلديانوس[٢] .

هذا من حيث الوظائف الرئيسية فى الإدارة المركزية فى العاصمة والتى تولاها عادة مواطنون رومانيون أو مواطنون أسكندريون فى الوظائف الأقل أهمية ؛ أما عن الإدارة المحلية بدرجاتها المختلفة فى الريف فيمكن تقسيمها إلى طبقات ثلاث . الأولى هى إدارة المدن اليونانية والتى بقيت متمتعة بنوع من

---

(١) كان هناك خلاف حول نشأة هذه الوظيفة وتاريخها ولكن P. Tebtunis. No. 778 (1788. c.) قد أثبتت أنها ترجع على الأقل إلى بداية القرن الثانى ق . م . فى مصر الو طى أيضاً .

(٢) حول هذه الوظيفة أنظر: V. Martin, Les Epistrateges, Geneva (1911).

الحكم المحلى المستقل كما كانت فى العصر البطلمى . والثانية هى إدارة النومات التى كانت تنقسم إليها البلاد إداريا ؛ والثالثة هى إدارة القرى التى كانت تنقسم إليها كل نوموس بدورها .

ولنتناول أولا إدارة النوموس التى كانت أساساً جزءاً من الإدارة المركزية العامة . ويمكن تقسيم إدارة النوموس إلى نوعين من الوظائف ، النوع الأول يشمل وظائف تمثل الإدارة المركزية العامة فى البلاد ، وأهمها وظيفتا الإستراتيجوس (strategos) والكاتب الملكى (Basilico—grammateus). والإستراتيجوس هو الرئيس الفعلى لإدارة النوموس وممثل الوالى فيه ، ويشمل إشرافه جميع النواحى الإدارية والمالية . فهو الذى يصدر تقديرات الضرائب السنوية على الأراضى والأفراد حسب الإحصاءات التى يجمعها بمعاونة مرؤوسيه من الموظفين المختلفين. كما كان مسئولا عن نظام الشرطة فى النوموس ، ولكن لم تكن له سلطة النظر فى القضايا وإصدار الأحكام إلا بناء عن تفويض رسمى من الوالى أو أحد كبار الموظفين القانونيين فى الإدارة المركزية فى العاصمة . ولكن كان يجوز له أن يقوم بتحقيق أولى فيما يرفع له من مظالم أو يقع من خلاف فى منطقة اختصاصه ثم يرفع الأمر إلى الوالى ليفصل فيه فى الأسكندرية أو أثناء القيام بجولته القضائية فى الأقاليم . وكان لكل نوموس إستراتيجوس واحد ، باستثناء الفيوم فوجد بها اثنان ، وذلك أنها قسمت إلى ثلاث مناطق ، فتولى إدارة منطقتين منهـا إستراتيجوس ، وآخر للمنطقة الثالثة . وكان الإستراتيجوس تختار من بين أفراد الطبقة الإغريقية المصرية من أهل عاصمة النوموس (متروبوليس Metropolis) ، وكان يراعى ألا يعين الإستراتيجوس فى النوموس التى ينتمى إليها .

وكان التعيين لهذه الوظيفة يصدر من الوالى بناء على ترشيح الإستراتيجوس ، ويستمر لمدة ثلاث سنوات عادة ، كما كان شاغلها يتقاضى راتبا سنويا ، ولو أننا

لا نعرف مقدار هذا الراتب [1] .

أما عن الكاتب الملكي (basilicogrammateus) فهو الساعد الأيمن للإستراتيجوس ، وقد احتفظت وظيفته بالاسم البطلمي رغم زوال الملكية . ويعتبر الكاتب الملكي من أهم من يمثل البيروقراطية المصرية في ذلك العصر ، فجميع الإحصاءات والتقديرات والتقارير التي كانت تكتب عن النوموس وترفع إلى الإستراتيجوس كانت تخرج من مكتب هذا الموظف . ومن ثم تظهر أهميته الإدارية وخاصة في مسألة الضرائب وتقديرها ، ومسألة الترشيح للوظائف الأخرى والأعمال الإجبارية ، لأن الكاتب الملكي كان الموظف المختص بعمل قوائم المرشحين المناسبين للأعمال المختلفة ، كل حسب مايمتلك من عقار . ونظرا لأهمية هذا الموظف فقد كان له راتب سنوى ، وكان يختار مثل الإستراتيجوس من بين أفراد الطبقة الإغريقية المصرية في المتروبوليس . وكان يوجد في كل متروبوليس دار لحفظ الوثائق والأوراق الرسمية يشرف عليها موظف أرشيف كما نقول الآن ، ولقبه الرسمي bibiophylakes ويعتبر الساعد المباشر للكاتب الملكي [2] .

إلى جانب هذه الوظائف التي تمثل السلطة المركزية في النوموس وجدت منذ بداية العصر الروماني وظائف أخرى ذات صبغة محلية في عاصمة النوموس (المتروبوليس metropolis) [3] .

الغرض الأساسي من وجود هذه الوظائف هو أن يهتم مواطنو كل

---

(١) أنظر : V. Martin, Strateges et Basilicogrammates du nome Arsinoites à l'epoque romaine, Archiv Pap, VI, (1920) pp. 137 ff.; of. Milne, Egypt Under Roman Rule, pp. 126 ff.

(٢) أنظر المرجع السابق .

(٣) أنظر Jones. Cities of the Eastern Roman Provinces,p.319

متروبوليس بشئون مدينتهم الخاصة ، مثل الإشراف على الجنازيوم أو تموين المدينة بمواد الغذاء الأسياسية من القمح والزيت مثلا ، أو الإشراف على سوق المدينة ومراقبة عمليات البيع والشراء حتى لا يحدث تلاعب . هذه الوظائف لم تكن مأجورة وإنما اعتبرت تشريفاً لمن يتولاها ، ومن هنا سمى أصحابها « حكاما » (archontes) واشتملت على رئيس الجنازيوم أو جنازيارخس ورئيس هيئة الموظفين أو exegetes ، ومسجل الجنازيوم أو كوزيتيس ، والموثق أو المشرف على السوق (agoranomos) والمشرف على التموين (euthenarches) وأخيرا رئيس الكهنة الرسمى للمدينة (archiereus) . وكما يتضح من ألقاب هؤلاء الحكام هى نفس الوظائف التى عرفتها المدن اليونانية من قبل فى نظام حكمها المحلى ، ولعلها اقتبست من مدينة الأسكندرية ، التى كانت المثل الأعلى للمدن فى مصر . ولكن يجب أن نذكر أن المتروبوليس فى مصر لم تعرف هذه الوظائف جميعا دفعة واحدة ، لأن الغرض الأول من نشر نظام هذه الوظائف المحلية فى عواصم الريف كان للتخفيف عن الإدارة المركزية ولم يسعيا وراء تطبيق نظام الحكم المحلى فيها . ويمكن أن يقال إن الإدارة الرومانية لم تشرع فى تطبيق نظام الحكم المحلى فى المتربولات إلا تحت ضغط الظروف الاقتصادية والإدارية السيئة فى الولاية كما سنبين عند الكلام عن إصلاحات الإمبراطور سيفيروس والقرن الثالث .

المرحلة الأخيرة فى نظام الإدارة الرومانية فى مصر هى إدارة القرية ، إذ كانت كل نوموس تنقسم إداريا إلى قرى . وهنا أيضاً نجد النظام الإدارى المزدوج ممثلا أيضاً ، فالإدارة المركزية ممثلة فى شخص كاتب القرية Komogrammateu) ، وهو الموظف المسئول عن إمداد الإدارة المركزية بالمعلومات الضرورية عن القرية فيما يتعلق بالضرائب أو الخدمة الإجبارية . فهو

المسئول عن عمل قوائم بأهل القرية وعدد الرجال البالغين بها ، ومقدار ملكية كل شخص وما يقع عليه من ضرائب أو القيام بالخدمات الإجبارية مثل بناء الجسور وحفر الترع وتنظيف القنوات وغير ذلك . وهو الذى يرفع التقارير السنوية عن حالة الأرض فى القرية وهل روتها مياه الفيضان أو لم تروها ونوع المحصول الذى تنتجه كل أرض وهكذا ، حتى يمكن تقدير الضرائب السنوية تقديراً صحيحاً . أما عن مسئولية الأهالى فى الإشراف على شئون قريتهم فكانت ممثلة فى لجنة من «شيوخ القرية» ، اختلف عددهم حسب ظروف كل قرية . ومهمتهم الرئيسية هى قيامهم بدور الوسطاء بين الدولة والأهالى فى مسألة جمع الضرائب وإمداد الدولة بالعمال للأغراض المختلفة عند الضرورة ويبدو أن العضوية فى لجنة شيوخ القرية كانت من ضمن الأعمال الإجبارية (leiturgia) التى كانت تقع على طبقة ملاك الأراضى من الأهالى ، وتستمر العضوية لمدة سنة واحدة على الأرجح(١).

المدن الإغريقية :

لم تكن الإدارة الرومانية أكثر حرصاً من الحكومة البطلمية على نحو نظام المدن اليونانية فى مصر ، ولهذا اكتفت بأن تركت المدن الأربع التى كانت موجودة زمن البطالمة ، ولم تقدم على زيادة عددها إلا بعد مضى ما يزيد على مائة وخمسين عاماً على حكمهم ، أى فى سنة ١٢٠ حين أنشأ هادريان مدينة أنتينوبوليس فى الصعيد . ورغم ندرة معلوماتنا عن ثلاثة من المدن الأربع القديمة وهى نوقراطس وبطلميسة وبريتونيوم ، إلا أن مالدينا من دليل يكفى لإثبات أنها جميعاً احتفظت بنظام المدينة اليونانية ؛ فكان لها حكام منتخبون

(١) Wilcken, Chrest. No. 272 (136 A.D.); and id. Grundz pp. 43 and 217. Also cf. Milne, Egypt, 129 f.

(archontes)ومجلس تشريعى (boulé) ولكل مدينة مواطنتها (politeia) الخاصة بمواطنيها[1].

أما عن مدينة الأسكندرية فقد أصاب نظامها ووضعها بعض التغيير. لقد سبق أن أوضحنا فى العصر البطلمى أن الأسكندرية تمتعت منذ البداية بنظام المدينة اليونانية كاملا، بما فى ذلك المجلس التشريعى (boulé)، أهم أركان ذلك النظام. ومن سوء الحظ أن معلوماتنا عن تاريخ هذا المجلس قليلة جداً فى العصر البطلمى إجمالا، ومنعدمة فى الجزء الأخير منه، مما دعى بعض العلماء إلى إنكار وجود مجلس تشريعى فى الأسكندرية وخاصة فى الجزء الأخير من العصر البطلمى[2]. ولكن كل من عانى دراسة التاريخ يعلم خطورة استنتاج حقائق التاريخ بطريق الاستدلال من صمت المصادر؛ فلا بد من وجود دليل قاطع للاطمئنان إلى صحة الاستنتاج التاريخى. ولهذا فنحن أميل إلى الاعتقاد بأن المجلس التشريعى استمر فى الأسكندرية طوال العصر البطلمى، وأنه ألغى فى بداية العصر الرومانى[3]. فالمصادر الأدبية والوثائق البردية المعاصرة تذكر فى غير مواربة أن الإمبراطور أغسطس أمر الأسكندريين بتدبير الحياة العامة فى المدينة دون مجلس تشريعى، وأن الأباطرة من رفضوا إجابة مطلب الأسكندريين بإقامة المجلس

---

(١) خير مرجعين عن المدن اليونانية فى هذا العصر هما : Jouguet. La Vie Municipale, pp. 115 ff.; aud Jones, Cities, pp. 311 f.

(٢) Bell. The Problem of tne Alexandrian Senate, Aegyptus, 12, (1932) 172 ff.: Norsa and Vitelli, in Bulletin dela Société d'Archeologie d'Alexandrie, Supp. Fase,, 25 (1930) pp. 9 ff.; and Ibid 27 (1932) pp. 1—17; Mommsen, Roman Hist., Provinces, Transl. W. P. Dickson, II, p. 236 ff, and Tarn, Hellenistic Civilization (1950) p. 161,

(٣) من هذا الرأى أيضاً : Milne, Egypt, pp. 282 ff.

لأن أغسطس أقر نظام المدينة بدون مجلس تشريعى (boulé)[1] . هذا الإجراء من جانب أغسطس يعتبر طعنة لكبرياء الأسكندرية ، ولعل الغرض الحقيقى منها هو إشعار مواطنيها بتبعيتهم الجديدة لروما . ومع ذلك فقد بقيت الأسكندرية المدينة الأولى فى مصر والمثال الذى تقاس به وتحتذيه سائر المدن . فمن ناحية أخرى اكتسبت مواطنة الأسكندرية أهمية خاصة فى العصر الرومانى - كما سبق أن ذكرنا - لأن مواطنى الأسكندرية أعفوا من ضريبة الرأس ، كما أصبح لزاما على كل مصرى أن يحصل على مواطنة الأسكندرية قبل أن يجوز له أن يحصل على المواطنة الرومانية . هذان الامتيازان جعلا مواطنى الأسكندرية يكونون رسمياً طبقة أرستقراطية بين سكان مصر جميعاً .

أما عن نظام حكم مدينة الأسكندرية وإدارتها ، فقد كان مبدأ الازدواج الإدارى ممثلا فيها أيضاً : موظفون مدنيون يمثلون المواطنين، وموظفون معينون يمثلون السلطة المركزية . ولعل الأسكندرية فى ذلك كانت المثال الذى احتذى فى نظام المتربوليس[2] . فقد وجدت فى الأسكندرية جميع الوظائف المدنية التى وجدت فى المتروبولات وهى : الاكسيجيتيس (exegetes) وجمنازيارخس (gymnasiarchos)وكوسميتيس(cosmetes)وأجورانوموس(agoranomos) والكاهن (neocoros) . وكانوا فى مجموعهم يكونون لجنة تسمى (prytan is) تحت رياسة الاكسيجيتيس ؛ وكان يضاف إليهم أعضاء آخرون معينون من قبل الإمبراطور شخصياً ، وكانوا عادة من عبيده المحررين (Kaisarioi) .

أما عن طريقة تولى هذه المناصب ، فنعلم من خطاب الإمبراطور كلوديوس المشهور أنه قد وافق على جعل وظيفة الكاهن فقط بالاقتراع بين المتقدمين ، مما يدل على أن سائر المناصب تم بطريقة أخرى وهى الانتخاب بواسطة المواطنين.

---

(١) Dio cassius, 51, 17; P.S.I. 1160; P. Lond. No. 1912 in Bell, Jews and Christians.

(٢) نظر : Jouguet, loc. cit; and Jones, loc cit.

ومما يؤيد هذا الاعتقاد أن رئيس الجنازيوم أو الجناريارخس كان يقوم دائما فى العصر الرومانى بدور الزعيم الشعبى ضد الحكم الرومانى ، كما يتضح من مجموعة أعمال الشهداء الوثنيين . وفيما يتعلق بمدة تولى المناصب فإن كلوديوس فى الخطاب ذاته يقر جعلها مدة ثلاث سنوات فقط .

ورغم وجود هذه الوظائف المدينية فيجب ألا نظن أن الرومان كانوا أرحب صدراً فيما يتعلق بحرية المدن واستقلالها ، بل على العكس من ذلك ، فقد كان للسلطة المركزية موظفين فى المدينة يشرفون ويتدخلون فى كثير من شئونها. وقد رأينا رجال الإمبراطور معينين فى لجنة حكام المدينة ؛ وفوق ذلك وجد أيضاً حاكم للمدينة (shatezos) وقائد للبوليس . ويبدو أخيراً أن النظام القضائى قد تعرض لتغير جذرى ، فلم نعد نسمع عن محاكم المدينة ، وجميع القضاة أصبح الآن بيد السلطة المركزية أو من يمثلها فقط [١] . وحتى منح مواطنة المدينة لغير أبناء الأسكندريين كانت فى يد الإمبراطور [٢] . ومحاكمة من أقحموا أنفسهم فى سجل المدينة بغير وجه حق من سلطة الوالى [٣] .

أما عن المدينة الإغريقية الجديدة التى أنشأها الرومان فى مصر وهى أنتينوبوليس ، فقد أسسها هادريان فى عام ١٣٠ على موقع مدينة مصرية قديما ، تخليداً لأحد أصفيائه الذى غرق فى مياه النيل . ويعتبر تأسيس هذه المدينة من دلائل اهتمام هادريان بالحضارة الإغريقية ، فقد منحها نظام المدن اليونانية المستقلة ، وأنها نظمت على مثال أقدم مدينة يونانية فى مصر وهى نوقراطس ، فكان

---

(١) اهم مصدرين هما : P. Lond. 1912. in Bell..
(ولكن أنظر نقد نص استرابون فى كتاب (Jeuguet, op. cit. pp. 167 ff
Strabo. 17. 1. 12 Jews and Christians.

(٢) Pliny; Epist. X. 7.

(٣) P. Gnomon. 40.

لها نظام الحكم المحلى عن طريق الموظفين المدنيين المنتخبين ومجلس تشريعى (boulé) وهو ما قد حرمت منه الأسكندرية ذاتها فضلا عن سائر المتروبولات أما مواطنو هذه المدينة الجديدة فقدجلب بهم من إغريق مدينة بطلميسة فى منطقة طيبة ومن إغريق منطقة الفيوم الذين عرفوا باسم « الـ ٦٤٧٥ إغريقيا فى نوموس أرسنوى » ؛ وكذلك من الجنود المسرحين من الجيش الرومانى . وقد منح مواطنو أنتينوبوليس امتيازاً خاصاً لم يمنح للمدن اليونانية الأخرى وهو حق الزواج من المصريين . وقدقسم المواطنون إلى قبائل وأحياء (phylai ، demoi) ، كما كان الأمر فى الأسكندرية وأثينا أيضا . هذه هى أهم معالم المدينة الجديدة ومنها يتضح أنها قد ولدت من حيث النظام مدينة يونانية كاملة ، وقد ساعد على ازدهارها المادى أول الأمر ، ذلك الطريق التجارى الذى بناه هادريان ليصل مدينته الجديدة بالبحر الأحمر ، فى فترة بلغت فيها تجارة مصر الشرقية مرحلة من أزهى مراحل نشاطها[١] .

إصلاحات القرن الثالث :

هذه هى المعالم الرئيسية لنظام الحكم فى مصر فى خلال القرنين الأولين من الحكم الرومانى . وقد أمكن العمل بهذا النظام بنجاح خلال القرن الأول وأكثر من نصف القرن الثانى ، ولكن فى النصف الثانى من القرن أخذ يتكشف عن قصور وعيوب مختلفة أنذرت فى نهاية القرن بفشله وسقوطه . وكان من الطبيعى أن يتعرض مثل هذا النظام للفشل بعد مضى بعض الوقت ، لأن كل نظام إدارى أو سياسى مرتبط ضرورة بالأوضاع الاقتصادية والاجتماعية فى البلاد . ولتوضيح ذلك نقول أن سكان

---

(١) خير مرجعين عن مدينة أنتنيبوليس هما : E. Kuhn, Antinoopolis (1913). Bell, Antinooponis. A. Hadrianic Foundatino in Egypt, J. R. S., 30 (1940), 133—147.

كل نوموس فى الريف المصرى كانوا فى القرنين الأولين ينقسمون أساساً إلى فئات أو طبقات ثلاث :

أولا : أقليات من الرومان والأسكندريين تتمتع بامتيازات مختلفة .

ثانياً : أهل عواصم النومات الأصليون (متربوليون) وهم من أصل إغريقى أو مصريون متأغرقون . ويمثلون الطبقة الوسطى فى المجتمع المصرى .

ثالثاً : أهل القرى والريف من صغار المزارعين والفلاحين . ويمثلون الطبقة الدنيا فى المجتمع المصرى .

وقد رأينا عند وصف النظام الإدارى فى مصر الرومانية أنه كان ينقسم إلى قسمين أساسيين : الأول مأجور أى يتقاضى الموظف فيه راتباً سنوياً ، وهذا القسم يشمل المناصب الكبرى فى سلك الإدارة المركزية مثل وظائف الإستراتيجوس والكاتب الملكى . والقسم الآخر غير مأجور ويشمل فى درجاته العليا مناصب الحكم المحلى فى المتروبولات التى كانت تعتبر تشريفاً لمن يتولاها ، وفى درجاته السفلى وظائف الأعمال والخدمات الإجبارية (leiturgia) بما فيها كاتب القرية أو العضوية فى لجنة شيوخ القرية وما دون ذلك من أعمال الحراسة والنقل والحفر ، مما كانت الدولة تفرضه فرضاً على الأهالى حسب قدراتهم المادية .

فإذا ما بحثنا عن نصيب كل طبقة من الطبقات الثلاث من هذه المسئوليات الإدارية بأنواعها المختلفة ، سهل علينا تبيان وجه الخلل فى النظام بأسره خلال القرنين الأولين كثيراً ما تولى الرومان والأسكندريون القيمون فى الريف المناصب الهامة فى الإدارة المركزية فى النومات مثل مناصب الإستراتيجوس والكاتب الملكى ؛ ولكنهم قلما تولوا الوظائف المدنية الأخرى غير المأجورة أو وظائف الخدمة الإجبارية ، مع استثناء القيام بعملية جمع الضرائب بطريق

الالتزام ، التى كثيراً ما كانت تدر عليهم الربح الوفير . فيبدو أن المواطنين الرومانيين والأسكندريين لجأوا إلى كل وسيلة ممكنة للتهرب من تحمل أى أعباء إدارية فى الريف[1] ؛ ولا شك أن مواطنتهم ساعدتهم على إثبات أنهم لا يمتون إلى المتربولات ، ولهذا لا يجوز أن يتحملوا تبعات وظائفها — لأن المبدأ الأساسى فى تولى الوظائف المدنية هو الوطن (origo)[2] ، أى أن كل شخص فى موطنه . لهذا السبب وقع عبء الإدارة فى الريف على كاهل الفئتين الثانية والثالثة فكانت : وظائف الحكم المحلى فى المتروبولات تقع على المتروبوليين ؛ بينما تحمل القرويون الأعمال اليدوية والوظائف القروية من الخدمات الإجبارية العامة . ومن تتبع الحياة العامة فى الريف المصرى فى القرن الثانى يتبين أن الأعباء التى ألقيت على كاهل هاتين الطبقتين الأخيرتين كانت أكثر من أن تتحملها طاقتهم المادية . فكثير من أهل القرى فروا من قراهم إلى المدن الكبيرة أو إلى مجاهل شمال الدلتا ، هرباً من الضرائب والخدمات الإجبارية ؛ بينما تحولت الوظائف الإدارية المختلفة فى المتروبولات إلى خدمات إجبارية تفرض على القادرين من الأهالى فرضاً دون اعتراف بأى نظام من نظم الاختبار الشخصى . ونظرا لكثرة تكاليف هذه المناصب ، فقد عانى المتروبوليون كثيرا من جرائها ، حتى أصبح من المتعذر فى نهاية القرن الثانى العثور على عدد كاف من الأفراد ممن تتوفر فيهم الشروط اللازمة لشغل جميع الوظائف حتى أوشك النظام الإدارى بأسره على الانهيار[3] .

زار مصر فى ذلك الوقت الإمبراطور سبتميوس سيفيروس (١٩٩ — ٢٠٠)

---

(١) وحتى القيام بالتزام جمع الضرائب كانوا يتهربون منه عند الضرورة كما يتضح من :
B.G.U. 747 (137 A.D.)=Wilcken, Chrest 35

(٢) حول الوطن (origo) أنظر : Jouguet, La Vie Mun. 91 ff.

(٣) يوجد وصف واف لدلائل هذا الإنهيار فى كتاب Jones, Cities, pp 319 ff

ومنح مدينة الأسكندرية وعواصم النومات (متروبولات) نظام المجلس التشريعى (boulé) ؛ وهى محاولة لتوحيد النظام الإدارى فى مصر وسائر ولايات الإمبراطورية الرومانية . ولكن هدف سيفيروس الحقيقى من وراء هذا الإصلاح لم يكن تعميم نظام الحكم المحلى وتعزيز الحريات السياسية ، بقدر ما كان من محاولة لإلقاء مسئولية الإدارة على الأهالى بدلا من السلطة المركزية . فمنذ ذلك التاريخ أصبحت طبقة أصحاب الأملاك فى كل متربوليس مسئولة بأجمعها فى هيئة مجلس عن شغل وتمويل المناصب العامة (١) . من أهم نتائج هذا الإصلاح فى مصر على أى حال هو الزيادة من أهمية المتروبولات بعد أن سووا بالعاصمة الأسكندرية وأصبحوا جميعاً يتمتعون بمجلس تشريعى . ويبدو من ناحية أخرى أنه لم يسمح للفئات الممتازة من الرومان والأسكندريين المقيمين فى الريف بالتهرب من تحمل نصيبها فى الإدارة المحلية فى ظل نظام المسئولية الجماعية الجديد . فلعله من الطريف أن أول عضو فى المجلس التشريعى الجديد فى مدينة أوكسيرنخوس (البهنسا) فى سنه ٢٠١ كان مواطناً أسكندرياً (٢) .

ومن الإصلاحات الخطيرة أيضاً التى جاءت فى أعقاب تشريع سيفيروس قانون الإمبراطور كاراكالا الذى صدر فى سنة ٢١٢ بمنح المواطنة الرومانية لجميع السكان الأحرار فى الإمبراطورية باستثناء طبقة الخاضعين (dediticii) فى مصر ، على أى حال ، شمل هذا القانون الجديد المصريين جميعا ، وكانت له النتائج التالية :

---

(١) أنظر : Jones, Cities, 329 f.; and E. P. Wegener, The Bouleutai of the Metropoleis, in Symbolae Van Oven, P. 160 6.; and in Mnemosene (1947) pp. 15—42, 115—132, and 297—326.

(٢) وانظر P.S.I., XII. Nc. 1328 (201 A. D.) R. Calderini. Bouleutica. Aegyptus (1951) 13

أولا من الناحية القانونية ، أصبح جميع السكان قانونا مواطنين رومانيين، رغم أنه استمر تطبيق القانون المصرى الإغريقى(١) . ثانيا من الناحية السياسية، لم يعد هناك تميز رسمى بين المواطنين الرومانيين والأسكندريين من ناحية والمتروبوليين من ناحية أخرى . القاعدة الجديدة لتحديد مسئولية الأفراد هى الموطن (origo) ، والذى كان وراثيا ؛ حتى أن الأسكندريين المقيمين فى الريف الذين كان يحق لهم أن يدعوا أن موطنهم الأصلى هو الأسكندرية ، لم يجدوا فائدة تجنى من تمسكهم بكبريائهم القديم ، وكثيرون منهم تدريجيا اتخذوا مكان إقامتهم فى الريف بمثابة موطن لهم (origo)(٢) . يتضح من هذا أن نتيجة هامة لقانون كاراكلا من وجهة النظر السياسية أنه قد تمت عملية تسوية هابطة فى اتجاهها بين الفئات القديمة الممتازة من الرومان والأسكندريين وفئة المتروبوليين أى أن قانون كاراكلا ألغى جميع الامتيازات المحلية . ويبدو أن هذه التغييرات لم تكن قاصرة على مصر وحدها ، بل كانت عامة فى ولايات الإمبراطورية المختلفة نتيجة لتطبيق قانون كاراكلا(٣) .

ثالثا من الناحية الإدارية : نتيجة أخيرة وثيقة الصلة بالنتيجة السالفة هى أن الرومان والأسكندريين المقيمين فى المتروبولات أصبحوا ملزمين بالدخول فى عضوية المجالس التشريعية المحلية الجديدة وفى تولى مناصب الحكم المحلى ، شأنهم فى ذلك شأن المتروبوليين سواء بسواء . ولم تقتصر هذه المسئولية على أولئك الذين

---

(١) V. Arangio—Ruiz, L'Application du droit Romain en Egypte àprês la Constitution Antoninienne, Bull Ialt. d'Egypte, 29 (1948) pp. 83 ff.

(٢) أنظر مثلا : S.B. 178 (III A.D); P. Ox VIII, 1115 (237 A.D.); P. S. I., XII, 1249 (255 A. D.); P. S. I. No. 203 (III A.D.); P. For. 50 (III A.D.).

(٣) أنظر Jones, A.H.M.: Studies to Roman Government and Law (1960) pp. 136 ff.

اتخذوا من المتروبوليس موطنا لهم، ولكن شملت الأفراد الذين كانوا مقيمين فقط فى المتروبوليس وكانوا يمتلكون النصاب المالى اللازم لتولى الوظائف . وذلك لأن الرومان والأسكندريين - كما سبق أن ذكرنا - لم يعودوا فئات ممتازة ذوى مواطنة خاصة، ولذلك لم يكن هناك من سبيل إلى التهرب من تحمل نصيبهم فى الإدارة المحلية [1] . ولا نجد استثناء من هذه القاعدة إلا مواطنى مدينة أنتينوبوليس الذين كانوا يتمتعون بامتياز قديم كان قد منح لهم وهو إعفاؤهم من تولى مناصب الحكم المحلى والخدمات الإجبارية خارج مدينتهم. ويبدو أنهم ظلوا يتمتعون بهذا الامتياز حتى عام ٢٥٤ [1]، ثم ألغى بعد ذلك مباشرة، وطبق عليهم المبدأ العام من إمكان تولى المناصب فى أكثر من مكان عند توفر الشروط اللازمة [2] .

وفيما يتعلق بطبقة القرويين والفلاحين التى شملها أيضا قانون كاراكلا، فقد كان يحدث أحيانا أن يطالب أفراد منهم بتولى الوظائف فى المتروبولات،

---

(١) لقد وردت مسألة تولى الوظائف المدنية فى الموطن أو فى محل الإقامة فى النص القانونى: "Digest 50.1.17.4" «Sed eodem tempore non sunt honores in duabus civitatibus ab eodem gerendi : cum simul igitur utrabique dtfereintur, potior est originis causa»» ويعنى أنه لا يجوز أن يتولى الشخص الواحد مناصب الحكم المحلى المدنية (honores) فى مدينتين فى الوقت ذاته . ولكن عند حدوثهما فى مكانين فى وقت واحد، فإن الوطن الأصلى (origo) أولى بخدمات مواطنيه. استنتج من هذا النص أنه عند مطالبة مواطن مقيم فى غير موطنه الأصلى بتولى المناصب فى مكانين (الموطن ومحل الإقامة) فى وقت واحد، فلهذا المواطن أن يختار بينهما، ولو أن القانون يفضل الموطن . ولكن يبدو أيضا أن القانون يبيح للفرد أن يتولى الوظائف فى مكانين مختلفين إذا حدث ذلك فى أوقات مختلفة.

(١) أنظر P. Ox. 1119, (253—4 A.D) = Wilcken, Chrest 397.

(٢) أنظر P. Ox. 2130 (267 A.D); P. Flor. I. 95 (365--376 A.D.); and P. Vindob. Gr. Inv· 25—945 (242 A.D) in Wegener, The Bouleutai et , Symbola van Dven, pp. 181—182.

إلا أن القاعدة العامة أنهم لم يتولوا هذه المناصب إما لفقرهم عموما أو لأنه كان من حقهم ان يتمسكوا بالخدمة فى موطنهم الأصلى (origo) فقط وهى القرية حيث كانوا يقيمون[1] . وعلى ذلك فيمكن أن يقال إن أهم نتيجة إدارية اقانون كاراكلا أن عددا لا بأس به من أفراد الطبقات الثرية من الرومان و الأسكندريين وغيرهم المقيمين فى الريف قد أدمجوا نهائيا فى طبقة أهل عواصم النومات من المتربوليين .

(١) S.B. 7696 (250 A.D.); of. Wegener, Moemosene, (1947) pp. 115 ff.

جـ - الحياة الثقافية

نظام الأراضى :

لم يكن الإمبراطور أغسطس ولوعاً بالظهور بمظهر التأثر المغير ، بل لعله كان أكثر ولعاً بالإصلاح . دون أن يصبغه بالصبغة الثورية ، فكان حريصاً على أن يضفى على أعماله مظهرا تقليديا ، بعيدا فى الظاهر عن مظهر الثورة والتبديل ، رغم أن أعماله كثيرا ما كانت ثورية فى واقع الأمر ، جذرية فى آثارها فى عصره ومن بعده إلى زمن بعيد . وتتضح هذه السياسة بجلاء فى الخطة التى اختطها أغسطس بشأن نظام الأراضى فى مصر . فمن حيث المظهر تبدو وكأنها استمرار لنظام الأراضى البطلمى ، إذ أبقى على تقسيم الأرض بأنواعها البطلمية مستخدما نفس الإصطلاحات البطلمية فى أغلب الأحيان . فبقيت أرض مصر تنقسم أساساً إلى نوعين من الأرض : العامة التى تمتلكها الدولة ، والخاصة التى يمتلكها الأفراد . هذا من حيث المظهر فقط ، أما من حيث الواقع فإن أغسطس أسس سياسة تختلف تماما مع سياسة البطالمة الرسمية . فبقدر ما كان البطالمة يأخذون بمبدأ ملكية الدولة ممثلة فى شخص الملك ، اتجهت السياسة الرومانية الجديدة نحو تشجيع الملكية الخاصة والاستثمارات الشخصية بأنواعها المختلفة . هذه هى نقطة التحول فى الاقتصاد المصرى بين العصرين البطلمى والرومانى . فبالرغم من أن الملكية الخاصة وجدت ونمت فى العصر البطلمى إلا أنها كانت ظاهرة تسير فى عكس اتجاه السياسة الرسمية للدولة ، أما فى العصر الرومانى فإن السياسة العامة كانت تدفع نظام الملكية الخاصة دفعاً إلى الانتشار والنماء .

فى ظل هذه السياسة العامة يمكننا أن نتحدث عن كل نوع من أنواع

الأرض ونبين ما أصاب كل واحد منهـــا من تطور فى العصر الرومانى .(١)

ونبدأ بالأرض التى كانت تمتلكها الدولة وكانت تسمى عموماً الأرض العامة (gé demosia) ، وكانت تتكون أساســاً من الأرض الملكية (gé basiliké) المعروفة منذ العصر البطلمى. وظل هذا النوع من الأرض كما كان من قبل يؤجر فى شكل قطع صغيرة إلى الفلاحين الزارعــين الملكيين مقابل إيجار معلوم يقدر بنسبة معينة من المحصول السنوى للأرض .

وفى نطاق أراضى الدولة نمى نوع من الأرض عرف باسم الأرض العــامة أيضاً (gê demosia) ولكن معناه لم يتحدد بعد ، ولعل هذا النوع المعين من الأرض كان يضم قطعا صغيرة من الأرض مثل شواطىء النهر أو الزيادة التى تطرأ على مساحة الجزر النهرية ، والتى لم يتم وضعها ضمن قسم معين من أقسام الأرض الأخرى (٢) .

أما عن أرض المعابد (gé hierétiké) التى كـانت ضمن أقسام الأرض الرئيسية فى العصر البطلمى ؛ فلم يسمح أغسطس باستمرارها وصادرها وألحقهـا بملكية الدولة . ورغم أن الإصلاح القديم يظهر أيضا فى وثائق العصر الرومانى، فإن ذلك خطأ كان يرتكب عمدا بواسطة الموظفين الذين اعتادوا استخدام هذه الاصطلاحات فى أوراقهم ، واستسهلوا إطلاق الأسماء القديمة على الأرض بعد أن تغيرت صفتها الرسمية . أما عن طريقة إدارة أرض المعابد بعد استيلاء الدولة عليها ، فقد أضيفت هذه المسئولية إلى الموظف المالى المعروف باسم الإيديوس لوجوس ، الذى تولى أيضاً منصب رئيس الكهنة فى مصر . وهى أكبر

---

(١) فيما يتعلق بنظام الأراضى فى مصر الرومانية أنظر؛ Rostovtzeff, Soc: and Econ. Hist. of Roman Empire, 2nd. ed., pp. 281 ff. and notes; Wilcken, Grunzuge Vol. 1, ch. VII. pp. 287 ff.; and Johnson, Roman Egypt, pp 25 ff.

(٢) Johnson, Roman Egypt, p. 25.

خطوة اتخذها أغسطس للسيطرة على المعابد والكهنة ماديا وسياسيا(١)

ولم يكتف أغسطس بالاستيلاء على أرض المعابد ، بل استولى على أراضى أخرى وضمها إلى ملكية الدولة ، مثل الأراضى الخاصة أو التى كانت هبة من الملك البطلمى ثم أهملها أصحابها أو هجروها أو قصروا فى دفع ما كان مستحقا عليهم من الضرائب فكان من حق السلطة المركزية الاستيلاء على هذه الأراضى وضمها إلى أملاك الدولة ، وكان يشرف عليها أيضا الإيديوس لوجوس(٢).

هذه هى الأقسام الرئيسية التى كانت تشملها الأرض العامة ؛ وقد وجدت أنواع أخرى ولكنها كانت أقل أهمية من الناحية الاقتصادية ، وليس مجال الإفاضة عنها . وقد يتبادر إلى الذهن بعد ذكر هذه المصادرات المختلفة أن سياسة أغسطس لم تختلف كثيراً عن سياسة البطالمة من حيث الحرص على جعل الملكية العامة هى أساس الاقتصاد المصرى فى مجال الزراعة . ولكن فى الواقع لم تكن هذه المصادرات إلا إجراءات أولية الغرض الأساسى منها هو ضبط الاقتصاد المصرى فى أول الأمر ومنعه من التدهور الشديد كما كانت الحال فى الجزء الأخير من العصر البطلمى . لأن كل الدلائل تثبت أنه بالرغم من أن ملكية الدولة ظلت تتحكم فى قطاع هام من الأرض الزراعية ، فان الرومان انتهجوا سياسة جديدة أكيدة تهدف نحو تشجيع الملكية الخاصة بشكل لم يسبق له نظير . وكانت هذه السياسة جزءاً من سياسة أغسطس العامة فى سبيل استعادة اقتصاد البلاد . ومن أجل تنفيذ هذه السياسة لجأ إلى أساليب مختلفة ؛ من ذلك أنه اعتبر الإقطاعات العسكرية البطلمية Kleroi ملكية خاصة لأصحابها بعد أن

---

(١) P. Tebt. II. 302 (71—2 A.D.) = Wilcken, Chrest. No. 368; cf. also Wilcken, Grundz., pp. 300 ff,

(٢) Strabo, 17. 12 (c. 797. 12); P. Ox. IV. 721 (13—14 A. D.) = Wilcken, Chrest. 369.

كانت من الناحية الرسمية على الأقل هبة مؤقتة ، كما سبق أن بينا [١] . وبذلك يمكن أن يقال إن الاتجاه العام الذى ظل ينمو فى العصر البطلمى نحو خروج هذه الإقطاعات من ملكية الدولة تحقق نهائياً فى العصر الرومانى ، وعلى هذا النحو زادت الملكية الخاصة (gé idiotiké) سيادة كبيرة .

بعد أن أتم أغسطس فتح مصر مباشرة ، يبدو أنه منح جنوده الذين استقروا فى البلاد إقطاعات عسكرية لتكون ملكا لهم ، ولكن التقليد الذى اتبع بعد ذلك هو منح الجنود مكافآت مالية وتشجيعهم على شراء الأرض من الدولة بأسعار إسمية . [٢] ولم يكن بيع هذه الأراضى التابعة للدولة قاصراً على الجنود ، بل كان مباحاً للجميع ، لأن الهدف الرئيسى هو تشجيع شتى الطبقات على استثمار أموالهم فى الزراعة من أجل النهوض بحالة البلاد اقتصاديا . فقد كانت أسعار الأراضى المباعة مشجعة للغاية حتى بالنسبة لسعر الأراضى البور التى كان يتكون منها معظم هذا النوع من الأرض . ولنضرب على سبيل المثال بعض الأسعار التى أمكن جمعها من الوثائق البردية : ١٢ دراخمة للأرورا فى أوكسيرنخوس ، [٣] ٢٠ دراخمة للأرورا فى هرموبوليس ، [٤] ٢٨ دراخمة للأرورا فى تبتونس وكذلك فى كرانس (وكلاهما فى الفيوم) . [٥] وفى بردية أخرى من هرموبوليس نجد أن قطعة أرض صادرتها الدولة وباعتها بالمزاد العلنى ، قد زاد سعرها قليلا إلى ٤٠ دراخمة للأرورا . [٦] ولكى يتضح مدى

---

(١) Wilcken, Grundz; pp. 303—306.

(٢) Rostovtzeff, Soc. Ec. Hist. Rom. Emp., pp. 147 f.; Lesquier, L'Armée romaine d'Egypte, p. 328.

(٣) P. Ox. 721 (14 A.D.); P.S.I. 320 (18 A.D.).

(٤) P. Amh. 68 (60 A.D.)

(٥) S.B. V. 7599 (95 A,D); B.G.U. 422 (140 A.D.).

(٦) S.B. 5675 (147 A.D.).

انخفاض هذه الأسعار عموماً نذكر أن متوسط سعر الأرورا من الأرض الزراعية كان ١٨٥ دراخمة في القرن الأول، و٣٢٤ دراخمة في القرن الثاني.

هذه الإجراءات التشجيعية قفزت بالملكية الشخصية في الأرض قفزة كبرى منذ بداية العصر الروماني، [1] ولكن نوعاً معيناً من الملكية الخاصة يستحق مزيداً من الإفاضة هنا نظرا لأهميتها الاقتصادية، وهي الملكية الكبيرة التي عرفت باسم ousia (أو الوسية في الاستعمال الدارج الآن). والسبب في نشأتها أن الإمبراطور أغسطس، من أجل الإسراع بعملية استصلاح الأراضي على نطاق كبير — لجأ إلى أسلوب شبيه بأسلوب الملك فيلادلفوس، وإن اختلفت وسيلة التطبيق في الحالين. فبدلا من منح إقطاعات كبيرة من الأرض (doreae) إلى أصفيائه وكبار موظفيه، دعا أغسطس أفراد الطبقة الأرستقراطية في كل من روما والأسكندرية إلى أن يستثمروا أموالهم في زراعة مساحات كبيرة من الأرض في مصر. الإقطاعات أو الملكيات الكبيرة من الأرض هي التي عرفت في العصر الروماني الأول باسم «وسية» ousia، وكانت تمنح أو تباع للأفراد من الأراضي الكثيرة التي صادرتها الدولة في بداية العصر الروماني. ولقد أثبتت تجربة الوسية هذه نجاحها، كما فعلت سابقتها إقطاعات البطالمة (dorea) في القرن الثالث قبل الميلاد، ويبدو أن «وسيات» العصر الروماني لعبت دوراً كبيراً في إنعاش الحياة الاقتصادية للبلاد على أسس رأسمالية في القرن الأول الميلادي.

ويكفي النظر إلى قوائم أسماء أصحاب الوسيات لنتبين أهمية هذه الطبقة، فجميعهم أفراد ذوو ثروة وسلطان. أباطرة أو أفراد العائلة الإمبراطورية أو أصفياء الإمبراطور أو وزراء رومان أو المحررون من عبيد الإمبراطور، أو

---

(١) Johnson, Roman Egypt, pp. 14 ff.

رؤساء المجتمع الأسكندرى . وبفضل أموالهم الطائلة تمكنوا من تحويل كثير من الأراضى البور إلى أراضى زراعية تنتج ما كانت تنتجه قديماً من محاصيل . كانت الوسية من الناحية القانونية ملكية خاصة لصاحبها ، أما من حيث الضرائب فلم تكن هناك قاعدة محدودة ، ولكن تمتع أصحاب الوسيات عموماً بامتيازات مختلفة ، تدرجت بين الإعفاء من الضرائب ودفع ضرائب مخفضة . (١)

ولدينا بردية تلقى ضوءاً عن كيفية حصول أحد أفراد الأرستقراطية فى الأسكندرية على أرض وسيته ، وهو جايوس يوليوس ثيون الذى شغل مناصب كبيرة فى الدولة وابنه بالاسم ذاته ويبدو من الوثيقة أن جايوس يوليوس ثيون الكبير تقدم أصلا بطلب شراء أرض من الدولة ، وأن الوالى تورانيوس (سنة ٧ — ٤ ق . م) صرح له بشراء أرض من أملاك الإمبراطور على أن يسدد جميع استحقاقات الدولة . ولكن لسبب غير معلوم لم يتم تعيين الأرض وتسجيلها ولم يدفع المبلغ المستحق عليها . على أى حال بعد ذلك بقليل تقدم ابن الطالب الأول بطلب جديد فى عام ١٠ / ١١ م . وعين له الوالى أكويلا فى نوموس أوكسيرنخوس أرضاً كانت تنتمى أصلا إلى معبد إيزيس . ونعلم من البردية أن مجموع استحقاقات الدولة من ثيون الصغير زاد على تالنتين (٢) ، أى ما يساوى ١٢٠٠ دراخمة . فإذا ما فرضنا أن السعر الذى دفعه ثيون هو متوسط السعر الذى كان يدفع لأرض الدولة المباعة فى ذلك الوقت وهو عشرون دراخمة للأرورا ، فإن مساحة الأرض التى اشتراها تزيد على الستمائة أرورا . هذا مع العلم أن من

---

(١) خير عرض لموضوع الوسية فى بداية العصر الرومانى هو مؤلف : Rostovtzeff, Soc. 1 Ec. Hist. of Rom. Emp., 2nd ed., pp. 292 ff., esp. notes 45 and 46. See also P. Philad. No. 19 (I—II cent. A.D,).

(٢) P. Ox. XII. 1434, lines 6—17 (7—4 B. c.—11 A.D.)

المحتمل أن السعر كان أقل من ذلك بسبب كبر حجم الأرض – وكانت هذه الوسيات الكبيرة تعتبر وحدات اقتصادية هامة في الريف المصرى ، وكان يديرها وكلاء عن أصحابها الذين كانوا يقيمون عادة بعيداً عن أرضهم فى الأسكندرية أو روما . وكثيراً ماقامت على الوسية حركة صناعة نشطة تعتمد على منتجات الأرض ، مثل صناعة الزيوت ، والخمور من الزيتون والأعناب التى تنتجها الوسية .

على أن هذه الموجة من ملكية الوسية لم تستمر كثيراً بنفس هذه القوة ، إذ سرعان ما تغيرت النظرة الرومانية الرسمية نحو الملكيات الكبيرة التى يمتلكها أفراد لا يقيمون فى البلاد ، واتجهت السياسة نحو قصر تمليك الأرض على سكان البلاد . ولذلك لم ينته القرن الأول الميلادى إلا وكانت معظم وسيت أعضاء الأسرة الإمبراطورية والأرستقراطية الرومانية قد آلت إلى ملكية الإمبراطور الشخصية إما عن طريق وراثتها أو مصادرتها حين يموت صاحب الأرض أو لأى سبب آخر . مجموع هذه الأراضى التى استولى عليها الإمبراطور أصبحت تكون قطاعاً جديداً من قطاعات الأرض فى مصر الرومانية يعرف باسم gé ousiaké (رغم أن الأراضى استمرت تحمل أسماء أصحابها الأصليين) .

ولكن يجب ألا نستنتج أن موجة مصادرة الوسية فى نهاية القرن الأول قضت على ظاهرة الملكيات الكبيرة فى مصر(١) ، فوثائق القرن الثانى الميلادى تثبت أن كثيراً من الملكيات الكبيرة استمرت موجودة من القرن الأول ؛ مما يدل على أن أثرياء الأسر فى الأسكندرية والريف المصرى ظلوا محافظين على

(١) كما ذهب كل من : Rostovtzeff. Soc. Ec. Hist. Rom. Emp, 294—5, and Johnson and West, Byzantine Egypt, p.39 f

ملكياتهم الكبيرة التي حصلوا عليها في بداية العصر الروماني[1] . نتيجة لذلك كله نستنتج أن سياسة روما الجديدة في مصر وهي بيع الأراضي المصادرة سواء في مساحة كبيرة أو صغيرة أدت في النهاية إلى زيادة الملكية الخاصة زيادة لم يسبق لها مثيل .

أما عن أرض المدن الإغريقية ، فقد استمرت أيضاً في العصر الروماني ، وزادت أيضاً عن ذي قبل بسبب زيادة هذه المدن ، أولا بإنشاء مدينة أنتينوبوليس سنة ١٣٠ ؛ ثم بعد ذلك حين أصبحت عواصم النومات (المتروبولات) مدناً ، لها نظام المدن الإغريقية ، بفضل إصلاح سبتميوس سفيروس في بداية القرن الثالث . فجميع هذه المدن منحت قطعاً من الأرض خاصة بها وأصبحت تسمى بالأرض المدنية gé politiké .

من سوء الحظ أننا لا نمتلك من العصر الروماني وثيقة توضح مدى انتشار الأنواع المختلفة في الأرض في مصر ، ولكن دراسة حديثة لمجموع وثائق هذه الفترة تبين أن نسبة الأرض الخاصة للأرض العامة كانت ٥٠ : ٥٠ خلال القرنين الأولين ؛ مع ازدياد نقصان مساحة الأرض العامة بصورة مضطردة حتى تختفي تماماً في القرن الرابع[2] .

وتبين دراسة أحوال الأرض في القرن الثالث كيف حدث هذا التطور . فإن ظروف الاستقرار والرخاء التي عمت الإمبراطورية الرومانية في أثناء القرن الثاني لم تستمر إلى القرن الثالث حين تعرضت الإمبراطورية الرومانية لأزمات

---

(١) أمثلة من الملكيات الكبيرة توجد في : P. Strassb. I. no, 3; 24; 74-5; 78 (c. 118 A.D); P.R. Univ. Milan. No. 28 (162—3 A.D.); P-S.I. I, 31 (164 A.D.). and B.G.U. I. 603—4. (167—8 A.D.); B.G.U. III. 959 (148 A.D.) and P. Berl. Leihg. No. 18 (163 A.D.).

(٢) أنظر : A. Segré: The Byzantine Colanate, in Traditio, 5 (1947) pp. 103—133, esp. pp. 130—131,

سياسية متتالية أجحفت بالأحوال الاقتصادية كل الضرر مما جعل المؤرخين يطلقون على هذا القرن اسم فترة المحنة الكبرى . ولم تسلم مصر من آثار تلك الأحداث العامة فى الإمبراطورية ؛ وبدا ذلك واضحاً منذ الجزء الأخير من القرن الثانى حين بدأ النظام الإدارى فى مصر يتكشف عن عيوبه ، وتحول نظام تولى الوظائف العامة من الاختيار إلى الإلزام ، وطبق نظام الخدمة الجبرية على معظم الوظائف فى الإدارة المحلية . وقد شرحنا فى فصل سابق كيف أصبح من المتعذر أن يقدم عدد كاف من أصحاب الأملاك على تولى الوظائف فى المتروبولات بدافع من رغبتهم الشخصية ، حتى اضطر الإمبراطور سيفيروس فى أول القرن الثالث إلى أن يقوم بإصلاحه المشهور وهو تعميم نظام المجالس boulac فى الأسكندرية والمتروبولات ، وإلقاء تبعة شغل وتمويل الوظائف المحلية على أعضاء هذه المجالس ، على أنهم مسئولون مسئولية جماعية .

ولما كانت الملكية الخاصة هى الضمان الأساسى لتولى الوظائف ، ازدادت نتيجة لذلك أهمية الملكية الشخصية ، فزاد حرص طبقة ملاك الأراضى على زيادة أملاكهم ليتمكنوا من القيام بالمسئوليات الإدارية التى أصبحت تفرض عليهم فرضاً . فزادت الملكيات الكبيرة بشكل ملحوظ ، وأصبحت « الوسية » من مظاهر الأرض المألوفة فى هذا القرن (١) . وقد ساعدت ظروف مختلفة من تمكين الأثرياء من شراء الأراضى على نطاق كبير من بين تلك الأسباب أن القانون يقضى بأن الشخص الذى يرشح لتولى أحد المناصب ويرفض توليها كان يفقد ثلثى ممتلكاته للدولة ، التى كانت تستولى عليها ، وتبيعها بالمزاد العلنى . ونظراً لاضطراب الأحوال الاقتصادية العامة فقد كثير من متوسطى وصغار الملاك أرضهم عن هذا السبيل . ومن الطبيعى أن يتمكن الأفراد الأكثر ثراء

(١) أنظر : Rostovtzeff, Soc, Ec. Hist. R. Emp. pp. 489 ff and notes

من شراء الأرض التي تستولي عليها الدولة وتبيعها بالمزاد العلني [1] . وأحيانا أخرى تورط متوسطو وصغار الملاك في ديون اقترضوها من كبار الملاك ، فإذا ماعجز هؤلاء المدينون عن سداد ديونهم - وكثيراً ما حدث هذا - استولى الدائنون على بعض أملاكهم التي يقدمها المدينون هنا . ضمانا لديونهم [2] ،

ولقد وجدت كذلك السبل العادية للحصول على الأملاك عن طريق الشراء والميراث ، ولكن كثرة تكرار الظروف التي يضطر فيها الأفراد إلى التخلي عن أملاكهم هي التي تكشف عن عدم الاستقرار في المجتمع . ففي مثل هذه الظروف يتمكن الأفراد الطموحون من أصحاب الثروة من زيادة ملكياتهم على حساب صغار الملاك ؛ وهو ما حدث في القرن الثالث الميلادي ، حتى إذا ما جاء القرن الرابع رأينا أن الملكية الكبيرة هي الطابع المميز للحياة الزراعية في مصر .

الصناعة والتجارة :

لئن كان الاحتلال الروماني قد قضى على كل سيادة سياسية لمصر ، فإنه لم يصب اقتصادها بنفس الأثر ؛ بل على العكس من ذلك بذل الرومان جهوداً كبيرة في سبيل إنعاش البلاد اقتصادياً ، لأن جزءاً كبيراً من فوائد ازدهار الحياة الاقتصادية في مصر ، كان يذهب إلى روما ذاتها سواء عن طريق الضرائب أو عن طريق أرباح كبار المستثمرين من الرومان . وكما شجعت الإدارة الرومانية الملكية الخاصة في المجال الزراعي ، كذلك شجعت سياسة الاقتصاد الحر في كثير من أوجه الصناعة والتجارة ، ولو أننا لا نعرف معرفة يقينية مدى تطبيقهم لهذه

(١) أنظر مثلا: P.Ox. III. 513 (184 A.D.); and XX. 2269 (269 A.D).

(٢) P.Apokrimata, lines 16 ff.; P.Giss. 34 (265 6 A.D); P.S.I. XIII. 1328 (201 A,D.); P. Lips. I. 10 (240 A.D). P. Flor. I. 56 (234 A.D), P. Lips. 9 (233 A.D).

السياسة الجديدة . فبينما بقيت المناجم مثلاً محتكرة بواسطة الدولة، تركت صناعة الزيت حرة فى أيدى الأفراد ؛ فى حين أن الإدارة الرومانية مارست درجات مختلفة من التحكم والإشراف على صناعات أخرى مثل النسيج، والبردى والطوب والجعة[1].

ويبدو أن سياسة الرومان من ناحية وظروف الإمبراطورية العامة التى انتشر فيها السلام مدى قرنين من الزمان وموقع مصر المتوسط بين الولايات ثم موقعها على طريق التجارة بين الشرق والغرب ، كل ذلك ساعد على ازدهار الصناعة والتجارة بها على نحو لم تبلغه مصر من قبل . ويكفى أن نقول أن الأسكندرية أصبحت أكبر مركز للصناعة والتجارة فى الإمبراطورية الرومانية بأسرها . ولدينا نص يصف الحياة الصناعية فى لأسكندرية بهذه العبارات : « إنها مدينة غنية تتمتع بالثراء والرخاء ، ولا يوجد بها عاطل عن العمل ، فالبعض يعمل فى صناعة الزجاج ، وآخرون يعملون فى صناعة أوراق البردى وكثيرون يعملون إما فى صناعة النسيج أو فى أية حرفة أو صناعة أخرى ، حتى أصحاب العاهات من العجزة والخصيان والعميان كل له عمله ، حتى من فقدوا أيديهم لا يقضون حياتهم عاطلين هناك . الجميع يعبد إلهاً واحداً هو المال ، هذا الإله يعبده المسيحيون واليهود وكل طائفة أخرى فى الواقع[2] » إن البيئة الصناعية التى تصفها هذه العبارة ذات أهمية بالنسبة لدراستنا ، نظراً لأنها تذكر الصناعات الرئيسية التى عرفت بها مصر وليست الأسكندرية فقط ، وهى صناعات الزجاج والبردى والنسيج . فنحن نعرف أن المصريين القدماء تخصصوا فى صناعة الزجاج منذ

---

(١) خير عرض لصناعة مصر فى العصر الرومانى هو: Johnson, Roman Egypt, pp. 325 ff.

(٢) ينسب هذا النص الى الإمبراطور هادريان فى مجموعة سير الأباطرة الرومان المعروفة باسم Historis Augusta, Saturninus, VIII. 5—7 ، ولكن من الثابت أن هذه النسبة غير صحيحة وأنه من وضع أحد مؤلفى المجموعة. ومع ذلك فلهذا النص أهميته لأنه يلقى ضوءاً على الحياة الصناعية فى الأسكندرية .

أقدم العصور ، وأنهم ارتقوا بصناعته إلى درجة عالية من الإتقان حتى أنه كان يصدر إلى مناطق مختلفة من البحر الأبيض . ويبدو أن مصر تمكنت من المحافظة على تفوقها فى هذه الصناعة فى العصر اليونانى والرومانى[١] ؛ فهذا استرابون الجغرافى الذى زار مصر فى بداية العصر الرومانى يذكر أن صناع الزجاج فى الأسكندرية كانت لهم أسرار خاصة بصناعتهم ، وأن تربة مصر كانت تحوى مادة معينة تصلح لصناعة الزجاج المتعدد الألوان[٢] . ومن كتاب القرن الثانى يذكر أثينايوس أن صناع الزجاج فى الأسكندرية ارتقوا كثيراً بصناعتهم ليحافظوا على مكانتهم فى الأسواق الخارجية أمام المنافسة الأجنبية ، ومن ذلك أنهم صنعوا الزجاج على أشكال مختلفة محاكين فى ذلك أشكال الأوانى الفخارية التى كانت ترد إليهم من الخارج[٣] .

أما صناعة ورق البردى وتصديره إلى الخارج فقد ظل احتكارا لمصر دون أن تخشى أى منافسة أجنبية فى هذا المجال . ولقد أدرك البطالمة من قبل مركز مصر الفريد ذلك وتمكنوا من التحكم فى أسعار البردى فى الأسواق العالمية عن طريق احتكار انتاجه فى الداخل وتصديره إلى الخارج . ولكن الرأى انقسم بين العلماء حول سياسة الإدارة الرومانية فى مصر من هذه السلعة والسبب فى ذلك هو أن مصادرنا الأدبية لم تكن واضحة فيما يتعلق بهذه النقطة . فالكاتب الرومانى بلينيوس الكبير[٤] رغم الوصف المفصل الذى يورده عن صناعة البردى فى مصر — لا يذكر شيئاً عن سياسة الحكومة . وأما الجغرافى استرابون فله جملة اختلف فى معناها ، وهى قوله « هناك فئة ممن يريدون زيادة دخولهم...

---

(١) أنظر : Johnson, Roman Egypt, pp. 336—7, and note 3

(٢) Strabo, 16, 2, 25.

(٣) Athenaeus, XI, 784. C.

(٤) Pliny, Natura Historia, 13, 11—12.

ولذا لا يسمحون بنمو البردى فى مواضع كثيرة، مما يؤدى إلى ندرته التى ينتج عنها ارتفاع أسعاره ، وبذلك تزداد دخولهم ، بينما هم يسيئون إلى الصالح العام[1] » ومن العلماء من يفسر هذه العبارة على أنها تصف سياسة المسئولين الرسميين، ومنهم من رأى أنها تصف كبار الرأسماليين المنتجين للبردى . والفرق الأساسى بين وجهتى النظر أن أصحاب الرأى الأول يذهبون إلى أن الرومان أقاموا احتكارا حكوميا لإنتاج البردى[2] ، أما أصحاب الرأى الأخير فيذهبون إلى أن إنتاج البردى فى العصر الرومانى كان حرا دون أن يخضع لاحتكار حكومى[3] . ولقد جاءت اكتشافات الوثائق البردية الحديثة مؤيدة لهذا الرأى الأخير وأن زراعة البردى وصناعته كانت حرة على الأقل فى بداية العصر الرومانى . ويبدو أن الإدارة الرومانية بدلا من أن تتدخل فى إنتاج البردى وتجارته تدخلا مباشرا ، اقتصرت فيما بعد على أن تفرض ضريبة مالية على البردى(chartera)[4] وضريبة نوعية أخرى منه(anabolica species)[5] تجبى سنويا وترسل إلى روما ولعلها كانت من الحجم بحيث تكفى حاجة العاصمة .

الصناعة الكبرى الثالثة هى صناعة النسيج وكانت من أكثر الصناعات انتشارا فى مصر ، وقلما خلى منزل من منسج لنسيج حاجة الأسرة إلى الملابس .

---

(١) Strabo, 17. 1. 15.

(٢) أنظر : Wilcken, Grundz. pp. 55—6; Walbank, Decline of the Roman Empire, p. 12.

(٣) Lewis, L'Industrie du Papyrus, 101 ff., Johnson, Rom. Eg. 329.

(٤) B.G.U. IV. 1121. and 1146 (augustan age).

(٥) S.B. 5636 (2nd cent. A D.)- P. Mich. II. 123 (45 A.D.) P. S'rassb. I. 59 (228 A.D.).

ولكن إلى جانب الصناعة المنزلية وجدت مصانع تخصصت فى إنتاج أنواع راقية من المنسوجات التيلية التى اشتهرت بها مصر منذ أقدم العصور . ويخبرنا بلينيوس الكبير عن تقدم هذه الصناعة فى مصر أن الأسكندرية اشتهرت بنوع التيل المزين بالرسوم والذى كان يصنع بنسج عدد من الخيوط معاً ويسمى لذلك « polimita »(۱) . ونحن نعرف أن المنسوجات المصرية كانت واسعة الانتشار فى الخارج وأنها كانت تصدر بكميات كبيرة إلى الأسواق الشرقية فى بلاد العرب والهند وكذلك إلى مواطن متعددة فى البحر الأبيض المتوسط . ولم تكن صناعة النسيج من أجل التصدير مركزة فى الأسكندرية فحسب ، بل يبدو أنها وجدت فى مراكز أخرى من مصر على قدر عظيم من النشاط والتقدم وكانت منطقة الفيوم إحدى كبريات هذه المراكز التى تخصصت فى تصدير إنتاجها إلى الأسواق الشرقية فى بلاد العرب والهند . وبقدر ازدياد التجارة الشرقية فى النشاط فى العصر الرومانى ازدادت صناعة النسيج المصرية قوة وإنتاجاً ، حتى أن الكاتب بلينيوس الكبير اعتقد أن مصر دفعت قيمة وارداتها من الهند وبلاد العرب عن طريق تصدير المنسوجات التيلية(۲) .

ولكن ترى ماذا كان موقف الحكومة الرومانية من هذه الصناعة الهامة ، هل احتكرتها أو تركتها حرة فى أيدى الأفراد . نحن نعرف أن هذه الصناعة لها أهمية خاصة بالنسبة للرومان ، لحاجتهم المستمرة إلى كميات كبيرة من الملابس لأفراد الجيش ، ولذلك من صالحها التحكم فى إنتاج النسيج . ومع ذلك فلم تلجأ إلى سياسة الاحتكار الكامل بل لجأت انتهاج سياسة محكمة تحقق الإشراف الكامل عليها . وتتلخص هذه السياسة أولا فى امتلاك المصانع الخاصة

---

(۱) . Historia Augusta, Aureliani, 45. 1.

(۲) Plinius, Natura Historia, XIX. 7- The Periplus, 8 (See translation of W.H. Schaff). P. Hawara, 208.

بها .[1] أما سائر المشتغلين بالنسيج فى مصر فقد أخضعتهم الإدارة لإشرافها التام ، عن طريق جميع النساجين — مثل غيرهم من العمال والصناع — نقابات خاصة بهم حسب كل مدينة أو قرية[2] ، وبعد ذلك عاملتهم معاملة خاصة فيها شيء من الامتياز عن كثير من فئات العمال الآخرين ، وهو إعفاء النساجين من القيام بالأعمال الإجبارية ، (liturgia) ، وذلك نظراً لفائدتهم بالنسبة للخزانة .[3] ولم يكن الهدف من ذلك التنظيم هو حماية النساجين ولكن للاستفادة منهم حسب حاجة الدولة . ولذلك فرضت عليهم ضرائب مالية ونوعية يدفعها النساجون وأصحاب المصانع للدولة[4] ، وحين لاتفى هذه الضرائب بحاجة الدولة ، كانت تفرض عليهم كميات إضافية أخرى[5] .

هذه هى الصناعات الكبرى التى كانت تقوم عليها تجارة مصر الخارجية ، ولكن وجدت إلى جانبها صناعات أخرى ذات أهمية تجارية وازدهرت بصفة خاصة فى العصر الرومانى وهى صناعات التوابل والعطور وكذلك الصناعات الفنية الصغيرة . فيما يتعلق بصناعة العطور فلمصر شهرة قديمة فيها وكثيرا ماصدرت العطور والروائح معبأة فى زجاجات صغيرة فى العصر الفرعونى . أما التوابل فإن التجارة الشرقية جلبت الكثير منها إلى مصر حيث تم تصنيعها ثم أعيد تصديرها إلى روما وسائر ولايات الإمبراطورية .

---

(١) Johnson, Roman Egypt, pp. 333.

(٢) A. E. R. Boak, The Organisation of Guilds in Greco Roman Egypt T.A.P.A., 68 (1937) 212—220; Johnson, Roman Egypt, pp. 392 ff. and nos 247—255.

(٣) P. Ox. XXII. 2340, lines 8—10.

(٤) P. S. I., IX. 1060 (201 A. D.); Historia Augusta Aurelian, 45. 1.

(٥) P. Ox. XIX, 2230 (119 A. D.); B. G. U. VII. 1572. (139 A. D.)

أما الصناعات الفنية الصغيرة مثل صناعة التماثيل واللعب والآلات الموسيقية فهى قديمة ولكن فى العصر اليونانى والرومانى اكتسبت أهمية خاصة وصنعت للإنتاج الكبير من أجل التصدير للأسواق الخارجية وفى ظل الحكم الرومانى حينما فقدت الفنون حماية وتشجيع القصر الملكى والمعابد، وجدت تعويضاً عن ذلك من الناحية المالية فى زيادة الطلب من الخارج للأعمال الفنية . ولقد كشفت الحفائر الأثرية فى ممفيس عن التوصل فى هذا العصر إلى استخدام أساليب صناعية جديدة من أجل الإنتاج الكبير (mass production) عن طريق استخدام القوالب فى صنع أعداد كبيرة من التماثيل البرنزية والجيرية من مختلف الأحجام . (١) وتثبت الحفائر الحديثة عن سعة انتشار هذه المصنوعات الفنية وما يماثلها بين أفراد الطبقة البورجوازية فى أنحاء الإمبراطورية . (٢) لم تقتصر الحياة الصناعية فى مصر الرومانية على الإنتاج من أجل التصدير ولكن وجدت كذلك صناعات قديمة أخرى مثل الأخشاب والمطاحن والزيوت والخمور والمعادن ، وهى صناعات ضرورية للاستهلاك المحلى الداخلى وهو استهلاك كبير . ونحن نعرف مثلا مدى الاهتمام الذى أبداه البطالمة فى تطبيق إحتكار صناعة وتجارة الزيت داخلياً ، هذه الصناعة استمرت أيضاً فى العصر الرومانى ولكن على أسس جديدة ، وهى تركها فى أيدى الأفراد بعيداً عن احتكار الدولة ، التى اكتفت بفرض الضرائب على مثل هذه الصناعات . أما صناعة الخمور فكانت دقيقة الاتصال بانتشار بساتين الفواكه والكروم

(١) أنظر الدراستين الأساسيتين
C. C. Edgar, Greek Moulds; and id. Greek Bronzes

(٢) Dorothy Kent Hill, An Egyptian Sculptural Type and Mass' Productian of Bronze Statuettes, Hesperia, 27 (1958) 311 ff.; of. Sir Mortimer Wheeler, Rome Beyond the Impeial Frontiers, 200—201 (Penguin ed. 1955)

التى أقبل الإغريق على زراعتها إقبالا كبيرا منذ أن حضروا إلى مصر . وبلغ من وفرة إنتاج الخمور فى هذا العصر وخاصة بواسطة أصحاب الملكيات الكبيرة من الأرض حتى أن الخمر كانت تدفع للعمال والمزارعين مقابل جزء من أجورهم.(١) ولقد أدى نشاط صناعة الزيت والخمر على هذا النحو إلى ازدهار صناعة أخرى لازمة بهما وهى صناعة الأوانى الفخارية ، فوجدت مصانع لصناعة الفخار وإنتاجه بكميات كبيرة وأحجام وأنواع مختلفة تصلح للأغراض المختلفة .(٢)

التجارة :

قامت هذه التجارة الضخمة فى العصر الرومانى استجابة لحاجيات تجارة عالمية لم يعرف لها مثيل من قبل ، ومامن شك أن الإمبراطورية الرومانية التى وحدت العالم القديم ويسرت الانتقال من إقليم إلى إقليم كانت من أكبر أسباب ازدهار التجارة العالمية . وكان من الطبيعى أن تحتل مصر مركز الصدارة فى هذه التجارة نظراً لموقعها المتوسط الممتاز على طريق التجارة بين الشرق والغرب ، ولامتلاكها سواحل طويلة على كل من البحر الأحمر والبحر الأبيض . ولذلك لم يكن مستغربا أن تصبح الأسكندرية ، ميناء مصر الأولى، « أكبر مركز تجارى فى العالم بأسره » .(٣) إذ لم تقتصر تجارة مصر الخارجية التى تركزت فى الأسكندرية أساساً على ماتنتجه مصر محليا ، فقد كان يؤتى بالبضائع إلى مصر من كل قطر خارجى ثم يعاد تصنيعها وتصديرها ثانية إلى الأسواق الخارجية . ولذلك حضر إلى الأسكندرية تجار من جميع أرجاء

---

(١) أنظر مثلا P. Flor. III. nos 321—322.

(٢) فيما يتعلق بهذه الصناعات راجع فصل الصناعة فى كتاب Johnson Roman Egypt.

(٣) Strabo, 17. 1. 13 (C. 798)

العالم القديم ليعقدوا صفقاتهم من أجل شراء البضائع المصرية والأجنبية على السواء .[1]

وكانت مصر معدة للقيام بدورها أحسن إعداد بفضل موانيها البحرية وخاصة الأسكندرية . ولقد أدرك القدماء هذه الحقيقة ، فكتب استرابون عن مدينة الأسكندرية فقرة تعتبر من أقيم التعليقات القديمة المعاصرة فى مجال الحياة الاقتصادية ، فيقول : « تقع الأسكندرية على بحرين ، من ناحية الشمال يوجد البحر المصرى - كما كان يسمى - ، ومن ناحية الجنوب توجد بحيرة ماريا أو مريوط . وتملأ هذه البحيرة عدد من القنوات المتفرعة من نهر النيل ، سواء من الناحية العلوية أو من الجوانب . وما يرد إلى المدينة عن طريق هذه القنوات يفوق كثيرا ما يأتى من البحر ، حتى أن الميناء الواقع على البحيرة أغنى من الميناء البحرى . وكذلك فى هذا الميناء البحرى تفوق تجارة الصادر من الأسكندرية تجارة الوارد . ويستطيع الإنسان أن يرى بنفسه لو أنه وقف عند الأسكندرية أو دكيارخيا (Dicaearchia وهى حالياً بثيولى Puteoli ميناء إيطاليا الرئيسى فى ذلك الوقت) ، كيف أن حمولة السفن تختلف ثقلا وخفة عند مجيئها وذهابها » .[2]

---

(١) المصادر الأساسية القديمة هى : Pliny. Nat. Hist. VI 101 sq.; the Periplus of the Erythraean Sea, translated by schoff (1912); Strabo, II. 101; XVII. 728.

أما الدراسات الحديثة فكثيرة وأهمها : Wilken, Grundz., 262 ff.; Johnson, Rom. Eg. 325 ff.; L. C. West, Phases of Commercial Life in Roman Egypt, J.R.S. VII. (1917) 95—58; E. Leider, Der Handel von Alexandreia (1933); E.H. Warmington, The Commerce Between the Roman Empire add India (1928); M. P. Charlesworth, Trade Routes and Commerce of the Roman Empire (1924) esp. chapters 2 and 4.

(٢) Strabo, 17. 1. 7 (C. 793); and 17. 1. 9 (C. 794).

فى هـذه الفقرة يتحدث استرابون عن الظروف فى الأعوام الأولى من الإمبراطورية ، وهى فترة جديدة فى تاريخ مصر وتاريخ العالم ، ولذلك فإن ما يلاحظه عن اختلاف طبيعة النشاط فى الشحن بين الميناء الداخلى والميناء الخارجى فى الأسكندرية له أهمية خاصة . فهو يقرر حقيقة هامة بالنسبة لتجارة مصر الخارجية فى التاريخ القديم وهى أن صادرات مصر كانت تزيد كثيراً عن حجم وارداتها من البضائع . ولم تقتصر هذه الحقيقة على العصر الرومانى ، بل سادت فى جميع التاريخ القديم ، والسبب فى هـذه الظاهرة هو أن مصر تمتعت قديماً باكتفاء ذاتى فيما يتعلق بمواد الغذاء ، التى توفر لديها مزيد منها ، والتى كانت تصدره وخاصة القمح ، وتستورد بدلاً منه فضة وخشباً وبدرجة أقل مواد مصنوعة. ولكن تجارةالتصدير من مصر شملت أيضاً بضائع جيء بها أصلا من أفريقيا وبلاد العرب والهند ، مثل العاج والبخور والمنسوجات القطنية وغيرها. وما من شك أن مثل هذه التجارة قديمة ، ولكنها فى عصر الأسرة البطلمية ازدادت تركيزاً وأهمية ، ومرت جميعها من الأسكندرية ، بفضل الشبكة المتقنة من القنوات التى كانت تصل الأسكندرية عن طريق بحيرة مريوط بجميع أجزاء القطر المصرى وجعلت النقل بين البحر الأحمر والأسكندرية سريعاً ومنتظماً .

أما فى عصر الإمبراطورية الرومانية فقد طرأ على هذه الظروف تطوران هامان جديدان . فمنذ أن ألحقت مصر بدولة روما ، تغيرت طبيعة صادرات مصر إلى البحر الأبيض المتوسط ؛ إذ لم تعد جميع البضائع تخرج من الأسكندرية لتباع فى أسواق البحر الأبيض وتتقاضى مصر ثمنها فضة أو عن طريق المبادلة ببضائع أخرى . لأن صادرات مصر الآن انقسمت إلى نوعين: أحدهما للتجارة، والآخر هو الضريبة النوعية التى كان على مصر أن تدفعها لروما سنويا ، وكان أهم مقوماتها القمح. ولذلك كادت تقتصر تجارة مصر الخارجية فى البحر الأبيض المتوسط على الكماليات المرتفعة الثمن ، التى كانت تستورد من الشرق وتصنع فى مص

ثم يعاد تصديرها إلى إيطاليا وسائر بلدان البحر الأبيض .

أما فيما يتعلق بتجارة الجنوب والشرق فقد زادت أضعافا مضاعفة فى القرنين الأولين من الإمبراطورية ، أولا بسبب اكتشاف الرياح الموسمية فى المحيط الهندى بواسطة هيبالوس حوالى القرن الأول ق.م(١) فأعان هذا الاكتشاف بحارى الأسكندرية أن يتخذوا طريقا مباشراً عبر المحيط بين مخرج البحر الأحمر الجنوبى ومصب نهر السند وملابار (Malabar) بدلا من السير بسفنهم بحذاء الساحل . إن الاكتشاف الجديد على العموم أدى إلى سرعة السفر بحيث أصبح ممكنا الآن إتمام الرحلة بين مصر والهند ذهابا وإيابا فى العام نفسه ، وهو ما لم يكن ممكنا من قبل(٢) .

وثانيا كان لسياسة أغسطس نحو حرية الاقتصاد آثار هامة فى إنعاش الحياة الاقتصادية فى الإمبراطورية . أما فى مصر فإن السياسة الجديدة كانت تعنى إحلال سياسة الاحتكار البطلمية بحركة إنعاش رأسمالية فى مجالات الزراعة والصناعة والتجارة وعلى ذلك فإن اكتشاف الرياح الموسمية الجديدة إلى جانب السياسة التى طبقها الرومان فى تشجيع الاستثمار الحر سمحت للأثرياء فى مصر أن يستثمروا أموالهم فى التجارة الشرقية على نحو لم يعرف من قبل ؛ فنتج عن ذلك زيادة كبيرة فجأة فى حجم التجارة الشرقية . ولقد تركت هذه الزيادة المفاجئة فى التجارة الشرقية آثارها فى الحال فى تجار البحر الأبيض المتوسط ولاحظها الكتاب المعاصرون وهذا استرابون مرة أخرى يمدنا بملاحظاته عن الظروف التجارية الجديدة فيقول : « لئن كان دخل مصر السنوى فى الماضى (فى العصر

---

(١) Periplus, 57; Plinius, Nat-Hist. VI. 100 sqq.; cf. Warmington The Commerce, 35 ff.

(٢) أنظر وصف الرحلة فى Plinius. Nat-Hist. VI. 101—106 ؛ وهناك حساب للمسافة والزمن فى Warmington, op. cit. 48 ff.

البطلمى المتأخر) هو ١٢٥٠٠ تالنتوم ، فترى كم يصل دخلها الآن (زمن الإمبراطورية) ، حينما أصبحت تدبر شئونها بعناية فائقة ، وحينما زادت التجارة مع الهند والصومال زيادة كبيرة . فلم تزد السفن التى كانت تسير فى البحر الأحمر ولم تتعد خليج العرب عن عشرين سفينة ، أما الآن فإن الأساطيل الكبيرة تسير إلى الهند وإلى أقصى حدود أثيوبيا ، ومن هناك تعود محملة بأغلى البضائع إلى مصر ، ثم توزع من مصر إلى سائر البلاد . وهكذا تجنى مصر ضريبة مزدوجة على البضائع حين ترد إليها وحين تصدر منها ، وترتفع الضريبة بقدر ارتفاع ثمن البضائع . »[1] وفى موضع آخر يذكر استرابون أن الفضل فى زيادة معلوماتنا عن البلاد الشرقية يرجع إلى تجار الأسكندرية ويضيف أن لهم أكثر من مائة وعشرين سفينة تعمل فى تجارة الهند الشرقية[2] . أى أن عدد السفن زاد ستة أضعاف . ولكن يجب أن نذكر أن الزيادة لم تقتصر على عدد السفن فحسب ، بل إن حجم السفن ذاتها زاد كثيراً ، وأصبحت السفن المستخدمة فى البحار الشرقية ذات أحجام أكبر وقدرة أكثر فى سرعة الملاحة[3] .

هذه التجارة الضخمة بين الشرق والغرب مر جزء كبير منها بمصر بين موانى البحر الأحمر والأسكندرية ؛ وفى الأسكندرية تجمع التجار من مصر وخارج مصر من كل قطر . وما من شك فى أن عدد التجار الأجانب كان كبيراً ولكن يبدو أن أقوى عنصر بينهم سماسرة كبار المستثمرين الرومان . ونحن نعرف مدى أهمية كبار المولين الرومان فى نهاية العصر البطلمى ، كما فى مثال رابيريوس Rebirius وعلاقاته بالقصر البطلمى ؛ ويمكننا أن نتصور مدى ازدياد أهميتهم بعد ضم مصر إلى الإمبراطورية . ومع ذلك فيبدو أن هؤلاء

---

(١) Strabo, 17. 1. 13 (C. 798)
(٢) Strabo, 2. 5. 12 (C. 118)
(٣) Periplus, 10 and 56; Plinius, Nat-Hist. VI. 82.

المولين لم يكونوا خطراً شديداً على التجار المصريين ، لأن جهود المولين الرومان كانت موزعة على مراكز تجارية أخرى فى البحر الأبيض مصر وسوريا وآسيا الصغرى والغالة ، فى الوقت الذى احتكر تجار مصر وخاصة كبار التجار من الأسكندرية تجارة الشرق البحرية ، كما أن أساطيلهم التجارية الكبيرة مكنتهم من الاشتراك فى تجارة البحر الأبيض بنصيب وافر[1] .

أما فى تجارة البحر الأحمر والهند فلم يكن هناك منافسة حقيقية تهدد سيطرة الأسكندريين عليها ، لأن عرب الجزيرة العربية قصروا نشاطهم على تجارة القوافل البرية ، ولا يعرف سوى تجار تدمر (Palmyra)وبعض الرومان فقط الذين شاركوا فى تجارة البحر الأحمر ، ومن المستبعد أن هؤلاء كونوا خطراً حقيقياً طوال العصر الرومانى لأن تجار تدمر تخصصوا فى تجارة القوافل البرية أكثر من التجارة البحرية . من ذلك نرى أن تجار الأسكندرية احتكروا لأنفسهم تقريباً التجارة الشرقية ، حتى أنه أصبحت الأسكندرية والأسكندريون فى الهند بمثابة رمز للعالم الغربى بأسره بدلا من روما والرومان[2] . ويبدو أيضاً أن اسم الأسكندرية كان أسبق الألفاظ الغربية فى الوصول إلى الصين ، حتى لقد اقترح أحد الباحثين مؤخراً أن كلمة « ليجيين » (Li-jien) كانت كلمة صينية محرفة عن كلمة الأسكندرية وأنها تعنى أصلا أسكندرية مصر[3] .

من العسير أن نعرف على وجه التحديد قيمة هذه التجارة الشرقية ومقدار الفائدة التى عـــادت على مصر منها ، ولكن لحسن الحظ تذكر بعض المصادر المعاصرة معلومات قد تكون لها قيمتها فى تقريب الصورة إلى عقولنا .

---

(١) أنظر West, Phases of Commercial life, J.R.S., 7 (1917) 77 8

(٢) Warmington, The Commerce, p. 68.

(٣) H. H. Dudo, A Roman City in Ancient China, London (1957) 2.

وأهم مصدر هو الكاتب بلينيوس الذى يقول إن قيمة واردات الإمبراطورية من الهند وسيريس (seres) وبلاد العرب تربو على مائة مليون سستركيس (sesterces) ، ويضيف بعد ذلك قوله « هكذا ندفع غالياً من أجل كالياتنا ونسائنا » . [1] ولكن نعلم أن نحواً من نصف هذه التجارة كان يسلك طريق القوافل براً إلى الموانى السورية ، أما عن الجزء الآخر الذى كان ينقل عن طريق البحر الأحمر إلى مصر فيقول إن الهند تأخذ منا كل عام مالا يقل عن خمسين مليوناً سستركيس (sesterces) ، مقابل بضائع تباع لنا بأثمان تبلغ مائة ضعف ثمنها الأصلى . [2] وما من شك أن هذه الأرقام بعيدة عن المبالغة ولا يبعد أنها تمثل الحقيقة، خاصةوأن بلينيوس كان فى مركز يمكنه من الاطلاع على وثائق الدولة الرسمية . ولكن يهمنا بصفة خاصة قوله إن هذه البضائع الشرقية كانت تباع فى الغرب بمائة مثل ثمنها الأصلى . ذلك أن التجارة الشرقية كانت تقوم أساساً على الاتجار فى الكماليات مثل اللؤلؤ والعاج والحرير والبخور ... إلخ ، وأن ضرائب باهظة كانت تجبى عليها عند دخولها مصر وعند خروجها للتصدير مرة ثانية . [3] وبالإضافة إلى هذه الضرائب المزدوجة تقاضى التجار مبالغ باهظة مقابل قيامهم بهذا العمل . فالملاحة فى البحار الشرقية كانت شديدة الخطورة ، نظرا لانتشار القرصان فى تلك البقاع ، حتى أن السفن التجارية كانت تسير عادة فى حراسة سفن مسلحة خير تسليح لمقاومة القرصان. [4] لذلك كانت هذه الرحلات كثيرة التكاليف ، ومن الطبيعى أن يرفع التجار أسعارهم ليعوضوا تكاليفهم وخسائرهم وليغنموا ربحاً مناسباً .

---

(١) Plinius, Nat-Hist. 12 - 84

(٢) Ibid. 6. 101.

(٣) Strabo, 17. 1. 13 (C. 798)

(٤) Periplus, 53; Plinuis, Nat-Hist. 6. 26

هكذا تمكن كثير من الرأسماليين فى الأسكندرية ومصر من مضاعفة ثرواتهم ومنافسة كبار الرأسماليين فى روما ذاتها، ويكفى للدلالة على خطورة هذه الطبقة من الأسكندريين أن نذكر أن بعضهم تمكن من شق طريقه إلى أرقى المناصب فى القصر الإمبراطورى فى روما، كما أن واحدا منهم وهو فيرموس (Firmus) استطاع أن يقود ثورة ناجحة فى الأسكندرية تأييدا للملكة زينوبيا فى القرن الثالث. ويقال إنه تمكن من تسليح جيش بأسره من دخله من تجارة البردى والصمغ العربى.

---

(١) Cf. Juvenal, I. 26 f.; IV 24—5.

(٢) Historia Augusta, Firmus, III. 2.

الحياة الثقافية والدينية

رأينا فى دراستنا للتكوين الاجتماعى لمصر فى العصرين البطلمى والرومانى أن السكان كانوا خليطاً من شتى الجنسيات والشعوب القديمة : أغلبية مصرية وأقلية ممتازة من الإغريق ثم جاليات متفاوتة العدد من اليهود والسوريين والليبيين والرومان وغيرهم . وقد يسأل سائل عن الوسيلة التى تم بها التفاهم بين هذه العناصر جميعاً . ما من شك أن اللغة اليونانية كانت اللغة الرسمية للبلاد منذ بداية العصر البطلمى . ولكن لغة هذا العصر كانت لغة يونانية متطورة بحكم اختلاطها باللهجات واللغات المحيطة المختلفة . فهذه اللغة كانت لغة الحديث بين الإغريق وسائر الجاليات الأجنبية التى تأغرقت تماماً فى هذا العصر وبها كانت تصدر الأوامر الملكية والقوانين العامة . وكانت فوق ذلك لغة الثقافة والفكر ، كتب بها الكتاب والشعراء .

وقد أقر الرومان هذا الوضع كما هو ، وبقيت اللغة اليونانية هى لغة البلاد الرسمية تصدر بها كافة القرارات والقوانين والأوامر ، حتى بيانات الإمبراطور وخطاباته التى كانت تكتب أصلا باللاتينية كانت تترجم إلى اليونانية عند نشرها فى الأسكندرية . ولهذا فإن عدد الكتابات اللاتينية من مصر فى العصر الرومانى قليل جداً ويكاد يقتصر على شئون الجيش الرومانى . أما المصريون فكان على كثير منهم أن يتقن اللغة اليونانية حتى يستطيع أن يتولى الأعمال الإدارية فى الحكومة ، ولكن أكثرهم فى القرى والريف استمر يتحدث فى الحياة اليومية باللغة المصرية التى كان التعبير الكتابى لها الخط الديموطيقى الذى استخدمت فيه حروف منحدرة من الحروف الهيروغليفية والتى لم يكن بها حروف متحركة مما يفيد حرية اللغة ويمنعها من تقبل الألفاظ الجديدة فظلت جامدة لا تساير التطور . لهذا كان تعلم الديموطيقية أمراً عسيرا حتى على المصريين

أنفسهم . أمام هذه العقبات خطا المصريون خطوة ثورية لإنقاذ لغتهم من هذا المأزق بأن اتخذوا الحروف اليونانية لكتابة لغتهم . ولما وجدوا أن الأبجدية اليونانية لا تفى بحاجة جميع أصوات اللغة المصرية أضافوا إليها ستة حروف من الكتابة الديموطيقية . وهكذا ولدت اللغة القبطية فى القرن الثالث الميلادى ، وانطلقت اللغة من عقالها لتنقل ألفاظاً وأفكاراً جديدة ، ولتخرج بعد ذلك فكرا وأدباً جديدا . وكان أول وأعظم أعمال اللغة القبطية الجديدة أنها نقلت الإنجيل إلى المصريين فى لغة مصرية وثوب مصرى ، ليس بالأجنبى اليونانى أو اللاتينى . ولعل هذا من الأسباب التى جعلت المسيحية تنتشر بين المصريين جميعاً كعقيدة شعبية .

هذه كلمة مختصرة عن اللغة رأينا أن نقدم بها للحديث الآن عن الثقافة والفكر الذى تميز به العصر الرومانى فى مصر ، والذى كانت وسيلته فى التعبير هى اللغة اليونانية التى كانت ذائعة الانتشار خارج مصر أيضاً .

* * *

رأينا فى العصر البطلمى كيف كانت الأسكندرية أشهر مركز فى العالم فى مجال الأدب والدراسة ، قصدها كثير من العلماء والدارسين إما لينضموا إلى هيئة علماء المكتبة والموسيون أو ليغترفوا من معين هؤلاء العلماء .

وقد تركت مدرسة الأسكندرية أثرها على مراكز الأدب اليونانى الأخرى حتى فى بلاد اليونان نفسها ثم تعدى تأثيرها العالم اليونانى إلى روما ، فظهر هناك أدباء وشعراء لاتينيون متأثرون باتجاهات الأدب الأسكندرى ويحاكون نماذجه كما يحاكى بعض أدبائنا الآن نماذج الأدب الأوربى . ومن الغريب أن هذا التأثير على روما بلغ ذروته فى عصر كليوباترة ، أى فى الفترة التى تم فى نهايتها ضم مصر إلى الإمبراطورية الرومانية ، حتى أن من أراد من أدباء

روما أن يخرج على قوالب الأدب الأسكندرى كان يفعل ذلك بقصد الثورة على سيطرة هذا الأدب على عقول الأدباء الرومان [١] .

لم يكن مستغربا إذن أن يحتضن الرومان مؤسسات الثقافة والعلم فى الأسكندرية بعد الفتح ، فبقيت المكتبة والموسيون يلقيان التشجيع والتأييد من الأباطرة ، كما استمر العلماء يتلقون العطاءات والامتيازات المختلفة كالإعفاء من الضرائب وتناول الطعام فى الموسيون دون مقابل .

ويجب أن نذكر أن الموسيون كان بمثابة أكاديمية للبحث وليست جامعة للتدريس ، إلا أن بها قاعات يجتمع بها العلماء ويتباحثون فيها . ونحن نعرف أن الإمبراطور هادريان ، الذى كان شديد الحماس للحضارة اليونانية ، زار الموسيون وشهد بعض ندوات العلماء والفلاسفة هناك واشترك فى مناقشتهم . وبمناسبة هذه الزيارة زاد عدد العلماء بتعيين كثير من الأساتذة والفلاسفة ومنهم من كان من الفلاسفة المتجولين الذين لايقيمون فى الأسكندرية فكانوا أشبه بأعضاء مراسلين للموسيون كما نقول الآن. ويبدو أن التوسع فى عضوية الموسيون كان قد بدأ يتخذ اتجاهاً جديداً وهو جعل العضوية فيه شرفية بالنسبة لكثير من الشخصيات البارزة ، مثل كبار رجال الإدارة والجيش والأبطال الرياضيين .

وكان الموسيون وثيق العلاقة بالمكتبة التى أنشأها البطالمة ورعاها ملوكهم منذ الملك بطلميوس الأول وكانت لها شهرة عالية ؛ حتى إنه حينما احترق جزء منها بسبب الحريق الذى نشب فى أسطول يوليوس قيصر فى الميناء ، قرر أنطونيوس تقديم التعويض اللازم لكليوباترة بعد ذلك بإهدائها ٢٠٠٫٠٠٠

---

(١) لقد عرض الكاتب لهذا الموضوع من قبل فى كتاب « تاريخ الأسكندرية منذ أقدم العصور » الذى أصدرته محافظة الأسكندرية عام ١٩٦٣ ص ٩٥ ــ ٩٩ . أنظر أيضاً د. إبراهيم نصحى فى كتاب « تاريخ الحضارة المصرية » المجلد الثانى ص ١٧٧ ــ ١٩٣ .
Also cf. V. Chapot, l'Egypte Romane, pp. 361 ff.

مجلد من مكتبة مدينة برغامة الشهيرة فى آسيا الصغرى . وقد استمر للمكتبة أمناؤها من العلماء البارزين الذين اهتموا بأمرها طوال العصر الرومانى ، ولكننا لا نسمع عن اهتمام الأباطرة والولاة بتنمية المكتبة كما كان يفعل البطالمة من قبل . ومع ذلك فقد بقى للمكتبة الكبرى التى كانت ملحقة بمعبد السرابيوم شهرتها وكذلك المكتبة الصغرى الملحقة بمعبد القيصرون .

ولم تقتصر الحياة العلمية والثقافية فى الأسكندرية فى العصر الرومانى على الموسيون والمكتبة ، بل وجدت مدارس وقاعات للدراسة يُدرّس بها من شاء من هؤلاء العلماء أو غيرهم وكانت هذه المدارس والقاعات تكون ما يمكن أن يسمى بجامعة الأسكندرية كما نفهم الآن معنى الجامعة . وكان يقصد هذه المدارس كثير من الطلاب من الأسكندرية ومصر عموماً ومن خارج مصر أيضاً . ولكن يجب أن نذكر هنا أن الحياة التعليمية فى الأسكندرية فى العصر الرومانى كانت حياة معقدة إلى أبعد الحدود ، وذلك لاصطدامها بالظروف الدينية الجديدة . . فأصبح علماء الموسيون والمكتبة ومعاهد تدريبهم يمثلون الثقافة والحضارة الوثنية ؛ بينما نشأت مدارس جديدة : واحدة لدراسة الدين اليهودى دراسة فلسفية بين اليهود ، وأخرى لتدريس الدين المسيحى الجديد ، كما سنبين بعد قليل .

ولننتقل الآن إلى الحديث عما أسهمت به مصر فى مجال الثقافة والفكر والعلم فى العصر الرومانى . ولقد استمرت الأسكندرية أيضاً مركز الحركة الثقافية والعلمية فى مصر بطبيعة الحال رغم أن كثيرين ممن نبغوا فى هذه الفترة جاءوا إليها من داخل البلاد مثل أثينايوس Athenaeus من تقراطيس وأفلوطين من أسيوط .

ولكن نوع الإنتاج الفكرى الذى امتازت به الأسكندرية فى العصر

الرومانى اختلف عن الطابع الذى تميزت به فى العصر البطلمى . فقد اشتهرت أسكندرية البطالمة بالأدب ودراساته ، وكذلك بالبحث العلمى الذى أثر أحيانًا على الإنتاج الأدبى أما أسكندرية العصر الرومانى فلم تحافظ على تفوقها الأدبى ويبدو أن عـــدم وجود القصر الملكى البطلمى فى الأسكندرية أفقد الشعراء التشجيع الكافى لبعث إلهامهم . فكان شعر هذه الفترة على ى حال مجرد كلام منظوم بعيد كل البعد عن مفهوم الشعر الراقى واصطبغ هذا النظم بالصبغة العلمية فراح الشعراء يظهرون مهاراتهم فى نظم قصائد جغرافية فى وصف ليبيا مثلا كما فعل دنيس (Den;s) ، أوفى وصف الواحات كما فعل سوتيريخوس (Soterichos) .

أما فى مجال العلم فقد حافظت مصر على حمل مشعل التقدم فيه . وأشهر علماء هذه الفترة غير منازع هو بطلميوس الجغرافى الذى اشتهر كثيرا بين العرب فيما بعد . وهو من أبناء مصر فى القرن الثانى الميلادى ، ويعتبر قمة فى علم الجغرافيا القديمة متميزا على سابقيه من أمثال استرابون ، وذلك لأنه لم يكن مثلهم جغرافيًا فحسب بل رياضيًا مجددا إلى جانب كونه فلكيًا وعلمًا طبيعيًا . وبهذا القدر العظيم من العلم تصدى بطلميوس لمشكلة أعجزت القدماء وهى دراسة الجغرافيا على أساس رياضى وفلكى ، وعمل خريطة للعالم وضح عليها الأماكن كل إقليم بنسبة أبعادها الصحيحة . هذا العمل العظيم أنجزه بطلميوس الذى قفز بعلم الجغرافيا قفزة كبرى فى الاتجاه الصحيح ، كما أن أخطاءه ذاتها كانت لها قيمتها ، لأنها أصبحت فيما بعد بمثابة نقط ارتكاز لتصحيح معـلوماتنا الجغرافية ، وأصبح عمله كله خير ممهد لقيام علم الجغرافيا الحديثة .

ولكن مامن شك أن من أشهر ماتميزت به الأسكندرية فى هذا العصر هو الحركة الفلسفية التى عرفت بها مدرسة الأسكندرية . هذا الاتجاه الفلسفى كان جديدا على الأسكندرية ، لأنها لم تشتهر بالدراسات الفلسفيـة فى العصر

البطلمى ، ولعل الملوك حينئذ لم يشجعوا دراستها ليريحوا أنفسهم من أخطار انتشار المعرفة الفلسفية وظهور مدارسها . ولم يكن الرومان بطبيعتهم أهل فلسفة ، ولكنهم لم يضيقوا بها . وتعرف كثيرون من قادة روما وأباطرتها ممن تشيعوا لبعض المذاهب الفلسفية والأخلاقية التى انتشرت آنذاك مثل الرواقية والأبيقورية . أما فى الأسكندرية فقد وجدت ظروف معينة فى هذا العصر ساعدت على بعث التفكير الفلسفى بين المثقفين . ولا نقصد بتلك الظروف سوى البيئة الدينية التى عاصرت قيام نظام الإمبراطورية الرومانية فى الجزء الأخير من القرن الأول ق . م . واستمرت فى القرون الثلاثة الأولى الميلادية فى هذه البيئة . ففى هذا العصر واجه الإنسان أخطر موقف دينى عرفه فى تاريخه بأسره . إذ تحت ظروف توحيد العالم فى ظل الإمبراطورية ونشاط الاتصال بين البيئات المختلفة سالت الأديان من بلد إلى بلد ومن بيئة إلى بيئة ونشأت فى الوقت نفسه دعوات دينية جديدة مثل الغنوسية والمسيحية وكلها تؤكد للإنسان أن الأديان القديمة كلها هراء وكذب . فى مثل هذه المواقف يلجأ الإنسان إلى تفكيره الشخصى ليبحث عن الطريق الصحيح . وهذا هو دفع إلى إثارة التفكير الفلسفى فى الأسكندرية فى ذلك الوقت متسما بطابع دينى .

وأول فيلسوف لمدرسة الأسكندرية هو فيلون اليهودى ، الذى عاش فى القرن الأول الميلادى ، وكان من الطبيعى أن يتصدى لهذا الموقف فيلسوف يهودى لأن اليهود كانوا الفئة الوحيدة التى تدين بالتوحيد حينئذ ، وكان الدين الجديد بدعوته إلى التوحيد قد واجهت الموسوية بتحدى خطير ، كما أن الفلسفة اليونانية كانت تسلب الموسوية أحياناً بعض أبنائها . فقام فيلون بمحاولة تسويغ دينه للعقل الجديد مستعيناً بالفلسفة اليونانية على شرح الموسوية. فهو يبدأ بموقف دينى ثم يتطرق منه إلى الدليل الفلسفى على صدق الدعوة الدينية .

هذا الاتجاه الجديد كان خطيرا جدا على التفكير الفلسفى فيما بعد وسيصبح لمنهجه تأثير كبير على التفكير الفلسفى والدينى فى العصور الإسلامية والمسيحية ، حين يشغل المفكرون أنفسهم بإثبات قضايا الدين عن طريق الفلسفة.

أما الفيلسوف الكبير الذى تخرج فى الأسكندرية ويعتبر زعيم الأفلاطونية الحديثة فهو أفلوطين من أبناء أسيوط فى صعيد مصر فى القرن الثالث الميلادى وكانت الوثنية قد بدأت تضعف شوكتها أمام الاتجاه المسيحى الجديد . ولهذا تصدى أفلوطين لحل المشكلة الدينية عن طريق الفلسفة ، مبتدئا هذه المرة بالفلسفة ومنتهيا بالفكرة الإلهية .

ولقد حرص أفلوطين على استكمال ثقافته الفلسفية فالتحق بجيش رومانى كان ذاهباً إلى الشرق كى يلم بحكم الهند وفارس . ولكن بمد الإمبراطور قائد الحملة عاد مسرعاً إلى أنطاكية ومنها إلى روما حيث قضى بقية حياته يحاضر هناك. وكان لما عرف عنه من عفة ونقاء وسلوك تصوفى أثر كبير على أتباعه ومريديه من جميع الطبقات .

لم يكن غريباً إذن أن تجمع فلسفة أفلوطين بين الفلسفة اليونانية والفكر الشرقى ، فهو يعتمد أساساً على فلسفة أفلاطون والفيثاغورية الجديدة إلى جانب الفيض الإلهى الشرقية. ومجمل نظريته تدعو إلى وجود عالمين: عالم الحس وعالم العقل المجرد . ويتوقف علينا أن نتجه بأفكارنا نحو أى العالمين . وعالم العقل المجرد هو الأسمى وينبغى أن يتجه نحوه كل إنسان عاقل . وبقدر ما نتجرد من التعلق بأسباب الدنيا والانطلاق نحو التأمل الفكرى نقترب من الهدف ، وبقدر ما نرتفع فى هذا العالم العقلى نزداد اقتراباً من الخير المطلق حتى تتم عودة النفس إلى المبدأ الأول والاتحاد بالله .

* * *

أما عن الحياة الدينية فقد استمرت عبادة الثالوث البطلمى المكون من سرابيس وإيزيس وهربوكراتيس والذى كان من صنع البطالمة وظل محتفظاً بمكان الصدارة بين الآلهة فى العصر الرومانى، بل لعلها نمت فى الخارج عن ذى قبل، وأعلن إدخالها رسمياً إلى روما حين أنشأ الإمبراطور دوميتيان (٨١ – ٩٦) معابد فى روما لعبادة سرابيس وإيزيس.

وكان ذلك بمثابة إعلان رسمى لقبول الآلهة المصرية فى روما بعد أن كانت قد وصلت هناك قبل الفتح بصفة غير رسمية وخاصة الآلهة إيزيس التى تمثل الإلهة الزوجة لسرابيس والإلهة الأم لهربوكراتيس. ولقد احتفظت إيزيس فى العصر الرومانى بشخصيتها المصرية رغم محاولة تشبيهها بديميتير وأفروديتى اليونانيتين. ولكن شخصيتها المصرية كانت قوية بذاتها خاصة وأنها تكون مع هربوكراتيس صفة أساسية فى الفكر الدينى الإنسانى، وهى فكرة الإلهة الأم. وبتلك الشخصية استطاعت الإلهة إيزيس أن تغزو روما قبل أن يفتح أغسطس مصر، وأن تنافس فى اتساع امبراطوريتها روما ذاتها. فقد انتشرت عبادتها كالبرق فى سرعة غريبة إلى جميع أرجاء الإمبراطورية الرومانية ثم تعدت حدود الإمبراطورية إلى أقاليم أكثر بعداً شرقاً وغرباً فى ركب تجارة الأسكندرية. وليس أدل على ذلك من بردية مشهورة من البهنسا ترجع إلى القرن الثانى الميلادى تذكر الأماكن التى انتشرت فيها عبادة إيزيس فى أرجاء المعمورة. هذه الأماكن تشمل معظم مدن مصر إذ أن هناك ذكراً لسبع وستين مدينة فى الدلتا فقط، أما خارج مصر فتذكر أسماء خمس وخمسين مدينة مرتبة حسب البلاد التى تقع فيها.

ومن دراسة هذه البردية نتبين أن سلطان الإلهة إيزيس شمل الهند وبلاد العرب وفارس شرقاً، وسينوب على البحر الأسود شمالا، وروما وإيطاليا غرباً.

أما عن هربوكراتيس فقد كان مصرى الأصل أيضاً ، باعتباره إحدى صور حورس ، ولكن سرعان ما اتخذ لنفسه صوراً أخرى لحورس ولآلهة أخرى مصرية وغير مصرية وانتشرت خارج مصر فى العالم اليونانى وفى خطوط تجارة الأسكندرية وخاصة فى ركب إيزيس التى كان يشاركها معبدها عادة ، إذ لم يعرف أنه تفرد بمعبد خاص ، باعتبار أنه حورس الصغير ويجب أن يبقى فى رعاية والدته . ومع ذلك فقد كان منتشرا ومحبوبا بين الطبقات الفقيرة ولكنه عبد مستقلا بشخصه فى البيوت .

إلى جانب هذا الثالوث حلت فى مصر عبادة الأباطرة الرومان محل عبادة البطالمة، ولكن يجب أن نذكر هنا أن الأباطرة عبدوا على أن أشخاصهم مقدسة وليس بوصفهم آلهة . وكانت العبادة قاصرة على الأباطرة بعد موتهم ، فكان لهم كاهن فى الأسكندرية وتقام تماثيلهم فى معابد الآلهة الكبرى ولم تفرد لهم معابد خاصة . ولكن بقيت عبادة الأباطرة عبادة رسمية تمارس فى المناسبات العامة دون أن يكون لها طابع شخصى أو تعبد فى البيوت .

إلى جانب هذه العبادات ذات الطابع السياسى والدينى معاً استمرت عبادة الآلهة المصرية واليونانية والشرقية القديمة فى هذا العصر أيضاً ، بل وازداد اختلاطها وانتقالها عن ذى قبل ، حتى ليمكن أن يقال إن العالم لم يشهد فترة امتزجت فيها الأديان القديمة جميعاً كما حدث فى ظل الإمبراطورية الرومانية . فإن تعدد الشعوب والحضارات التى شملتها الإمبراطورية وسياسة التسامح الدينى التى اتبعها الرومان سمح لجميع الأديان أن تزدهر . كما أن السلام الذى ساد العالم فى الفترة الأولى من تاريخ الإمبراطورية والنشاط التجارى الذى انتشر بين أرجاء العالم مكن الأديان المختلفة من أن تنتشر وأن تؤثر بعضها فى بعض . وكانت روما والأسكندرية من أهم مراكز التقاء هذه الديانات المتباينة كما

كانت نقطاً لإشعاعها . فى هذه البيئة الدينية المتعددة نشأت المسيحية وأقامت كنيستها وطردت الأديان القديمة .

بداية الحركة المسيحية فى مصر[1] :

كان ظهور المسيحية مع مولد الإمبراطورية الرومانية فى الجزء الأخير من القرن الأول ق . م من أخطر أحداث التاريخ وأكثرها تأثيراً فى سير الأحداث والحياة بكل مظاهرها بعد ذلك . غير أن ظهورها كان خافتا ضعيفا أول الأمر يكتنفه كثير من الغموض ، حتى أننا لا نعرف كيف نشأت وكيف انتشرت على وجه التحديد . ولكن من المرجح أنها وصلت إلى مصر منذ عصر مبكر جدا . فيوسيبيوس ، أعظم مؤرخى الكنيسة الأولين والذى عاش فى القرن الرابع الميلادى ، يروى أن القديس مرقص نفسه حضر إلى مصر وأنه بشر للدين الجديد فى الأسكندرية فى أواسط القرن الأول الميلادى وتروى إحدى أساطير القديس مرقص أن أول أتباعه كان إسكافيا يهوديا .

هذا هو ما تذكره الروايات المسيحية الأولى ، ولكن ليس هناك أى دليل معاصر يثبت وجود المسيحية فى مصر خلال القرن الميلادى الأول . ومع ذلك فنحن ندرك عقلاً أن عدم وجود الدليل لا ينهض شاهداً على عدم وجود المسيحية فى مصر فى ذلك الوقت . فإن المبادىء والأفكار كانت تنتقل حينئذ بسرعة لا تقل عما تنتقل بها الآن . فعبادة إيزيس مثلا انتشرت فى سرعة هائلة مع انتشار تجارة الأسكندرية إلى أرجاء العالم زمن الإمبراطورية الرومانية . فليس بمستغرب إذن أن تسرى المسيحية من فلسطين وسوريا إلى مصر فى مسرى التجارة أو فى موكب الجيوش عن طريق البر والبحر وكلاهما آمن منتظم .

(١) عرض الكاتب لهذا الموضوع فى مقال « حول نشأة المسيحية فى مصر » نشر فى « المجلة » عدد أغسطس ١٩٦٣ .

وأكبر دليل على صدق هذه الدعوى أنه منذ القرن الثانى الميلادى ظهر فى مصر نشاط وكتابات مسيحية على جانب كبير من الأهمية . فقد حفظت لنا أوراق البردى نصا من إنجيل القديس يوحنا يرجع إلى النصف الأول من القرن الثانى . وكذلك عثر على إنجيل مسيحى جديد غير الأناجيل الأربعة المعروفة ، ويرجع تاريخ تدوينه إلى الفترة نفسها أو بعدها بقليل . مثل هـذه النصوص المسيحية المبكرة وغيرها لها دلالتها رغم ندرتها[1] ، خاصة حين نقدر الظروف التى تمت فيها هذه الأعمال . فنحن نعرف أن الأباطرة الرومان تعقبوا المسيحية بالمقاومة والاضطهاد الشديدين منذ البداية ، ورغم ذلك استمر المسيحيون ينتشرون ويعملون فى الخفاء سواء فى مصر أو فى أنحاء الإمبراطورية المختلفة.

ولقد كان للظروف الدينية والفكرية التى سادت فى الأسكندرية فى ذلك الوقت تأثير كبير على المسيحية الناشئة . فبسبب توحيد العالم فى ظل الإمبراطوية الرومانية وكثرة الانتقال والاتصال بين البيئات المختلفة سرت الأديان والأفكار من بيئة إلى أخرى — كماسبق أن ذكرنا ؛ فواجهها الإنسان لأول مرة مجتمعة متنافسة وكان من أهمها الأسكندرية . وفى هـذه المدينة وجدت مدرسة فلسفية نامية ، تأثرت بهذه الظروف الدينية واستجابت لها ، فاصطبغت فلسفتها بالطابع الدينى والروحانى ، ومن أكبر أعلامها فيلون وأفلوطين — وقد سبقت الإشارة إليهما . وفى هذه البيئة المعقدة ظهرت دعوة دينية جديدة على جانب كبير من الخطورة وهى الغنوسية أو الأدرية (Gnosticism) . كان أصحاب هـذه الحركة ينكرون الدين القديم ويميلون

---

١) يوجد ثبت بالنصوص المسيحية فى البردى فى مقال : C. H. Roberts. The Christian Book and the Greek Papyri, Journal of Theological Studies, Vol. I. (1949) 155 ff.

إلى الاعتقاد فى فكرة إلهية عليا تتمثل فيها المثل الدينية الرفيعة دون التقيد بدين معين ؛ أى أنها نوع من الفلسفة الدينية . هذه الغنوسية أو الأدرية كانت النتيجة الطبيعية لتضارب الأديان فى هذه الفترة من ناحية ، ولانتشار المدارس الفلسفية من ناحية أخرى فقد أخذت من الأديان جوهرها فى الإيمان بفكرة إلهية ، وأخذت من فلسفة فيلون وأفلوطين الجانب التصوفى فى الوصول إلى المعرفة الإلهية ، لأنه فى عقيدتهم كان إدراك المعرفة اليقينية — أى معرفة الإله والكون معاً — هبة من الله ، ولكن لابد للوصول إليها من رياضة خاصة وتأمل فى الذات الإلهية .

هذه الحركة الغنوسية ، رغم أنها كانت منافساً خطيراً للمسيحية فى فترة البداية القاسية ، خلقت بيئة مناسبة لأن تسود المسيحية بعد ذلك ، إذ شجعت على الاتجاه نحو ترك الديانات القديمة لقصورها ، فأدت بذلك للمسيحية مساعدة كبرى . إلا أن الغنوسية من ناحية أخرى كانت غامضة سلبية ، كما كانت حركة مفككة تعتمد على العمل الفردى ، ولهذا لم يتوفر لها عامل الإثارة والإيجابية الذى يلهب الحماس الدينى فى الجماهير . ورغم أن الغنوسية هزمت فى معركة الصراع الدينى إلا أنها تركت فى المسيحية أثرين هامين : الأول أنها فرضت على زعماء المسيحية فى القرون الثانى والثالث والرابع أن يعيدوا التفكير فى أسس عقيدتهم وأن يرجعوا إلى جذور الفكرة المسيحية وأن يحددوها . لأن المسيحيين الأولين بعد المسيح مباشرة شغلهم الحماس الدينى فى انتظار عودة المسيح عن التفكير فى جوهر الفكرة الدينية الجديدة . أما الأثر الثانى — وتشترك فيه الغنوسية مع الفلسفة — فهو قوة الاتجاه التصوفى والروحانى الذى عرف فى المسيحية فيما بعد.[1]

(١) يوجد عرض قيم للبيئة الدينية فى مصر قبل المسيحية وعند ظهورها فى كتاب :
H. I. Bell, Cults and Creeds in Greco-Roman Egypt (1953).

فى وسط هذا المعترك العنيف بين المذاهب والفلسفات والأديان المختلفة من ناحية ، ومقاومة الدولة من ناحية أخرى شقت المسيحية طريقها وأصبح لها فى الأسكندرية مركز ورئيس ومدرسة غير رسمية لتدريس تعاليمها[1] وكان الهدف من هذه المدرسة هو معارضة الجامعة الوثنية الشهيرة فى الأسكندرية القديمة . ولقد استطاعت هذه المدرسة منذ وقت مبكر أن تكتسب مجداً وقوة على أيدى أساتذتها الكبار أمثال كليمنس وخليفته فى الأستاذية أوريجينيس .

أما كليمنس فكان شخصية إنسانية جذابة ولد فى أثينا فى أواسط القرن الثانى الميلادى ونشأ وثنياً واسع الثقافة اليونانية متبحراً فى الأدب والفلسفة. ثم حضر إلى الأسكندرية ، وبعد أن استمع إلى محاضرات فى المدرسة المسيحية هناك اعتنق الدين الجديد وأصبح أستاذا بالمدرسة نفسها بعد ذلك . وقد امتازت دروسه وكتاباته بأثر الفلسفة اليونانية وكذلك بأثر غنوس. مما جعله معتدلا متسامحاً واسع الأفق بعيدا عن التعصب . وفى سنة ٢٠٣ ميلادية وهو فى ذروة مجده الدينى والعلمى تعرض المسيحيون لاضطهاد شديد سلطه عليهم الإمبراطور سفيروس، فاضطر كليمنس إلى أن يهاجر إلى فلسطين وأن يعيش متخفياً حتى يموت فى ظروف لا نعرفها.

جاء بعده أوريجينيس أعظم مفكرى المسيحية فى عصره، وقد نشأ أسكندرياً مسيحياً ،ورأى وهو فى سن السابعة عشرة والده يستشهد أثناء اضطهاد سفيروس، وفى فورة الانفعال أراد أن يلحق بوالده لولا حيلة من والدته التى أخفت ملابسه. ولقد كان الاضطهاد شديداً على المدرسة فلم يترك أحداً من أفرادها سوى أوريجينيس،

---

(١) عن المسيحية فى مصر أنظر E. R. Hardy, Christian Egypt : Church and People (1952).

فاضطر الأسقف ديمتريوس - رئيس المسيحيين فى مصر آنذاك - أن يعينه فى العام التالى وهو فى سن الثامنة عشرة رئيساً للمدرسة خليفة لكليمنس . ولقد كان أوريجينيس صاحب دراسة فلسفية عميقة وشديد التأثر بالغنوسية إلى جانب دراسة عظيمة باللغة العبرية والتوراة ، حتى أنه قام بدراسة مقارنة بين النص العبرى والنص اليونانى فى الترجمة السبعينية عندما لاحظ اختلافا بين النصين ولقد اكتسب أوريجينيس شهرة عظيمة بين المسيحيين فى عصره حتى أنه كان يدعى ليحل مشاكلهم حينما كانوا يختلفون حول قضية دينية . وقد اكتشفت أخيراً بردية تتضمن محاورات لأوريجينيس مع بعض قادة الحركة المسيحية حول الأب والإبن والروح القدس (١) . ومن الغريب أن أوريجينيس قد نجا من الاضطهاد أثناء توليه الأستاذية رغم أن عددا من تلاميذه لاقوا الموت مستشهدين ، علما بأنه كان يلازم الشهداء حتى ساعة الاستشهاد الأخيرة، فى وجه غضب الجماهير من الوثنيين . على أى حال بقى أوريجينيس حتى عام ٢٣٢م. ولكن يبدو أن اتجاهه الفلسفى قد أوقعه فى خلاف مع رجال الدين الآخرين وعلى رأسهم الأسقف ديمتريوس . فاضطر أوريجينيس أن يترك الأسكندرية ويذهب إلى فلسطين حيث أكمل دراسته للكتاب المقدس . وكان لطريقته تأثير كبير فى بلاد الشام ، حتى ليمكن أن يقال إن له الفضل الكبير فى إنشاء المدرسة المسيحية فى أنطاكية . وقد بقى فى تلك البقاع فى سنة ٢٥٣ فى مدينة صور فى بعض حركات الاضطهاد التى حدثت آنذاك ، كما سيأتى فيما بعد .

فالمسيحية إذن دخلت الأسكندرية وأصبح لها هناك حركة قوية، وفى نفس الوقت انتشرت أيضاً إلى أنحاء القطر المصرى وكانت الجماعات المسيحية المحلية

---

(١) J. Scherer, Entretién d'Origène auec Heraclide et les évêques ses collegues sur le Pére, le Fils, et l'âme, Cairo (1949).

على اتصال مستمر بالحركة المسيحية بالأسكندرية والتى كانت بدورها واسطة الاتصال مع المسيحية العالمية فى الخارج. هذا الاتصال بين مراكز الحركة المسيحية تكشفه لنا بردية طريفة ترجع إلى عام ٢٦٤ — ٢٨٢ ميلادية [١] ، وهى تحتوى على خطاب كتبه شخص له مكانته فيما يبدو ويؤرخه من روما ، ويبعث به إلى جماعة المسيحيين إلى منطقة الفيوم وهو يخاطبهم بلفظ « إخوانى » التى تعتبر تعبيرا مسيحياً جديدا فى لغة الخطابات فى ذلك الوقت ، ويطلب إليهم أن يجمعوا مبلغاً من المال ويرسله إلى الأسكندرية حتى يمكن أن يجده فى انتظاره حين يصل إلى المدينة. وفى الخطاب إشارة إلى البابا «ماكسيموس» الذى كان أسقفا فى الأسكندرية ، هذا الخطاب له طرافته ، إذ أنه يبين نوعا من التعاون بين البيئات المسيحية الأولى سواء محلياً أو على نطاق عالمى . ولا غرو فقد كانت الحركة فى الأسكندرية بمثابة رأس الحركة فى القطر كله ، وحين قامت الكنيسة فى الأسكندرية كانت كنائس الأقاليم تابعة لها . وهذا واضح أيضاً من الخطاب، فالإشارة إلى أسقف الأسكندرية بلقب « بابا » يدل على أنه فى ذلك الوقت كان رئيساً لجميع المسيحيين فى مصر . ومن الطريف أن نذكر هنا أن لقب « بابا » أطلق أول مرة على أسقف الأسكندرية هرقليس (٢٣٢ — ٢٤٩) قبل أن يطلق على رأس الكنيسة فى روما ذاتها .[١]

ولكن رغم هذا النشاط الجم ورغم وجود المدرسة ورئيس للمسيحيين فى الأسكندرية ومصر يدين له الجميع بالولاء والطاعة ، لم تكن حياة المسيحيين سهلة هينة . فلقد كانت حياتهم حلقات من الخوف والتعرض لأشد أنواع الإيذاء

---

(١) The Amherst Papyri, I. 3.

(٢) Eusebius, Hist. Ecclesiastica. VII. 754.

والاضطهاد على يد السلطات الرومانية . وقد يعجب القارىء لتعمد الرومان اضطهاد المسيحيين ، فى حين عرف عن الحكومة الرومانية التسامح الدينى تجاه الديانات القديمة جميعاً . ولكن الرومان تسامحوا طالما كانت الأديان لاتكون خطراً اجتماعياً أو سياسياً ، وكانت المسيحية فى ذلك خطراً سياسياً لا تقبل التعايش مع أى عبادة أخرى ، ومن العبادات القديمة عبادة الإمبراطور . فالمسيحية بدعوتها إلى التوحيد كانت تسلب الإمبراطور صفته المقدسة وهى من ألزم مقومات سلطاته وخاصة فى امبراطورية معقدة التركيب كالإمبراطورية الرومانية. ولذلك تعقبت السلطات الرومانية المسيحيين بالاضطهاد منذ تاريخ مبكر فى روما ، ولكن أول اضطهاد منظم ضد المسيحيين فى مصر حدث عام ٢٠٣ زمن الإمبراطور سيفيروس ، وقد سبقت الإشارة إليه . والاضطهاد الثانى الكبير حدث فى منتصف القرن الثالث زمن الإمبراطور ديكيوس حين تمت محاولة منظمة لإبادة المسيحية نهائياً فى الإمبراطورية الرومانية ، فصدر قرار يحتم على الأفراد أن يستخرجوا من لجنة عينت لهذا الأمر خاصة شهادة تثبت أنهم يمارسون العبادات الوثنية وأنهم يضحون للآلهة[1] أمام هذه الحملة الغاشمة تزعزع ثبات بعض المسيحيين ، فشاركوا فى التضحيات الوثنية اتقاء للعذاب . وقد كان مسلك هؤلاء موضع خلاف كبير بين المسيحيين فيما يتعلق بتوبتهم بعد ذلك . ولكن بعضا آخر من الرجال والنساء واجه الاضطهاد بثبات ، وتحمل العذاب المرير من ضرب بالعصى وسمل للعين وجر فوق حصى الشوارع إلى خارج المدينة . وممن لقى حتفهم فى هذا الاضطهاد العالم المسيحى الكبير أوريجين متأثراً بآثار العذاب فى مدينة صور ، كما ذكرنا من قبل .

على أى حال بعد ديكيوس أوقف الإمبراطور جالينيوس اضطهاد المسيحيين

(١) P. Ox. no. 658.

وسمح لهم بحرية العبادة ، وهكذا استطاع المسيحيون لأول مرة أن يبنوا كنيسة لهم. وأول ذكر لكنيسة مصرية يوجد فى بردية من البهنسا فى سنة ٣٠٠ (١). أما عن تاريخ المسيحية بعد ذلك فيقع فى الفترة التاريخية التالية التى تبدأ بعصر دقلديانوس ، وفيها تنتصر المسيحية نهائياً ، وتصبح سيدة الدولة والسياسة فى المجتمع الجديد بعد أن كانت طريدتهما فى المجتمع القديم .

---

(١) P. Ox., no. 43, verso.

الباب الثالث

مصر في العصر البيزنطي

(٢٨٤ ــ ٦٤٠ م)

الفصل الثامن

الدولة والدين في مصر البيزنطية

دقلديانوس (٢٨٤ ـــ ٣٠٥ م.)

انتهت الحروب الأهلية والانقسامات العسكرية المتوالية التي شغلت معظم سني القرن الثالث والتي تركت الامبراطورية الرومانية منفصمة الأوصال تعبث فيها الفوضى والاضطرابات دون سلطة مركزية يحسب لها حساب باستيـــلاء دقلديانوس على الحـكم . وكان هذا الإمبراطور يشبه فئة الأباطرة في الفـــترة الأخيرة في بعض الجوانب ، ويختلف عنهم كل الاختلاف في جوانب أخرى ، مثلهم من حيث أنه جندي في الجيش الروماني من أصل متواضع وتمـكن من الوصول إلى منصب رفيع في الجيش ؛ ومثلهم أيضاً من حيث أنه توصل إلى السلطة عن طريق الجيش والمؤامرة والحرب الأهلية . ولـكنه يختلف عنهم في أنه كان شخصية قوية ذا مواهب فذة في الإدارة والحـكم بالرغم من أنه لم يكن قائداً عسكرياً عظيماً ، وكثيراً ما عهد بقيادة الجيوش إلى غيره من أعوانه الضباط . وبالرغم من أنه شخصية محافظة إلى أبعد حدود المحافظة ، وخاصة من الناحية الدينية ، ولـكنه كرس نفسه لمهمة أعجزت من سبقه من الأباطرة وهي وقف الإمبراطورية الرومانية من الانزلاق إلى هـــوة التدهور والفوضى التي كانت مندفعة إليها . وفي قيامه بهذا العمل لم ينظر إلى أمام بقدر ما نظر إلى خلف ، فهو لم يعتبر نفسه واضع أسس نظام وعهد جديد ، وإنما اعتقد أنه يعمل ليعيد

الدولة إلى سابق شأنها . ولكن البناء القديم كان فى سبيله قد لفظ أنفاسه الأخيرة قبل أن يأتى دقلديانوس إلى الحكم ، ولهذا حين تصدى هذا الإمبراطور للإصلاح لم يجد بداً من وضع قواعد ونظام وقوانين جديدة ظلت أساس الإدارة والحكم فى الإمبراطورية طيلة القرون الثلاثة التالية حتى زمن الإمبراطور جستنيان فى القرن السادس . فلا غرو إذن إذا اعتبر المؤرخون المحدثون عصر دقلديانوس هو نقطة التحول فى التاريخ القديم من عصر الإمبراطورية الرومانية إلى العصر البيزنطى والعصر المتأخر من الإمبراطورية الرومانية [1] .

ومن أهم إصلاحاته التى تأثرت بها مصر أنه فصل بين السلطتين المدنيـة والعسكرية فى الولايات ، وبعد ذلك قسم الولايات الكبرى إلى عدد من الولايات الصغرى ليخفف عن كاهل الإدارة المركزية . فانقسمت مصر إلى ثلاث ولايات نتيجة لذلك (وسوف نتحدث عن هذا التنظيم الإدارى بمزيد من التفصيل فى فصـــل مستقل) . أما فى مجال المالية والاقتصاد فقد حاول دقلديانوس إصلاح نظام العملة بإصدار عملة جديدة ذهبية وفضية بالإضافة إلى الدينار البرنزى القديم بعد أن أدخل على وزنه بعض التعديل بما يتفق والنظام الجديد للعمـلة الذى كان الهدف الأساسى منه هو منع تدهور قيمة العمـلة الذى ساد فى القرن الثالث . ثم أتبع ذلك بإصدار قائمة تحدد أسعار السلع الضرورية فى أنحـــاء الإمبراطورية . وحين قاوم التجار هذه التشريعات حاول تطبيقها بقسوة بالغة ، ولكنه فشل أيضاً واختفت السلعة من الأسواق حتى اضطرت الحكومة إلى إغفال الأمر كلية . ولكن دقلديانوس كان أكثر توفيقاً فى محاولته إصلاح نظام الضرائب . فحسب منهجه فى توحيد نظم الإمبراطورية أخضع جميع الولايات

---

(١) جميع كتب التاريخ التى تعالج هذا العصر تتحدث عن دقلديانوس وإصلاحاته ، ولكن أنظر بصفة خاصة : W. Ensslin, The Reforms of Diocletian, in Cambridge Ancient History, vol. XII, pp. 383 ff

لنظام ضرائبي جديد بدلا من النظم المتعددة المختلفة التي كانت متبعة من قبل .
ويتلخص النظام الجديد في أبسط صورة في فرض ضريبة مزدوجة جديدة على الأفراد والأرض بقدر متساو في كل أنحاء الإمبراطورية . ولكن نظراً لأن القيمة النوعية للأرض تختلف حسب خصوبتها والغلة التي تنتجها فقد وضعت قواعد دقيقة لمراعاة ذلك ، بحيث أن بساتين الفاكهة ومزارع الزيتون كانت تقدر عليها ضريبة أكثر من أرض الحبوب أو المراعي وهكذا . وقد أمكن تنفيذ هذه السياسة الجديدة عن طريق إجراء إحصاءات للأفراد ومسح للأراضي في فترات متقاربة (كانت وحدة قياس الأرض في النظام الجديد هي اليوجوم Iugum وهي تعادل نصف فدان أو أقل قليلا) .

ولكن مهمة دقلديانوس في الحكم والإصلاح كانت غاية في الصعوبة ، إذ كان عليه في الوقت نفسه أن يؤمن حدود الإمبراطورية المترامية ضد غزوات المتبربرين من كل جانب ، ثم أن يقمع أي مقاومة أو ثورة محلية ضد حكمه أو تشريعاته ، ثم أخيراً أن يخمد الحركة الدينية الجديدة التي تهدف إلى القضاء على جميع العقائد الدينية التي ألفتها الإمبراطورية حكومة وشعوباً من قديم ، ونقصد بالدين الجديد المسيحية . ولقد تمثلت هذه العناصر الثلاثة في مصر في ذلك الوقت ، فكانت حدود مصر الجنوبية تعاني من هجمات القبائل المعروفة باسم Blemyes جنوب مصر ، وقد عالج دقلديانوس هذا الخطر بأن اشترى سلامهم بالمال ، ثم أقام قبيلة قوية من النوبيين على حدود مصر الجنوبية لتتكفل بحماية الحدود ضد أي خطر واتفق معهم على أن يمدهم سنويا بإعانة مالية مناسبة .
ولكن ذلك لم يؤمن مصر ، فسرعان ماظهر خطر آخر أشد في داخل البلاد ، إذ استطاع أحد القواد الرومان دومتيانوس (Lucius Domitius Domitianus) والذي اشتهر في الأسكندرية باسم أخيليوس Achillens ، من الثورة ضد الإمبراطور الجديد وأعلن نفسه إمبراطوراً في الأسكندرية . تمثل هذه الثورة

بالنسبة لدقلديانوس خطراً حقيقياً ، نظراً لأنها تهدف إلى إيجاد إمبراطور جديد أولا ، وأنها تتخذ مصر مركزاً لها ، وفى ذلك تهديد صريح يمنع إرسال القمح إلى روما . ويكفى للدلالة على خطورة هذه الثورة أن دقلديانوس حضر بشخصه فى الحال إلى الأسكندرية وقمع الثورة بعد حصار المدينة مدة ثمانية أشهر وتدمير أجزاء كثيرة منها . ويبدو أن الحالة فى المدينة كانت سيئة جداً ، حتى أن الإمبراطور أمر بتوزيع جزء من القمح المرسل الى روما بين الأسكندريين . ومن المحتمل أن أهل الأسكندرية أظهروا سعادتهم بهذه المنحة من الإمبراطور بأن أقاموا له ذلك العامود الضخم المعروف باسم عامود بومبى ، ولا يزال موجوداً بالمدينة .

بعد القضاء على هذه الثورة أمكن تطبيق السياسة والنظم الجديدة فى مصر ، ومن بين محاولات دقلديانوس فى إعادة تنظيم وبناء الإمبراطورية على أساس متجانس يبعد عنها الاختلافات والانقسامات ، حتى ولو كانت اختلافات فى الرأى أو العقيدة ، هى القضاء على الحركة المسيحية النامية فى ذلك الوقت . فبالرغم من أن المسيحية أساساً دعوة دينية مجردة بعيدة عن السياسة كل البعد ، إلا أنها بدعوتها إلى نبذ الآلهة القديمة جميعاً كانت تهدم ركنا أساسياً من أركان البناء الذى تقوم عليه الإمبراطورية خاصة وأن رفض العبادات القديمة كان معناه رفض قدسية شخص الإمبراطور . من أجل ذلك اعتبرت المسيحية فى عصرها الأول على أنها حركة مناهضة للنظام الإمبراطورى المتوارث . فإذا كان الأباطرة السابقون قد ضاقوا بالمسيحيين، فمن المتوقع ألا يقف دقلديانوس بسياسته التى تؤمن بوحدة التنظيم ووحدة الهدف فى البناء الإمبراطورى مكتوف الأيدى من هذه المشكلة أيضاً وكما فعل فى مجال إصلاح الإدارة والاقتصاد عن طريق وضع مبادىء ونظم جديدة ، كذلك حاول إصلاح الحالة الدينية بوضع مبدأ دينى جديد . هذا المبدأ الجديد هو زيادة

الصفـــة المقدسة لشخص الإمبراطور ، وأطلق على نفسه لقب چيوفيوس (Jouius) ومعناها ممثل جوپتير ، كبير الآلهـــة ، على الأرض . ومع ذلك فلم يسارع الى الاضطهاد بل بقى فترة طويلة من حكمه تبلغ عشرين عاماً تقريبـاً يؤكد مركزه على رأس الدولة ، دون أن يتعرض للمسيحيين بأذى كبير ، حتى إذا كان عام ٢٩٨ قام بمحاولة محدودة لتطهير الإدارة والجيش من المسيحيين ، بينما كان يستعد لحرب الفرس ، ولـكن فى سنة ٣٠٣ نجد دقلديانوس ييـأس من الوسائل السلمية فى حل مشكلة الانقسام الدينى فى الإمبراطورية ، ويبدأ أقسى اضطهاد عرفه المسيحيون . فصدرت الأوامر الإمبراطورية تقضى بجمع نسخ الـكتاب المقدس لحرقها وتدمير الـكنائس ومنع المسيحيين من الاجتماع والعبادة . وقد نفذت هذه الأوامر الإمبراطورية بقسوة بالغـــة فى كثير من الأحيان ، واستمرت نحوا من عشر سنوات ، أى ثمانى سنوات بعـد اعتزال دقلديانوس الحـكم . ونظراً لأن حاكم مصر فى ذلك الوقت كان من الحزب المتطرف فى مقاومته وكراهيته للمسيحيين فقد كان الاضطهاد فى مصر أشد قسوة من بعض الولايات الأخرى ، وراح ضحيته ألوف كثيرة من شتى الطبقات والمدن [1] .

قسطنطين (٣٢٣ — ٣٣٧) :

استمر اضطهاد المسيحيين على أيدى الأباطرة الرومان بعد دقلديانوس ، حتى إذا كان عام ٣٢٣ نجح قسطنطين فى تولى الحـكم وأصبح أول إمبراطور مسيحى للإمبراطورية الرومانية [2] . وكان أول عمل قام به هذا الإمبراطور

---

(١) أنظر وصف يوسيبيوس عن الاضطهاد فى مصر
Eusebius: Hist. Eccles. VIII. 8.

(٢) أنظر عن قسطنطين وعصره كتاب A. H. M. Jones, Constantine and The Conversion of Europe, London, 1948.

هر الاعتراف الرسمي بالمسيحية ، وبذلك بدأت عهداً وتاريخاً جديداً يختلف كل الاختلاف عن سيرتها السابقة . فمنذ ذلك الوقت بدأ المسيحيون يعملون فى حرية واطمئنان ، وكان لذلك نتائجه السيئة أيضاً . فنى عصر الخوف والترقب السابق لم يجرؤ المسيحيون على إظهار خلافهم وانقسامهم فى الرأى ، لأنهم فى ذلك الوقت كانوا فى أشد الحاجة إلى تماسكهم وتساندهم ، وربما أودى أى انقسام بينهم بالحركة كلها . ولم يكن معنى ذلك أنه لم توجد بين المسيحيين خلافات فى الرأى قبل قسطنطين ، بل وجدت هذه الخلافات ، وقد أشرنا إلى الخلاف بين أوريجينيس والكنيسة فى الأسكندرية وإلى انقسام رأى الكنيسة بشأن المرتدين فى عصر الاضطهاد . ولكن المسيحيين فى ذلك الوقت كانوا يبقون هذه الانقسامات فى أضيق نطاق ممكن ، دون أن تتحول إلى خلافات جماعية . ولكن ما أن أمن المسيحيون على أنفسهم من الاضطهاد وضمنوا الدولة إلى جانبهم حتى وجدناهم يظهرون ما كانوا يضمرون من التشيع والانقسام ويهمنا من ذلك انقسامان حدثا فى مصر . الأول وهو ظهور الدعوة الأريوسية فى الاسكندرية ، والثانى هو موقف مليتيوس من المرتدين فى عصر الاضطهاد .

أما عن الدعوة الأريوسية فهى نسبة إلى أريوس (Arius) الذى كان من أصل ليبى وتعلم فى أنطاكية وأصبح أحد رجال الكنيسة فى الأسكندرية. ويبدو أنه كان على جانب كبير من الطموح وقوة الشخصية وحدة العقل ؛ ونظراً لتعلمه فى مدرسة أنطاكية المسيحية التى كانت تسود فيها فلسفة أوريجينيس الدينية التى كانت مشبعة بالفلسفة الأفلاطونية ، فقد بقى محافظاً على تعاليم هذه المدرسة وأخذ يطبقها ويمارسها فى الأسكندرية بصورة متطرفة . وسرعان ما صاغ آراء مستقلة فى العقيدة المسيحية تختلف عن العقائد السائدة ، مما أوقعه فى صدام عنيف مع أسقف كنيسة الأسكندرية فى ذلك الوقت المسمى إسكندر . وتتلخص عقيدة

أريوس فى أنه ابتدأ بموقف أفلاطونى وهو أن الإله وجود دائم ولا يمكن إدراكه ؛ ثم استنتج من ذلك نتيجة منطقية فى أن « الإبن » لا يمكن أن يكون إلهاً بنفس المعنى ، ولذلك يلزم منطقياً أن وجوده كان لاحقاً لوجود الإله ، وبعبارة أخرى أن « الإبن » له بداية ، فى حين أن الإله « الأب » قديم ودائم . وأخيراً بما أن الإله « الأب » ، لا يقبل الانقسام فلابد أن « الإبن » خلق من العدم . مثل هذه الآراء صدمت كثيرين من رجال الكنيسة فى الأسكندرية الذين كانوا يعتقدون أن الإبن مثل الأب قديم دائم وأنهما من طبيعة واحدة ؛ وقد تحرج الموقف كثيراً نتيجة لذلك حتى اضطر الأسقف اسكندر إلى عقد مجمع من القساوسة فى مصر وليبيا وأصدروا استنكاراً لعقيدة أريوس وأعلنوا حرمانه وأتباعه من الكنيسة . ولكن خطر دعوة أريوس لم يقتصر على مصر بل انتشر خارجها فى فلسطين وليبيا وآسيا الصغرى . ولم يمكث اسكندر مكتوف الأيدى بل راح يعمل بنشاط جم بين أساقفة الكنائس فى الولايات الشرقية يحضهم على مقاومة دعوة أريوس فى مناطقهم بكل قوة . فى ذلك الوقت حاول قسطنطين أن يتدخل فى الأمر ويصالح بين أريوس واسكندر بدون جدوى فقرر عقد مجمع دينى عالمى يشترك فيه أساقفة الكنائس المختلفة فى الشرق والغرب لوضع حد للانقسامات العقائدية التى انتشرت فى ذلك الوقت ، وأرسلت الدعوة للاجتماع فى نيقيا فى آسيا الصغرى فى سنة ٣٢٥ .

أما عن المسألة الثانية وهى موقف ميليتيوس من معاملة الكنيسة للمرتدين فتتلخص فى أن ميليتيوس كان يدعو إلى اتخاذ موقف متطرف متزمت من الذين ضعفوا أمام الاضطهاد وارتدوا عن المسيحية ، فى حين أن الأسقف اسكندر كان يؤثر موقفاً متسامحاً ، يبيح العفو بعد التوبة[(١)] . ورغم عدم

(١) أنظر Bell, Jeus and Christians in Eg pt, pp. 38 ff.

خطورة موضوع الانقسام وبقائه مصرياً إلا أن ميليتيوس كان عنيداً متعصباً ، فلم يتزحزح عن آرائه قيد أنملة ، وشجعه على ذلك كثرة أتباعه ، حتى اضطرت الكنيسة المصرية إلى نفيه إلى فلسطين . وقد بلغ به التعصب أنه بنى له ولأتباعه كنيسة خاصة أطلقوا عليها اسم كنيسة الشهداء حتى لا يشاركوا المسيحيين الآخرين كنيستهم الكاثوليكية . ورفع الأمر إلى قسطنطين الذى قرر عرضه على مجمع نيقيا أيضاً .

وانعقد مجمع نيقيا فى سنة ٣٢٥ وشهده القساوسة من جميع أطراف الإمبراطورية، ورأس الإمبراطور نفسه المجمع وشهد كثيراً من الجلسات وأشرف على إدارة المناقشات . وبالرغم من أن المجمع تناول كثيراً من مشاكل المسيحية فى ذلك الوقت إلا أن الخلاف بشأن العقيدة الأريوسية كان المشكلة الأساسية التى واجهها المجمع ، ولذلك شغل بأمر الوصول إلى صياغة للعقيدة المسيحية يمكن أن يقبلها المسيحيون من الفرق المختلفة . وفى المرحلة الأولى من المناقشة حاول أتباع مذهب أريوس اقتراح عقيدة ولكنها رفضت بأغلبية ساحقة ، وبعد مناقشات طويلة أمكن الوصول إلى صياغة عقيدة تتضمن المبادىء المسيحية الأساسية التى يقبلها الجميع ، ووضعت فى ألفاظ لا تثير الاختلافات المذهبية . ولكن بعد أن أقر المجمع هذه الصيغة اقترح قسطنطين إضافة لفظ واحد يصف العلاقة بين الأب والإبن بأنهما من طبيعة واحدة (homoousion) .

وتعتبر إضافة هذا اللفظ مجاملة كبرى من الإمبراطور للأكثرية التى رفضت عقيدة أريوس ، لأن قسطنطين كان يحرص فى الواقع على كسب ولاء الأكثرية قبل التفكير فى مناصرة مذهبهم الدينى . ولقد قبله أكثر الحاضرين بما فيهم أتباع مذهب أريوس ، ولم يعترض على هذا القرار سوى اثنين من أتباع أريوس المخلصين ، فأصدر المجمع فى الحال قراره بحرمانهما مع أريوس

نفسه من الكنيسة كما أصدر الإمبراطور أمره بطردهم من مصر .

أما فيما يتعلق بفتنة ميليتيوس فقد صدر قرار طابعه الرحمة والسعى إلى الصلح بين الطرفين ، وفحواه أن يحافظ ميليتيوس على لقبه الدينى ، دون أن يمارس عمله فى الكنيسة ، ولكن سمح لأتباعه من رجال الدين أن يعودوا إلى عملهم فى الكنيسة بعد قبول الأسقف اسكندر لهم [1] .

ولكن رغم الإجماع والسياسة الموحدة التى ظهرت فى مجمع نيقيا ، فإنه لم يضع الحل النهائى للمشاكل التى واجهها ، فالأريوسية لم تمت بنفى زعيمها ، والانقسام الميليتيوسى لم يرأب باقتراح ذلك الصلح الساذج .

وقد أدرك الإمبراطور قسطنطين ذلك فى الحال فسعى إلى استكمال وحدة الكلمة عن طريق إصدار عفو عن أريوس ، وأمر بإعادته الى منصبه فى الأسكندرية . ولكن اسكندر أسقف الأسكندرية رفض إجابة طلب الإمبراطور .

وبذلك بدأ خلاف عنيف بين كنيسه الأسكندرية والقصر الإمبراطورى فى القسطنطينية ، واتسم موقف مصر فى هذا الخلاف بالطابع الدينى والسياسى فى وقت واحد ، ويتضح المظهر السياسى بجلاء فى أنه بعد انقسام الإمبراطورية الرومانية بعد قسطنطين إلى شرقية وغربية فى القسطنطينية وروما ، تتحسن العلاقات بين الأسكندرية وروما بقدر ماتسوء مع القسطنطينية . ولقد اكتسبت كنيسة الأسكندرية أهمية عالية لايشابهها فى ذلك سوى كنيسة روما ذاتها . وكان لشخصية أثناسيوس ، الذى خلف اسكندر أسقفاً فى سنة ٣٢٨ ، تأثير كبير على نمو الكنيسة المصرية فى هذه الفترة . فقد منح أثناسيوس من طول

(١) هناك عرض قيم لمجمع نيقيا فى كتاب Jones, Constantine, pp. 152—171

العمر وقوة الشخصية وذكاء العقل ما مكنه من السيطرة على الكنيسة المصرية زهاء نصف قرن من الزمان .

وفى هذه السنين الطويلة واجه الأباطرة فى القسطنطينية الواحد بعد الآخر وتحمل النفى مرة بعد أخرى فى عناء وشدة مراس جعلت منه زعيما شعبياً وليس مجرد أسقف للكنيسة [1] .

ويبدأ الخلاف بين أثناسيوس وقسطنطين أول الأمر بسبب مسألة أريوس، إذ يتخذ أثناسيوس موقفاً شبيها بموقف سلفه، ويصر على رفض أمر الإمبراطور بإعادة أريوس إلى كنيسة الأسكندرية . وبعد تكرار المحاولات يعقد الإمبراطور مجمعاً دينياً فى مدينة صور سنة ٣٣٥ لمحاكمة أثناسيوس الذى كيلت له تهم مختلفة لا تقتصر على موقفه من أريوس والإمبراطور وإنما بعضها ذات طابع سياسى مثل استخدام القوة فى معاملة أتباع ميليتيوس والتدخل فى تعطيل إبحار القمح المصرى الذى كان يرسل إلى القسطنطينية كل عام ، ثم تأييده ثورة قامت ضد الإمبراطور فى مصر قادها شخص يدعى فيلومينوس سنة ٣٣٥ . ويقرر مجمع صور عزل أثناسيوس من منصبه ، ويلحق الإمبراطور ذلك بأمر نفيه من مصر . ويذهب أثناسيوس إلى بلاد الغالة أى إلى القسم الغربى من الإمبراطورية .

ولكن ما أن يتوفى الإمبراطور قسطنطين فى عام ٣٣٧ حتى يعود أثناسيوس إلى الأسكندرية ، ويقاوم عودته أتباع أريوس وميليتيوس أشد المقاومة ، ولكنه يتمكن من القضاء على مقاومتهم عن طريق إحضار جماعات من الرهبان بزعامة أنطون الراهب إلى الأسكندرية ، وينجح فى تولى مقاليد الكنيسة من جديد . ولكن الأمر لا يستقيم له طويلا ، فإن الامبراطور الجديد فى الشرق ، قسطنطيوس الثانى يضيق

---

(١) أنظر عرضاً لشخصية أثناسيوس فى كتاب :
Hardy, Christian Egypt, pp 47—78.

بهذا الأسقف الخطير ويصدر أمراً بطرده وأتباعه من الكنيسة فى سنة ٣٣٣ .
وقد وجه إلى أثناسيوس اتهام آخر وهو أنه باع القمح الذى منحه الإمبراطور للكنيسة لتوزيعه مجاناً بين المحتاجين . ويبدو أن هذا الاتهام لم يكن خالياً من بعض الصدق ، لأن أثناسيوس كتب مفسراً بأنه وزع بعض القمح على مستحقيه مجاناً وأنه لم يبع القمح كله . على أى حال لم ينتظر أثناسيوس إلى أن يلقى القبض عليه بل فر إلى روما حيث كان يثق فى مناصرة البابا وإمبراطور الغرب له . وفعلا يتقبله أولوا الأمر فى روما بالترحاب ويساعده إمبراطور الغرب على العودة إلى الأسكندرية ، وينجح مسعاه فى سنة ٣٤٦ . وبذلك ينتهى فترة نفى أثناسيوس الثانية ويعود إلى الأسكندرية . وتبدأ أمجد فترة فى تاريخ رياسته لكنيسة الأسكندرية التى تستمر عشرة أعوام . وفى هذه الأعوام العشرة يعمل أثناسيوس على توطيد مركزه فى مصر ومحارب الأريوسية التى كان قد استشرى أمرها فى البلاد فى فترة نفيه . وفى هذه الفترة نمت الكنيسة المصرية نمواً كبيراً وتعددت حدود مصر ، فأنشأت كنيسة فى إثيوبيا فرعاً من كنيسة الأسكندرية .

وكان المسيحيون فى هذه الأثناء منذ عصر قسطنطين قد دمروا كثيراً من المعابد الوثنية أو حولوها كنائس . وكان ذلك يتم برضاء السلطات الرسمية وبأمرها أحياناً . ومن أشهر ما تم فى هذا المجال هو قرار الإمبراطور بإعادة بناء معبد القيصرون وتحويله إلى كنيسة بالأسكندرية ، وكان ذلك فى أثناء هذه السنين العشرة لأثناسيوس ، ويبدو أن أسقف الأسكندرية تعجل الأيام ولم ينتظر حتى يتم بناء القيصرون ، بل أقام الصلاة فيه قبل إتمامه نظراً لاتساعه . ويبدو أن الإمبراطور لم يكن راضياً عن زيادة نفوذ أثناسيوس ، فانتهز فرصة إقامته الصلاة فى الكنيسة الجديدة دون إذنه ، فاعتبر ذلك تعدياً من أسقف الأسكندرية على امتيازات الإمبراطور . وكان إمبراطور روما الذى يعطف على أثناسيوس

قد توفى ذلك الوقت وأصبح قسطنطيوس إمبراطورا مفرداً فى الإمبراطورية بقسميها الشرقى الغربى ، فقرر التخلص من أثناسيوس وأرسل قوة مسلحة لإلقاء القبض عليه فى سنة ٣٥٦ ، ولكنه تمكن من القرار واختفى بما يشبه المعجزة . وظل مختفياً فترة تعتبر بمثابة نفيه الثالث ، ولكن فى هذه المرة لم يترك مصر بل اختفى بين الرهبان المصريين متنقلا بين الأديرة المختلفة التى كانت منتشرة فى ذلك الوقت سواء فى الصعيد أو فى صحراء مصر الغربية . وقد حاول أثناسيوس أن يعود الى كنيسته مرة ثانية فى عهد الإمبراطور الجديد يوليانوس (٣٦١—٣٦٣) ولكنه فشل وأصدر الإمبراطـــور قراراً بنفيه من الأسكندرية ، فاضطر أثناسيوس إلى أن يختفى ثانية بين الرهبان . وفى عام ٣٦٣ — ٣٦٤ تولى العرش فى القسطنطينية إمبراطور مؤيد لأثناسيوس ، فعفى عنـــه وأعاده إلى كرسية فى كنيسه الأسكندرية .

ورغم تغير الإمبراطور فى القسطنطينية وتولى فالنس Valens الحكم فى التالى العام (٣٦٤—٣٧٨) وكان موالياً للحركة الأريوسية ، إلا أن أثناسيوس تمكن بفضل شعبيته الكبيرة بين المصريين عموما من البقاء فى أسقفيتـــه حتى وفاته سنة ٣٧٣ .

بعد وفاة أثناسيوس خلفه أحد زملائه القدماء ، ويدعى بطرس ، ولــكن الإمبراطور ڤالنس الذى كان متشيعاً للأريوســية أراد أن ينتهز فرصة موت أثناسيوس ويعين أسقفاً أريوسياً ، ولذلك لم يعترف ببطرس وعين لقيوس Lucius ، وأقامه فى أسقفية الأسكندرية بقوة السلاح حتى أن بطرس لجأ إلى الفرار إلى روما .

وتمثل أسقفية لقيوس آخر محاولة أريوسية للسيطرة على كنيسة مصر ، وقد تميزت أيامه ببعض الأحداث ذات الأهمية التاريخية . فراح ينتقم من أتباع

أثناسيوس وينكل بهم وخاصة بين رهبان الصحراء الغربية بالقرب من الأسكندرية . ولكن صاحب حركة اضطهاد الرهبان صدور قرارات من الإمبراطور تلقى ضوءاً على الحياة العامة فى مصر فى هذه الفترة . ذلك أن بعض الأثرياء الذين تقع عليهم مسئولية تولى الوظائف العامة . انتهزوا فرصة انتشار حركة الرهبنة وانضموا إلى صفوفها تاركين الحياة فى المدينة علهم بذلك يتجنبون مسئولية تولى الوظائف العامة التى كانت تكلفهم مبالغ كثيرة دون فائدة تذكر فى تلك الأيام . وقد أضر هذا الاتجاه بالنظام الإدارى فى مصر أيما ضرر . فأصدر الإمبراطور قراراً يقضى بأنه يجب على الأثرياء من المواطنين الذين يهجرون المدن بدعوى الانضمام إلى صفوف الرهبان أن يعودوا ثانية أو أن يسلموا جميع ممتلكاتهم للدولة . . .

ولكن إجراءات الدولة لم تمنع أفراداً من كل الطبقات أن يتركوا مواطنهم ويذهبوا إلى الأديرة ، مما أخذ يؤثر على حركة التجنيد للجيش ، فاضطر الإمبراطور إلى إصدار أوامره بتجنيد القادرين من الرهبان للخدمة فى الجيش الرومانى . وفعلا ذهبت قوات عسكرية إلى الأديرة فى الصحراء الغربية، فاعتقلوا من اعتقلوا وقتلوا من قاوم ، كما نفت الدولة عدداً من رؤسائهم . كل ذلك أدى إلى ثورة الأهالى والرهبان على الأسقف الأريوسى ، حتى أنه اضطر إلى الفرار إلى القسطنطينية ؛ فى حين تمكن بطرس الذى كان منفياً فى روما من العودة إلى الأسكندرية (فى عام ٣٧٥ أو ٣٧٦) .

بعد ذلك تولى الحكم فى القسطنطينية إمبراطور جديد هو نيودوسيوس (٣٧٩ — ٣٩٥) ، وأراد أن يعالج المشاكل الدينية فى الإمبراطورية بطريقة تظهر بساطة تفكيره وأنه لم يعرف مدى عمق هذه الانقسامات . فابتدأ بأن أعلن ضرورة تعميم عقيدة مجمع نيقيا فى كل الكنائس ، ثم أكد ذلك الإعلان بأن عقد

مجمعاً في القسطنطينية دون أن يشهده ممثلون عن الكنيسة المصرية خطا فيه خطوة جديدة نحو زيادة أهمية عاصمته من الناحية الدينية ، فأعلن أن كنيسة القسطنطينية يجب أن يكون لها مكان الشرف التالي لكنيسة روما لأن القسطنطينية كانت « روما الجديدة » معنى ذلك أن الأسكندرية فقدت مركزها كثاني كنيسة بعد روما . ثم أصدر المجمع قراراً آخر يقضي بأن تقتصر كل كنيسة على الإقليم الذي تقع فيه ، وهذا يعني أيضاً أن تقتصر كنيسة الأسكندرية على مصر بعد أن كان لها نشاط خارجي ملحوظ . هذه القرارات لم يكن لها رد فعل مباشر في مصر ، ولكنه سيظهر بعد قليل ، والسبب في ذلك هو أن الإمبراطور الجديد شغل الكنائس جميعاً والإدارة الإمبراطورية في أمر القضاء على الوثنية في أرجاء الإمبراطورية . وفي مصر تولى أسقف الأسكندرية في ذلك الوقت وهو ثيوفيلوس مهمة تنفيذ هذه السياسة ، التي نفذها بكل قسوة ووحشية . ولما كان معبد السرابيوم في الأسكندرية من أشهر معاقل الوثنية القديمة ، وكثيراً ما احتمى به الوثنيون . لذلك استعان ثيوفيلوس بالسلطات العامة في المدينة وهاجم المعبد ومن فيه . فدمر المعبد والمكتبة الكبيرة التي كانت ملحقة به . وفي أثناء هذه الحملة فر كثير من رجال العلم والفلسفة الذين كانوا يشرفون على مدارس الأسكندرية ، نظراً لأنها كانت مركزاً للفكر الوثني . بعد ذلك تحول ثيوفيلوس إلى اضطهاد خصومه في الرأي من رهبان الصحراء الغربية مستخدماً في ذلك قوة من الجنود الرومان أيضاً .

الانقسام المذهبي بين الأسكندرية والقسطنطينية :

في سنة ٤١٢ توفي ثيوفيلوس وخلفه الأسقف كيرلس الذي يعتبر أهم من تولى أمر الكنيسة المصرية بعد أثناسيوس . ويغلب على شخصية كيرلس طابع التطرف سواء في أعماله أو أفكاره ، مع ميل إلى العنف . وقد بدا ذلك واضحاً

فيما حدث فى أيامه من تجديده اضطهاد اليهود فى الأسكندرية بعد أن خمد نحواً من ثلاثة قرون ، وفى هذا الاضطهاد لم يعتمد على جنود الحامية العسكرية ، بل اعتمد على العامة فى المدينة والرهبان فى الصحراء الغربية بالقرب من الأسكندرية . وبلغ من عنف هذه الأحداث أن اضطرب الأمن كل الاضطراب ، وأخذ الغوغاء ينهبون بيوت الأثرياء وممتلكاتهم ، وعجز الوالى ورجال الجيش عن إخماد هذه الاضطرابات لأن كيرلس بدأ يقوم بدور سياسى شبيه بدور أثناسيوس وهو تولى زعامة الشعب المصرى ضد الإمبراطور وممثليه فى مصر وهم الوالى وأعوانه.

وقد بلغ بكيرلس التطرف حتى أنه ضاق بمدارس الفلسفة فى الأسكندرية باعتبارها مراكز للفكر الوثنى . ومن أبرز شخصيات الحياة الفكرية والأدبية فى الأسكندرية فى ذلك الوقت الفيلسوفة المشهورة هيباثيا ، التى كانت على جانب كبير من العلم والجمال معاً . وكان يؤم دروسها الشباب من المسيحيين والوثنيين على السواء ، وكانت لها علاقات طيبة مع كثير من علية القوم فى الأسكندرية من أصحاب الاتجاهات المختلفة . وقد وجه كيرلس اضطهاده ضد هذه السيدة العالمة وهاجمها الرهبان وقتلوها فى سنة ٤١٥ . بعد ذلك تدخل الإمبراطور وأرسل بعثة للتحقيق فكف كيرلس عن هذه الأعمال .

على أن أهم ما يتميز به كيرلس وعصره هو نشأة الصراع المذهبى بين القسطنطينية والأسكندرية الذى سينتهى بانفصال الكنيسة المصرية عن الكنيسة الرومانية الشرقية نهائياً فيما بعد . فمنذ أن أعلن ثيودوسيوس فى سنة ٣٨١ جعل كنيسة القسطنطينية بمثابة الكنيسة الرسمية والأولى للإمبراطورية الشرقية ، كان معنى هذا أن أصبح أسقف القسطنطينية بمثابة المتحدث الرسمى عن وجهة نظر القصر الإمبراطورى من الناحية الدينية . وقد حدث فى ذلك الوقت أن نشأ خلاف جديد بين المسيحيين حول طبيعة المسيح من الناحيتين الإلهيه والبشرية . وكان من الطبيعى أن تقرر

الكنيسة الرسمية في القسطنطينية موقفها من هذه المشاكل، وفعلاً أصدر نسطور أسقف القسطنطينية رأيه في الأمر منادياً ببشرية المسيح إلى جانب ألوهيته. وفي الحال انقسمت الكنائس المختلفة إلى فريقين: فريق يؤيد الدعوة النسطورية أو الملكانية كما أصبحت تدعى فيما بعد نظراً لأنها تعبر عن رأى الإمبراطور أيضاً، وفريق يعارضها أشد المعارضة، وقد تمثل الفريق المعارض في مصر وسوريا وأرمينيا، وكانوا يدعون إلى اعتبار المسيح ذا طبيعة إلهية واحدة ولذلك أطلق عليهم اسم أصحاب الطبيعة الواحدة (monophysites) وقد أطلق على المسيحيين في سوريا من أصحاب هذا المذهب اسم اليعاقبة نسبة إلى زعيمهم يعقوب. ولم يكن موقف كل من سوريا ومصر دينياً مجرداً (وكانا على صلة وثيقة في ذلك الوقت)، بل كانت تكمن وراء موقفهما دوافع قومية ورغبة ملحة في معارضة الإمبراطور وكل ما يصدر عن السلطات الحاكمة؛ وكانوا يجدون في الخلافات المذهبية سبيلا لإظهار ذلك كله.

ولذلك ما أن أعلن نسطور عقيدته في القسطنطينية حتى راح كيرلس في الأسكندرية يهاجمها ويفندها، ويعمل جاهداً على بلورة الفكرة المعارضة على أساس من الفقه الديني ليروج لها في مصر وخارج مصر. حتى أنه نجح في مجمع أفسوس سنة ٤٣١ أن يفرض رأيه على الأعضاء ويصدر حكما ضد نسطور نفسه.

وهكذا بقي كيرلس متمتعاً بمكانة عالية حتى نهاية حياته سنة ٤٤٤، وخلفه الأسقف ديوسقورس (٤٤٤ — ٤٥١) واستأنف الصراع ضد القسطنطينية، إذ تجدد الخلاف مرة ثانية. ذلك أن أسقف القسطنطينية الجديد (فلافيانوس)، بعث الفكرة النسطورية من جديد، ودعا لضرورة إثبات الطبيعتين للمسيح. وقد استطاع ديوسقورس أن ينزع لنفسه انتصاراً سريعاً في مجمع أفسوس سنة ٤٤٩؛ ولكن يبدو أن انتصاره تم بأساليب غير

مشروعة مثل الرشوة والتهديد ، حتى أطلق على هـذا المجمع اسم « مجمع اللصوص » .

وفى العام التالى توفى الإمبراطور ثيودوسيوس الضعيف وخلفه ماركيانوس الذى قرر إلغاء قرارات مجمع أفسوس الأخير ودعا إلى عقد أكبر مجمع قديم فى خلقيدون سنة ٤٥١ . وعن هـذا المجمع خرجت عقيدة دينية جديدة تؤكد « أن للمسيح طبيعتين ، غير مندمجتين ، ولا متغيرتين ، ولا منقسمتين ، ولا منفصلتين[1] » .

وقد حوكم ديوسقورس أمام هذا المجمع ، وصدر الحكم بعزله من منصبه لا بسبب انحرافه عن العقيدة التى أقرها المجمع ولكن بسبب سوء سلوكه . وبعد ذلك صدر أمر الإمبراطور بنفيه إلى جانجرا بآسيا الصغرى (Gangra) ، حيث توفى فى سنة ٤٥٤ .

ولكن قرارات مؤتمر خلقيدون ونفى ديوسقورس لم تنه الخلاف ولم تنجح فى إيجاد الوحدة الدينية للامبراطورية ؛ وحين حاول الإمبراطور تطبيق هذه القرارات بالقوة ، أدى الأمر إلى اضطرابات عنيفة راح ضحيتها كثير من الأفراد وخاصة فى مصر وسوريا ، حيث بقيت دعوة الطبيعة الواحدة قوية ، بل أخذت كل من سوريا ومصر تنزعان إلى الانفصال عن القسطنطينية وكان تاريخ الكنيسة المصرية بعد ذلك سلسلة من المنازعات بشأن اختيار الأسقف ، فمن ينتخبه المصريون لا يعينه الإمبراطور ، ومن يعينه الإمبراطور لا يقبله المصريون ؛ إلى أن تم الاتفاق أخيراً سنة ٤٨٢ على أن يختار المصريون أسقفهم دون تدخل الإمبراطور حتى ليمكن أن يتخذ هذا التاريخ بداية انفصال

---

(١) أنظر نص العبارة ومصادرها : Hardy, Christian Egypt, p. 112
وفى كتاب الدكتور السيد الباز العرينى : مصر البيزنطية ص ٧٣ .

كنيسة الأسكندرية عن القسطنطينية ، رغم أن بعض الأباطرة سيحاولون التدخل في شئون الكنيسة المصرية بعد ذلك . .

هذه الانقسامات المذهبية — كما سبق أن بينا — كانت دوافعها الحقيقية عصبية قومية ورغبة في الانفصال ، لأن الاختلافات لم تكن جوهرية على النحو الذي قد يبدو لأول وهلة . فعند تحليل هذه الآراء المتعارضة كما صاغها زعماؤها من أمثال كيرلس وسيفيروس السوري وكما في عقيدة خلقيدون ، نجدهم جميعاً يقررون ببشرية المسيح وألوهيته معاً ، ولكن فريقاً منهم (مثل المصريين والسوريين) كانوا يرون أن الاندماج كان كاملا بحيث لا يجوز تصور التمييز بينهما ، أما الفريق الآخر (خلقيدون) فكان يرى ضرورة تصور الطبيعتين لإدراك معنى التضحية التي قام بها المسيح . فالمبدأ الديني في العقيدتين واحد ، ولكن الاختلاف حول استخدام لفظ « الطبيعتين » في نص العقيدة .

ولكن هذا الاختلاف حول الألفاظ الدينية في ذلك الوقت كانت له عواقب وخيمة . فقد انقسم الناس في كل مكان إلى فرق ومذاهب كثيرة ، خاصة وأن بعض هذه المذاهب الكبرى انقسم على نفسه إلى أحزاب مختلفة كما لليعاقبة في سوريا ومصر . وبذلك فقدت الإمبراطورية وحدتها ، كما أن الفتن والاضطهادات أفقدت الإمبراطورية الكثير من شبابها وأضرت بالحياة الاقتصادية كل الضرر ، كما كان للنظام الإداري كما وضعه دقلديانوس من تفتيت الإدارة وفصل السلطة المدنية عن السلطة العسكرية في الولايات آثار سيئة في إضعاف الجهاز الإداري . كل ذلك أدى إلى سوء الأحوال عموما في الإمبراطورية في النصف الثاني من القرن الخامس وبداية القرن السادس مما شجع على توالي الهجمات الأجنبية على الحدود .

وفي مصر نشطت القبائل النوبية من جديد ، وفي الشرق انتهز الفرس

فرصة سوء الأحوال فى الإمبراطورية وأخذوا يتقدمون غربا حتى هددوا حدود مصر الشرقية . وبدا كأن الإمبراطورية توشك أن تتصدع بسبب الأنقسامات الداخلية والهجمات الخارجية .

جستنيان (٥٢٨ — ٥٦٥)

فى هذه الظروف تولى الحكم فى القسطنطينية الإمبراطور جستنيان الأول الذى يعتبر آخر الأباطرة العظام فى الإمبراطورية الرومانية فى عصرها المتأخر. فقد كان واسع الطموح ، ذا مواهب فذة مكنته من الإصلاح . وكان فى الإصلاح هو إعادة الوحدة للإمبراطورية عن طريق تحقيق الوحدة الدينية ، وإعادة تنظيم الإدارة ، وتقوية الجيش لتأمين الحدود ، ثم العمل على ازدهار الحياة الاقتصادية وتنشيط الصناعة والتجارة من جديد[1] . وقد تمكن من تحقيق كثير مما سعى إليه من الإصلاح باستثناء الوحدة الدينية . ومن العسير حقاً أن نتوقع له النجاح فى تطبيق سياسته الدينية لسببين ، السبب الأول يرجع إلى عمق الانقسامات الدينية رغم جهوده الكبيرة فى تعميم عقيدة خلقيدون فى جميع أنحاء الإمبراطورية . والسبب الثانى هو وجود الانقسام المذهبى داخل أسرة الإمبراطور ذاته ، ذلك أن زوجته الإمبراطورة تيودور ، التى ابتدأت حياتها راقصة ، وأصبحت فيما بعد زوجة جستنيان وإمبراطورة الدولة ومن أمهر نساء التاريخ ، كانت تدين بالمذهب اليعقوبى أى مذهب الطبيعة الواحدة ، فإذا كان الإمبراطور لم يتمكن من تحقيق الوحدة الدينية داخل أسرته فكيف نتوقع له تحقيقها فى الإمبراطورية !

ومع ذلك فعند تدقيق النظر فى سياسة جستنيان الدينية نجده أكثر حرصا

---

(١) أهم دراسة حديثة لعصر جستنيان هى
E. Stein, Histore du Bas-Empire, II, (1949).

على تحقيق الوحدة السياسية من الوحدة الدينية . فكان يهدف إلى أن يكون رؤساء الكنائس الأساسية فى الإمبراطورية من نفس المذهب الإمبراطورى وهو الملكانى (أى مذهب خلقيدون) وأن يكون هؤلاء الأساقفة كمندوبين أو ممثلين دينيين للامبراطور شخصيا فى الولايات ، حتى لا يتمكن أسقف محلى من معارضة الإمبراطور كما حدث من قبل . وهو لم يعبأ بعد ذلك إذا كان سائر القساوسة فى داخل الولاية يتبعون مذهبا ، ما داموا لا يصلون إلى رياسة الكنيسة فى ولايتهم . ويتضح تنفيذ هذه السياسة فى مصر ، إذ لم يترك للمصريين حرية اختيار أسقف الأسكندرية بل أصر على أن يعين هو الأسقف . ونظراً لمقاومة المصريين لهذا الاتجاه وصعوبة العثور على أسقف مصرى يقبل هذا الوضع ، وإذا وجد فمن العسير إتمام مراسم التعيين الدينية دون ثورة المصريين عليه قبل أن يرسم ، فكان جستنيان يختار من يشاء ويجرى له المراسيم الدينية فى الخارج ثم يرسله إلى الأسكندرية فى حراسة قوة عسكرية تفرضه على الكنيسة فرضا . وبذلك فقط تمكن جستنيان من إقامة أساقفة ملكانيين فى الأسكندرية ، ولكن ذلك لم يتعد أشخاص الأساقفة وعدداً من المحيطين بهم ، أما سائر المصريين فقد بقوا على مذهبهم يؤمنون بالطبيعة الواحدة ، ولكن دون أن تكون لهم الصدارة التى تمتعوا بها زمن كيرلس وديوسقورس . وزاد موقف الأساقفة الملكانيين صعوبة أنهم حينما حاولوا فرض مذهبهم فى مصر كانت الإمبراطورة تيودورا تحمى المصريين الذين كانت تشاركهم مذهبهم .

أما فى المجالات الأخرى كان جستنيان أكثر توفيقاً ، فقد أدخل على الإدارة بعض الإصلاحات الأساسية سنتحدث عنها فى فصل آخر ، ولكن يكفى أن نذكر هنا أنه أعاد توجيد السلطتين المدنية والعسكرية فى شخص الولاية ، بينما أبقى على تقسيم مصر إلى عدة ولايات .

ومع ذلك فتوحيد السلطتين المدنية والعسكرية ساعد على استتباب الأمن في البلاد وتأمين الحدود في الوقت نفسه . وفي أيامه استطاع المصريون أن يمدوا نفوذهم الديني جنوباً فدخلت القبائل النوبية في المسيحية على المذهب اليعقوبي ، رغم جهود الأسقف في الأسكندرية أن يكون للمذهب الملكاني السبق . ولكن الإمبراطور السياسي لم يعبأ بانتشار أي المذهبين في هذه البقاع ، ولعله كان يعلم أنها كانت خاضعة لتأثير مسيحي من صعيد مصر من قبل ، ولكنه كان سعيداً بتحويل هذه القبائل إلى المسيحية ، لأنه اعتقد أن ذلك يعني امتدادا لنفوذه وتأميناً لحدود مصر الجنوبية أيضاً .

نهاية مصر البيزنطية وفتح العرب :

ولكن خلفاء جستنيان لم يكونوا في مثل قدرته ، ولذلك لم يتمكنوا من الاستمرار في الإصلاح ، وسرعان ما ظهرت العيوب التي حاول جستنيان جاهدا أن يصلحها ، وعادت الفوضى إلى الإدارة والجيش معاً . فتجددت الهجمات الأجنبية على الحدود ، وإذا بالنوبيين يعاودون تهديدهم وغزوهم لحدود مصر الجنوبية ؛ ولم يكن لدخولهم في المسيحية أي أثر . وفي الوقت نفسه عاد الخلاف المذهبي في مصر إلى سابق عهده ، من مقاومة المصريين للأسقف الملكاني في الأسكندرية . ولذلك حين أعلن هرقل شعار الثورة ضد الإمبراطور ، وجدنا المصريين ينحازون إلى جانبه ، ليس عن رغبة صادقة في مناصرته ولكن كرها في الإمبراطور الحاكم . حتى إذا أصبح هرقل نفسه إمبراطورا ، ضاقوا من جديد بأساقفته الملكانيين ، رغم محاولته الوصول إلى سبيل للتفاهم مع الأقباط المصريين .

ولكن حدث في ذلك الوقت أن هددت الدولة الفارسية حدود الإمبراطورية الشرقية ، وأنها نجحت في التوغل الى داخل الإمبراطورية ذاتها فاستولت على

سوريا وفلسطين ثم مصر فى عام ٦١٦ . ولكن امتداد النفوذ الفارسى على هذا النحو لم يدم سوى عشرة أعوام ، تمكن بعدها هرقل من إعادة هذه الولايات الى حظيرة الإمبراطورية من جديد . ولم يكن استردادها بالأمر العسير لما عرفت به فترة الاحتلال الفارسى من القسوة والعنف . وعاود هرقل جهوده فى التفاهم مع الأقباط المصريين على عقيدة دينية واحدة ، على أساس إدخال فكرة جديدة وهى بدعة « الإرادة الواحدة » . ولكن المصريين لم يكونوا مستعدين للتفاهم بحال . فعين هرقل أسقف الأسكندرية الملكانى قورش المعروف باسم المقوقس ليكون حاكما لمصر أيضاً . وكان المقوقس هذا معروفاً بقسوته وكراهيته لأصحاب الطبيعة الواحدة ، ومنحه الإمبراطور سلطة مطلقة لتحقيق سياسته فى مصر . فأطلق على المصريين حملة من الاضطهاد العنيف مما زاد كراهية المصريين ونفورهم من الحكم الرومانى .

وهنا تظهر على مسرح الأحداث العالمية دولة شرقية جديدة هى الدولة العربية ، خرجت من قلب الجزيرة العربية تحمل معها ديناً جديداً هو الإسلام . وبعد أن اطمأنت هذه الدولة إلى سيادتها فى الجزيرة العربية أولا ، أخذت تتطلع إلى خارج حدودها ، فوجدت إمبراطوريتين متداعيتين هما الإمبراطورية الفارسية فى الشرق والإمبراطورية الرومانية أو البيزنطية فى الغرب . وعند أول محاولة لبسط الدولة العربية الجديدة نفوذها فى الخارج انهارت الإمبراطوريتان معاً . وكان سقوط مصر فى يد العرب على يد عمرو بن العاص سنة ٦٤٠ .

الفصل التاسع

معالم النظم والحضارة في مصر البيزنطية

(١) النظام الإدارى

لقد سبق أن تحدثنا فى هذا الباب عن آثار الاضطرابات والانقسامات السياسية والعسكرية التى قطعت أوصال الإمبراطورية الرومانية خلال الجزء الأكبر من القرن الثالث . وكان من نتائج ذلك أن أصيبت الإدارة بعطل شديد بحيث أصبحت عاجزة عن القيام بوظيفتها على نحو مرضى ؛ وليس هناك حاجة إلى إثبات مدى الضرر والخطر الذى تتعرض له امبراطورية عالمية بدون إدارة قوية . ولعلنا لا نبالغ فى شىء إذا قلنا إن أشد ما كانت الإمبراطورية فى حاجة إليه هو رجل يصلح إدارتها ، وأن دقلديانوس كان ذلك الرجل . فإذا لم يكن لدقلديانوس مواهب عسكرية تخلد اسمه فى تاريخ روما الحربى ، فقد كان له من مواهب الإدارة والتنظيم ما مكنه من القيام بإصلاحات فى نظم الإدارة والحكم والاقتصاد سادت من بعده مدة ثلاثة قرون تقريباً ، وأصبح عهده يمثل نقطة تحول فى التاريخ القديم بأسره بدخول الإمبراطورية الرومانية فى مرحلتها المتأخرة وأكبر ممهد لقيام العصر البيزنطى فى الشرق .

وكما سبق أن رأينا فى وصف نظامه الضرائبى كانت مبادئه فى الإصلاح تتلخص فى التبسيط والتوحيد ، تبسيط النظم وتوحيدها فى ولايات الإمبراطورية المختلفة . وفى سبيل تحقيق ذلك قرر العمل بمبدأ اللامركزية فى إدارة الإمبراطورية ، حتى يخفف عن الإدارة المركزية فى العاصمة من أعباء الروتين الإدارى ، أولا عن

طريق إشراك غيره معه فى الإدارة ثم عن طريق إنشاء وحدة إدارية كبيرة ، تمثل حلقه متوسطة بين الإدارة المركزية وإدارة الولاية . هذه الحلقة المتوسطة أطلق عليها لفظ دوقية (diocesis) وقسمت الإمبراطورية إلى اثنى عشر دوقية هى بريطانيا والغالة (وشملت شمال فرنسا وأرض الرين وهولنــــدا) وفيننسيس Viennensis (جنوب فرنسا) وأسبانيا (بما فيها البرتغال ومراكش)وإيطاليا (ومعها صقلية وسردينيا وكورسيكا) وإفريقيا (الجزائر وتونس وطرابلس) وبانونيا وموسيا وطراقيا(وتمثل كل منها غرب ووسط وشرق البلقان) وأسيانا وبونتيكا (وتمثلان جنوب غرب وشمال شرق آسيــا الصغرى) ثم الشرق (وشملت كيليكيا وسوريا وفلسطين ومصر وقورينة) وبذلك قضى نهائياً على تنظيم الإمبراطور أغسطس فى تقسيم الولايات بين الإمبراطور والسناتو .

على هذا الأساس وقعت مصر فى دوقية الشرق ، ولــكن إصلاح دقلديانوس لم يتوقف عند هذا الحد، بل رأى أن يقسم الولايات الـكبيرة إلى ولايات أصغر ، وذلك عملا بمبدأ اللامركزية . فقسمت الولايات الـكبيرة مثل إيطاليا وأسبانيا والغالة ومصر إلى ثلاث أو أربع أو خمس ولايات صـغرى ، فمصر التى كانت طوال تاريخها القديم وحدة سياسية وإدارية واحدة قسمت إلى ثلاث ولايات أساسية[1] : ولاية مصر الجوبتيرية(Agyptus Jovia) وتشمل غرب الدلتــا بما فيها الأسكندرية (وسميت كذلك لأنها كانت الولاية الأولى فى مصر ولأن

---

(١) الدراسات الأساسية لنظم مصر الإدارية فى العصر البيزنطى هى :

M. Gelzer. Studien Zur byzantinischen Verwaltung Aegyptens (1909);

G. Rouilliard, L'Administration Civile de L'Egypte Byzantine (1928);

A. H. M. Jones. Cities of the Eastern Roman Provinces, pp. 338—350 (1937).

والدكتور السيد الباز العرينى : مصر البيزنطية ص ٨١ — ٩٥ و ١٥٥ — ١٧٧ .

دقلديانوس اتخذ لنفسه لقب جوفيوس Jovius أى أنه بمثابة ممثل كبير الآلهة على الأرض) ، وولاية مصر الهرقلية (Aegyptus Herculia) وتشمل شرق الدلتا ومصر الوسطى المعروفة باسم هيتانوميا (وسميت الهرقلية نسبة إلى اللقب الذى اتخذه شريك دقلديانوس فى إدارة الولايات الغربية Maximian Herculius) ثم ولاية طيبة (وتشمل الصعيد جنوبى أسيوط Panopolis) أما الصحراء الغربية فقد أصبحت ولاية مستقلة أطلق عليها اسم ليبيا . وقد تم تنفيذ هذا التقسيم فى عام ٢٩٧ بعد أن انتصر دقلديانوس على أخيليوس الذى ادعى لنفسه الإمبراطورية فى الأسكندرية ، ثم عدلت أسماء الولايتين الشماليتين إلى مصر (Aegyptus) فى غرب الدلتا ، وأوغسطمنيكا Augustamnica لشرق الدلتا ومصر الوسطى .

هكذا انقسمت مصر إلى ولايات ثلاثة منفصلة ، ومع ذلك فإن الفصل التام لم يتحقق ، إذ منح حاكم الولاية الأولى وهى مصر (الجويتيرية) الذى كان مقره الأسكندرية سلطاناً أسمى من حكام الولايتين الأخريين ، فحمل ذلك الحاكم الأول لقب Praefectus Aegypti ، بينما أطلق على الحاكين الآخرين لقب Praeses ، ولكنهم جميعا كانوا يتبعون المشرف على دوقية الشرق الذى حمل لقب كونت (Comes) .

ولكن طرأ على هذا النظام بعض التعديل فى آخر القرن الرابع ، إذ أصبحت مصر تكون فى سنة ٣٨٢ دوقية مستقلة وألحقت بها ليبيا ، وبذلك استردت وحدتها الإدارية من جديد ، وأصبح يحكمها حاكم عام يسمى Praefectus Augustalis . وعقب ذلك فصلت مصر الوسطى (هيتانوميا) إداريا ، وأصبحت تكون ولاية إدارية أطلق عليها اسم أركاديا Arcadia (فى سنة ٣٨٦) . وبعد ذلك أعيد تقسيم كل من طيبة وأوغسطمنيكا ومصر ، كل إلى قسمين :

ملاحظة أخيرة بشأن تقسيم السلطة فى الولاية حسب نظام دقلديانوس ،

هى فصل السلطة المدنية عن السلطة العسكرية . فحكام الولايات الثلاثة الجدد حكام مدنيون ليس لهم سلطان عسكرى كما كان الأمر فى النظام الذى وضعه الإمبراطور أغسطس قديماً ، أما جيش الحامية العسكرية الرومانيسة فى مصر بأسرها فقد وضع له قائد مستقل .

وقد تبع هذا الإصلاح الأساسى تعديل آخر يتعلق بالأقسام الإدارية المحلية فى الريف . ذلك أن تعميم نظام الحكم المحلى فى مطلع القرن الثالث على يد سبتميوس سيفيروس قد استكمل نموه فى عصر دقلديانوس وخلفائه ، إذ حولت النومات الإدارية إلى مدن مستقلة ، ولم يعد هناك فى المدن الجديدة سوى إدارة محلية حلت محل النظام المزدوج القديم ، الذى كان يقوم على وجود موظفين يمثلون السلطة المركزية وموظفون يمثلون الحكم المحلى . وهكذا اختفى منصب الاستراتيجوس الذى كان يحكم النوموس طيلة العصرين اليونانى والرومانى . ثم أتبع ذلك بإلغاء أقسام النوموس القديمة وهى التوپارخيا (Toparchia) ، وقسمت النومات إلى عدد من الوحدات الجديدة أطلق عليهـا اسم پاجوس (Pagus) يتولى إدارتها موظف يعرف باسم Praeposities . ولفظ پاجوس (Pagus) هو الاصطلاح اللاتينى التقليدى لأقسام الإقليم الزراعى للمدينة (Chora) . وهكذا استكمل نظام الحكم المحلى تطبيقـه فى مصر وأصبحت الولايات الثلاثة تنقسم إلى عدد من المدن Poleis ، لكل مدينة أرض زراعية تتبعها (Chora) وقسمت هذه الأرض الزراعية الى عدد الوحدات المسماة باغوس .

ما من شك فى أن الهدف الحقيقى من تدعيم نظام الحكم المحلى ليس توطيد الحرية السياسية على أساس الحكم المحلى الحق ، ولكن أدرك دقلديانوس أن النظام القديم المزدوج قد ثبت فشله وعجزه ، وخاصة بعد أزمات القرن الثالث

المتلاحقة التي تركت الحكومة المركزية مسلوبة السلطة . ولذلك سعى فى إصلاحه الجديد إلى إلقاء عبء الإدارة المحلية بأكمله على كاهل الأهالى ممثلين فى هيئات الحكم المحلى . ولعله ظن أنه فى ظل نظام الحكم المحلى الكامل سوف يزداد مجالس المدن وموظفوها إقبالا على تحمل مسئولياتهم مدفوعين بفكرة الشعور بالاستقلال وفى سبيل صبغ التعديلات الإدارية بصبغة جديدة تماماً واستجابة تطورات عامة أخرى تمت فى القرن الرابع ، أدخلت تعديلات فى الوظائف المدنية القديمة فاختفت معظمها وحلت محلها وظائف جديدة . فمن ذلك مناصب الكهنة والإشراف على الجنازيوم ، اختفت وحل محلها الكنيسة ورجالها ، كما أن مناصب أكسجيتيس exegetes والمشرف للتموين Euthenarches اختفت تدريجيا . أما المناصب الأساسية الجديدة فهى ثلاثة :

أولا : المشرف على المدينة (Curater Civitatis أو Logistes) الذى أصبح خلال القرن الرابع أحد موظفى المدينة النظاميين ينتخبه مجلس المدينة . وأصبح فى الواقع بمثابة رئيس المدينة ، له سلطات متعددة تشمل بعض اختصاصات الإستراتيجوس القديم وبعض الموظفين الآخرين أيضاً : وأصبح هو ومعاونوه الإداريون مسئولين عن أعمال مختلفة ، مثل ميزانية المدينة والإشراف على نقابات العمال والتجار ، وتقدير الضرائب ، والإشراف على الأمن وتموين المدينة .

ثانياً : حامى المدينة أو العامة (defensor civitatis or plebis أو ekdikos) وكان واجبه الأساسى حماية دافعى الضرائب من جامعى الضرائب . وكان له سلطة اعتقال أى شخص أو وضعه تحت المراقبة وتحديد إقامته فى المدينة ، اذا كان متهما بإضرار شخص آخر .

ثالثاً : الموظف المالى exactor الذى تولى أهم وظيفة بالنسبة للحكومة

المركزية وهى جمع الضرائب . ولكن يبدو أن هـذا الموظف كان قاصراً على مدن الريف فى مصر ، أما فى الأسكندرية فقد وجد موظف مالى آخر أطلق عليه لفظ « vindex » ويبدو أن هـذه الوظيفة أنشئت فى القرن الخامس فقط وبقيت بعد ذلك[1] .

أما عن المجالس المنتخبة (boulé) فقد استمرت تحمل المسئوليات الإدارية، ولكن فقدت كل معانى الحكم المحلى . إذ أصبح أعضاء هذه المجالس يكونون منذ القرن الرابع طبقة وراثية ، هى الطبقة الثرية فى كل مدينة .

هذه هى معالم النظام الإدارى الذى ساد مصر فى القرنين الرابع والخامس والثلث الأول من القرن السادس ، حتى أصدر جستنيان قانونه الثالث عشر المشهور سنة ٥٣٨ . وليس هنا مجال دراسة هذا القانون دراسة تفصيلية ، وإنما نلاحظ أن جستنيان لم يعد يحفل بالنظم المدنية ، ولا حتى فى الظاهر ، وإنما سعى إلى تقوية الإدارة المباشرة بكل أسلوب . وأهم تعديل قام به جستنيان هو تقسيم دوقية مصر إلى أقسامها الأربع القديمة وأضاف إليها ولاية ليبيا ، فأصبحت مصر تنقسم إلى خمس ولايات . ولكن أخطر تعديل أدخله جستنيان على نظام دقلديانوس هو توحيد السلطة المدنية والعسكرية فى يد حاكم كل ولاية ولعله كان يهدف من وراء هذا التعديل تقوية سلطة الحاكم على ولايته ، ولكن الذى حدث هو أنه زاد من تقسيم عرى الدولة إدارياً وعسكرياً معاً ، لأن الإدارة كانت رغم محاولة كل إصلاح — أضعف من أن تتغلب على ظروف البلاد الاقتصادية والاجتماعية ، فأعضاء المجالس التشريعية كانوا قد أصبحوا مجرد جامعى ضرائب ، كما أن تقسيم البلاد زاد من سلطان كبار الملاك الذين سيطروا على أقاليمهم سيطرة تامة فى القرن السادس كما بينا عند الحديث عن نظام

---

(١) Evagrius, Hist. Eccl. III. 42; Justinian, Edict, XIII. 1. 13

الأراضى . ولهذا فإن توحيد السلطة المدنية والعسكرية فى أيدى الحكام المحليين لم يأت بالنتيجة المرجوة ، وكثيراً ما نشأت المنافسات الصغيرة بين هؤلاء الحكام علما بأن قوتهم العسكرية لم تكن قادرة فى معظم الأحيان سوى القيام بأعمال البوليس ، أو قمع فتنة صغيرة محلية . ولكنها كانت عاجزة كل العجز عن مواجهة أى خطر حقيقى من الخارج ، وقد اتضح ذلك تماماً فى القرن السابع أمام الفتح العربى ، فسقطت البلاد دون مقاومة تذكر .

وكان من نتائج تقسيم البلاد وضعف الإدارة المركزية أن زاد شأن الكنيسة ، حتى ليمكن أن يقال أنها كانت العامل الأساسى الباقى من وحدة الدولة . ويتجلى ازدياد نفوذ الكنيسة فى ذلك الوقت من أنها اضطلعت بكثير من أعمال الدولة ؛ وخير مثال على ذلك سيرة يوحنا بطريرك الأسكندرية فى مطلع القرن السابع ، إذ كانت الكنيسة تهتم بشئون تموين المدينة وقت الأزمات الاقتصاديه، فتستورد القمح من الخارج وتوزعه بين الناس ؛ كما كان لها مستشفيات لعلاج المرضى وبيوت لإيواء الغرباء واللاجئين . كل ذلك يثبت اضطراب الإدارة وضعف الحكومة المركزية ضعفاً شديداً جعلها عاجزة عن تحمل أعبائها ، ولذلك قام بها كل من الكنيسة وكبار الملاك .

ب - الحياة الاقتصادية

أولا نظام الأراضى :

بالرغم من أن المعالم الأساسية لنظام الأراضى فى مصر البيزنطية واضحة بصورة عامة ، إلا أن معلوماتنا عن بعض مراحل تطورها لا زالت قليلة أو غير موجودة . والسبب فى ذلك أن مصادرنا عن هذه الفترة قد عراها بعض التغيير، فالوثائق البردية تعتبر نسبياً أقل كثيراً من وثائق الفترة السابقة ، وإلى جانب قلتها فهى غير متصلة زمنياً ، وأكبر مثال على ذلك أنه لا تكاد توجد لدينا وثائق بردية ذات قيمة اقتصادية من القرن الخامس ، إلى جانب أوراق البردى وصلت إلينا مجموعات كبيرة من قوانين هذا العصر ، وهى المعروفة باسم المجموعة القانونية . لثيودوسيوس والمجموعة القانونية لجستنيان . وبعض قوانين هاتين المجموعتين تمدنا بالجانب التشريعى من أعمال الدولة فيما يتعلق بنظام الأرض ، إلا أنها لا تعطينا أيضاً الصورة كاملة ولا تملأ جميع الفجوات التى تركتها الوثائق البردية . وأخيراً يجد علينا نوع جديد من المصادر وهو الكتابات الدينية التى تتناول سير آباء الكنيسة الأول والرهبان . ورغم أن الظروف الاقتصادية هى أبعد شىء عن طبيعة هذه الكتابات ، إلا أن الدارس لها يجد فيهـا إشارات متفرقة تلقى ضوءاً على حياة مصر الاقتصادية فى ذلك العصر (١) .

---

(١) عن نظام الأرض فى مصر البيزنطية أنظر :

Johnson—West, Byzantine, Egypt, Economic Studies, 19 ff.;

G. Rouillard, Lavie Rurale dans l'Empire Byzantin, (Premier partie : dans L'Egypte) pp. 14—79; E. R. Hardy, Large Estates of Byzantine Egypte; A. H. M. Jones, Cansus Records of the Later Roman Empire, J. R. S. 43, (1953) 49 ff.; Wilcken, Grudzuge, 309 ff.

أما عن نظام الأراضى فيمكننا أن نتخذ عام ٢٩٧ نقطة الابتداء ، حين حضر دقلديانوس إلى مصر للقضاء على فتنة أخيليوس ، وقام بعدد من الإصلاحات والتشريعات كان الغرض الأساسى منها هو توحيد النظم فى مصر مع سائر أقطار الإمبراطورية وفيما يتعلق بالضرائب الزراعية ، نعرف أنه فرض ضريبة موحدة فى جميع أنحاء البلاد على أساس مساحة الأرض ونوع المحصول[١] ، وألغى جميع الضرائب السابقة التى كانت معقدة أشد التعقيد ، فكانت تختلف من مكان إلى مكان ، وتختلف أيضاً حسب الأشخاص ، فهناك من ملاك الأراضى من تمتع بإعفاء كامل من الضرائب أو من بعضها . ولكن عدا النظام الضرائبى لا نعرف أنه أدخل أى تعديل على نظام الأراضى ، فأقسام الأرض المألوفة فى العصر الرومانى استمرت بعد دقلديانوس خلال الثلث الأول من القرن الرابع على الأقل. ولكن نلحظ بعد ذلك فى الفترة بين ٣٣٢ ـ ٣٥٠ أن قسما رئيسياً من الأقسام السابقة وهو أرض الدولة بأنواعها basiliké , demosia , Ousiaké يختفى تماماً من الوثائق المصرية ، ولا يعود إلى الظهور ثانية ؛ ومن المحتمل أنها ألغيت زمن الإمبراطور قسطنطين أو بعده بقليل[٢] . والتتبع للحياة الزراعية فى مصر الرومانية لا يعجب لهذه الظاهرة الجديدة فى القرن الرابع ؛ فقد لاحظنا من قبل نمو الملكية الخاصة فى الأرض بصورة مضطردة على مدى القرون الثلاثة السابقة ومنذ منتصف القرن الثالث نجد أن أرض الدولة (basiliké) قد بدأت تنتقل إلى أيدى الأفراد[٣] . وقد استمر هذا الاتجاه بصورة أقوى فى أثناء القرن الرابع ، أى

---

(١) أنظر Samenelbuch, V, 7622 (297 A. O.) Originally published by Boak, in Etude de Papyrologie II, no. 1.

(٢) Johnson-West, Byz. Eg. p. 19 f.

(٣) أنظر Sammelbuch, IV, 7474, Fayum (254 A. D.); P. Flor. 50, Hermopolis (268 A. D)

فى الوقت الذى ازداد فيه قطاع الملكية الخاصة عموماً والملكيات الكبيرة التى ابتدأت فى القرن الثالث بصفة خاصة ؛ حتى ليمكن أن يقال أنه عندما ألغيت الأرض العامة(basiliké)كانت قد تضاءلت جداً بسبب بيعها للأفراد أو منحها للكنائس المسيحية الجديدة .

فالطابع العام لتطور نظام الأرض فى مصر فى القرن الرابع يشير إلى زيادة قطاع الملكية الخاصة من الأرض على حساب قطاع الملكية العامة التى تختفى تماماً فى منتصف القرن .

ومن الطريف أن نوضح هذه الصورة عن طريق الإشارة إلى بعض قوائم مسح الأرض فى مصر فى القرن الرابع(١) . فإحدى وثائق الفيوم البردية من الربع الأول من القرن(٢) تبين أن مساحة الأرض العامة (basiliké) تكافىء مساحة الأرض الخاصة (idiotiké) فى قرية ثيادلفيا (بطن هريت حاليـاً) ونحن لا نمتلك لسوء الحظ سجلات أخرى لمسح الأرض فى هذه القرية ، ولذلك نضطر إلى البحث فى السجلات التى وصلتنا من أماكن أخرى فى مصر . فهناك وثيقة من مدينة هرموبوليس (الأشمونين) تؤرخ فى الربع الثانى من القرن الرابع(٣) لا تظهر فيها أرض التاج (basiliké) ، ولكن تذكر الأرض العامة (demosia) فقط . وفى هذا السجل نلاحظ أن مساحة الأرض الخاصة تبلغ ٢٩٥٠ أرورا والأرض العامة ١٠٩٣ (أى ما يعادل نسبة ٣ : ١) .

---

(١) أنظر Jones, Census Records of the later Roman Empire, J. R. S., 43 (1953) 48 ff.

(٢) P. Princ, 134 (322 A. D. ?)

(٣) P. Flor. 71.

وفى وثيقة ثالثة[١] ، من المحتمل أنها من المدينة نفسها وحوالى تاريخ الوثيقة السابقة أو بعده بقليل ، تؤكد النتيجة ذاتها ؛ ويمكن تلخيص المعلومات الأساسية التى تتضمنها فيما يلى :

مساحة الأرض الكلية	١٦٫٤٣٩	أرورا
مساحة الأرض الخاصة	١٢٫٥٥٧	»
مساحة الأرض العامة	٢٫٤٨٦	»
مساحة أرض الحدائق	٤٤٤	»
مساحة أرض خاصة (أخرى)	٢٣	»

يتضح من هذه الإحصائية أن مساحة الأرض العامة كانت فى انكماش مستمر بالنسبة للأرض الخاصة ، فهى فى هذه الحالة تبلغ ٢٫٤٨٦ أرورا بينما بلغت أرض الملكية الخاصة ١٢٫٥٥٧ أرورا (أى ما يعادل ١:٥ تقريباً)

يتضح من هذا العرض أن الملكية الخاصة زادت كثيراً فى أثناء القرن الرابع ؛ وما من شك أن الملكية الكبيرة كانت الطابع المميز لهذه الزيادة[٢]. ولسوء الحظ أننا لا نستطيع تتبع هذا التطور فى القرن الخامس الذى يكون فى مرحلة مظلمة فى معلوماتنا عن مصر البيزنطية . ولكن كل الأدلة الموجودة تشير إلى أن الاتجاه الذى لاحظناه فى القرن الرابع استمر أيضاً فى القرن الخامس . ولإثبات ذلك يجب أن نشير إلى ظاهرة خطيرة صاحبت نمو الملكيات الكبيرة فى القرن الرابع ألا وهى ظهور نظام « الحماية » .

(١) P. Ryl. IV. 655, Hermopolis (first half of IV cent. A. D. ?)

(٢) أنظر قوائم تكوين الملكيات الكبيرة فى مقالة جونز السالفة الذكر ، وراجع أيضاً Johnson-West, of. cit. 39 ff.

لقد أراد دقلديانوس بنظام الضرائب الذى فرضه على الإمبراطورية أن يبسط مهمة جمع الضرائب وبذلك يصعب التحايل والهروب. ولكن هذا النظام الجديد لم يحقق الهدف منه، لأن الأثرياء من أهل السلطة والحكم استطاعوا دائماً استخدام نفوذهم أو مالهم فى تجنب دفع الضرائب.

ونظراً لأن مسئولية دفع الضرائب فى ذلك الوقت كانت مسئولية جماعية، أى على جميع سكان القرية أو المنطقة دفع أى عجز، فقد كان من الممكن إرهاب أو حتى تعذيب صغار الملاك حتى يدفعوا العجز المطلوب. وباستمرار هذا الظلم فى جمع الضرائب وسوء الأحوال الاقتصادية من جراء الاضطهادات المتوالية التى كانت طابع هذا العصر، وجد صغار الملاك أن لا فائدة تجنى من امتلاك أراضيهم. فلجأوا إلى حيلة غريبة تنجيهم من مواجهة مسئولية دفع الضرائب وهى أنهم طلبوا حماية أحد كبار الملاك من أصحاب النفوذ فى المنطقة، على أساس أن يتنازل له المالك الصغير عن أرضه ويتولى السيد الكبير أمر دفع الضرائب للدولة. وهكذا تحول من مالك حر إلى تابع أولا ثم رقيق أرض، يستأجر من سيده الأرض التى كان يمتلكها [1].

وقد حاولت الحكومة جاهدة إيقاف هذا التيار طوال القرن الرابع [2]، ولكن دون جدوى. فإن الكثيرين من المزارعين رأوا فى نظام الحماية المنقذ الوحيد لهم من ظروف لم يقووا على تحملها، وفى الوقت نفسه كان كبار الملاك سعداء بزيادة رقعة أرضهم وزيادة أتباعهم. ومن أشهر جهود الحكومة فى محاولة ضبط نظام الحماية على الأقل هو القانون الذى صدر سنة ٤١٥ [3]، ويقضى بالاعتراف بأعمال الحماية التى تمت قبل سنة ٣٩٧ ويلغى جميع محاولات الحماية بعد

(١) Bell, in Legacy of Egypt. p. 335—6

(٢) Hardy, Large Estates. 22, ff

(٣) Code Theodosius, XI. 24, 6.

هذا التاريخ ، ولكن استثنيت الكنيسة من هذا الحد التاريخي . ويتضح من هذه القوانين أن قرى بأسرها قد أصبحت تحت حماية السادة من كبار الملاك .

وتأتي بعد ذلك فترة القرن الخامس التي لا نعرف عنها شيئاً ، ولكن ما أن يرفع الستار مرة ثانية عن حالة الأرض في القرن السادس ، ندرك أن التطور الذي حدث في القرن الرابع سار إلى مداه الطبيعي ، وإذا بالاقطاعات الكبيرة هي الطابع المميز للحياة الزراعيـة في مصر في القرن السادس . وكانت هـذه الإقطاعات على نحو يفوق كل ما عرف في مصر من قبل ، وإنمـا هو أشبه بالإقطاعات الكبرى التي عرفت في أوربا في العصور الوسطى . فصاحب الإقطاع الآن يمتلك قرى ومدنا بأسرها ، وهو صاحب الأمر والنهي في إقايمه دون أن يكون لموظفي الإدارة أي سلطة ، وكثير من هؤلاء الموظفين من بين أتباعه . وقد بلغ من سلطان بعض هؤلاء الإقطاعيين أنهم اتخذوا لأنفسهم جنوداً وشرطة وحرساً خاصة ، كما كانت لهم محاكم وسجون خاصة بهم ، ولهم حق دفع ضرائبهم لخزانة الولاية مباشرة أو في الأسكندرية (وهو المعروف بنظام autopragia). وليس عن طريق الوظفين جامعي الضرائب (١) .

ولكن يجب ألا نتصور أن أرض مصر كانت مقسمة إلى عدد من الإقطاعات الكبيرة فحسب ، بل وجدت أيضاً في القرن السادس قرى حرة يمتلك أرضها صغار الملاك ويدفعون ضرائبهم للدولة مباشرة ، كما تثبت ذلك مجموعـة من الوثائق البردية تنتمي إلى بعض مناطق مصر الوسطى (٢) . وإلى جانب هـذه القرى الحرة وجدت قرى أخرى وممتلكات كثيرة تتبع الكنائس المختلفة وخاصة كنيسة الأسكندرية . وقد سبقت الإشارة إلى قانون ثيودوسيوس سنة ٤١٥

(١) خير دراسة لهذا الموضوع هي كتاب Hardy, Large Estetes.
(٢) هذه المجموعة منشورة في : P. London, vol. IV.

الذى يؤكد أملاك الكنيسة حتى عام ٢٩٧ وما بعده . ويبدو أن أملاك الكنائس كانت كبيرة بفضل الأوقاف والمنح التى كانت تأتيها سواء من الحكام أو الأفراد . وليس أدل على ضخامة هذه الممتلكات مما ترويه المصادر عن ثروة كنيسة الأسكندرية والنشاط التجارى الكبير الذى كانت تقوم به [١] .

الصناعة والتجارة :

يروى أحد الكتاب المسيحيين قصة ثلاثة عميان من الأسكندرية مبيناً كيف فقد كل واحد منهم بصره . فأحدهم كان يعمل صانع زجاج ثم فقد بصره بسبب النار التى يستخدمها فى صنعته ؛ والثانى كان يعمل قبطان سفينة وأصابه مرض فى عينيه أثناء رحلة بعيدة ولم يتمكن من علاج عينيه .

أما ثالثهم فكان لصاً وأصيب فى بصره بينما كان يسرق قبراً [٢] . ولا تخلو هذه القصة من دلالة ، فهى تعكس لنا صورة من العمل الشائع فى الميناء الكبير . فقد استمرت الأسكندرية فى العصر البيزنطى أيضاً أكبر مركز للصناعة والتجارة فى مصر ، ولكن ما من شك أن سوء الأحوال العامة وكثرة الاضطرابات وتوالى الاضطهادات أثر فى قدرة البلاد الإنتاجية وفى نوع الإنتاج أيضاً . فصناعة الزجاج مثلا استمرت فى الأسكندرية ولكن ما عثر عليه فى الحفائر الحديثة فى منطقة الفيوم يدل على تأخر المستوى عما عرف عن الزجاج المصرى من قبل ، ويؤيد هذه النتيجة أيضاً قدرة ما عثر عليه من الزجاج المصرى فى الخارج ، إذ يبدو أن تأخر الصناعة المصرية من ناحية وقوة المنافسة الخارجية صرف الأسواق الأجنبية عنه [٣] .

(١) أنظر مثلا Sophronius, Miracles of SS. Cyrus and John, 8; Life of St. John. The Almgiver; of. Johnson-West, Byz. Eg. pp. 67. ff.

(٢) John Moschus: Pratum Sprituale.

(٣) Harden, Roman Glass from Karauis, pp. 34 ff.

وكذلك صناعة البردى التى اشتهرت بها مصر منذ القدم فقد استمرت ، ولكن تأخر مستواها عن ذى قبل ، ويمكن أن نذكر هنا أيضاً أنه ربما كان لرواج صناعة الكتب من رق الجلد (Codex) ، الذى كان يسجل عليه الأدب والفكر المسيحى الجديد[1] ، تأثير على عدم العناية بإنتاج الأنواع الراقية من البردى القديم . ومع ذلك استمرت صناعة البردى وتصديره إلى الخارج بكميات كبيرة كما كان الحال من قبل . ويثبت ذلك ماجاء فى حسابات كنيسة روما التى كان لها ممتلكات بالقرب من الأسكندرية وبين هذه الممتلكات مصانع تنتج أوراق البردى[2] . ومما يدل على أن البردى المصرى كان لا يزال سلعة عالية أنه ذكر فى نقش يحتوى على جــــزء من قائمة الأسعار التى أصدرها دقلديانوس ، ولكن لسوء الحظ أن الثمن غير موجود[3] .

أما الصناعة المصرية الثالثة التى كانت منتشرة أيضاً وهى نسج الكتان ، فقد وجدت أيضاً فى ذلك العصر ، ويذكر دقلديانوس فى قائمة أسعاره كتان الأسكندرية على أنه ضمن أفضل خمس أنواع من الكتان فى الإمبراطورية بأسرها[4] .

أما صناعة العطور والتوابل التى كانت تستورد من الأسواق الشرقية ثم تصنع فى مصر ويعاد تصديرها فقد استمر أيضاً ، نظراً لأن التجارة الشرقية لم

---

(١) F. G. Kenyon, Readers and Books in Ancient Greece and Rome, ch. IV.

(٢) Liber Pontificalios, ed. Duscheve, I. 34, p. 177.

(٣) The text in T. A. P. A., 71 (1940) p. 158

(٤) T. Frank: Rome and Italy of the Empire, pp. 305 ff., sects. 26—7

تتوقف وإن قابلت بعض الصعوبات أحياناً . ويذكر كشف حساب ممتلكات كنيسة روما فى مصر ، المشار إليه سابقاً ، أن مئات الأرطال من الزيوت والتوابل والعطور بأنواعها كانت تصنع فى مصانعهم بالقرب من الأسكندرية .

نستنتج من كل هذا أنه رغم سوء الأحوال العامة فى مصر فى العصر البيزنطى حين تقاس بالعصر الرومانى الأول ، فإن الصناعات الأساسية استمرت فى مصر وإن كانت قد تأخرت فى مستواها عن ذى قبل .

أما التجارة الخارجية فلها قصة أخرى فقد رأينا فى الفصل السابق مدى النشاط الذى حققته مصر فى مجال التجارة العالمية على أيدى تجار مدينة الأسكندرية، الذين تمكنوا من احتكار التجارة الشرقية لأنفسهم إلى حد بعيد، كما كان أسطولهم التجارى فى البحر الأبيض يعتبر الأول بين الولايات جميعاً . ورأينا مقدار الثروات الضخمة التى أفادها الأسكندريون من وراء هذه التجارة. ويكفى أن نذكر فيرموس ، الذى تمكن من دخله من تجارة البردى والصمغ العربى ، فى أسوأ فترات الإمبراطورية الرومانية فى القرن الثالث ، أن يكون جيشاً وأن يطمح إلى منصب الإمبراطور لنفسه .

لذلك ليس بمستغرب أن يتمسك تجار الأسكندرية بهذه التجارة بكل ما أوتوا من قوة ، ويبدو أنهم نجحوا فى المحافظة على مراكزهم على رأس التجارة العالمية فى العصر البيزنطى أيضاً . فقد استمر الاتصال مع الصومال وبلاد العرب والهند مستمراً دون انقطاع .

ويبدو أن النشاط الذى أبداه الأثيوبيون كوسطاء فى التجارة الشرقية لم يؤثر كثيراً على نشاط الأسكندرية فى هذا المجال ، وتثبت إحدى قوائم الضرائب من منتصف القرن الرابع والتى تحتوى على قائمة بالمكوس المستحقة

عند مدخل قناة الأسكندرية أن الملاحين الأسكندريين كانوا على اتصال مباشر بالهند (nautai Indias)[1] . وفى النصف الأول من القرن السادس تثبت مرة أخرى رحلات الراهب المصرى كوزماس ، الذى كان يعمل فى التجارة الشرقية من قبل ، وفى الفصل الأخير من كتابه بصفة خاصة ، أن التجارة المباشرة مع كل من الهند وسيلان لم تتوقف .

أما فى البحر الأبيض المتوسط فإن خطوط الملاحة كانت تمتد من الأسكندرية إلى جميع الموانى الرئيسية[2] .

ولكن يجب أن نذكر تغيراً جديداً حدث فى خطوط الملاحة ، وهو أن الخط بين الأسكندرية والقسطنطينية أصبح أهمها بدلا من خط روما . والسبب فى ذلك التغيير هو تحويل القمح المصرى من روما إلى القسطنطينية التى اتخذها قسطنطين عاصمته الجديدة فى ١١ مايو سنة ٣٣٠[3] . ومع ذلك فيبدو أن العلاقة التجارية بين مصر وروما لم تهمل كثيراً . فهذا هو القديس جيروم فى سنة ٤٠٢ يخاطب الرومان بقوله : « وها أنا مرة ثانية مع عودة الربيع أغنيكم من سلع الشرق وأرسل خزائن الأسكندرية إلى روما »[4] .

أما عن صادرات مصر فهى معروفة : القمح طبعاً ، ثم الكتان والبردى والروائح والعاج والعطور والتوابل . ويبدو أن الزجاج لم يعد يصدر الآن ؛ كما

---

(١) Sammelbuch. 7756 (259 A. D.)

(٢) أنظر بيان دقلديانوس عن الأسعار
New Fragments, T.A.P.A. (1940) 57 ff.
وقائمة الطرق الملاحية المتصلة بالأسكندرية فى
Johnson-West, op. cit. 140.
وأضف إليها عن القسطنطينية :
John Moschus, Pratum Sprituale 75—6

(٣) Jones, Constantine, 232—8

(٤) St. Jerome, Epist. 91. 1.

أن تجارة الورق من البردى تأثرت بالإقبال على استخدام رقوق الجلد ، ومع ذلك فقد استمر تصدير الورق .

أما من الواردات الأساسية فهى أن المعادن (وخاصة الفضة أو الصفيح) والخمور والحرير والعطور والتوابل من أجل صناعتها محلياً وإعادة تصديرها . وفى دراسة حديثة لهذه الواردات اتضح أنها كانت تأتى إلى مصر من شتى بقاع العالم من الصين والهند شرقاً إلى أسبانيا وبريطانيا غرباً[1] . وما من شك أن مالم يكن يصدر من هذه الواردات كان يباع فى الأسكندرية للاستخدام الخاص بواسطة الطبقة البورجوازية المزدهرة فى هذه المدينة ، وكذلك كبار الأسر الغنية فى الريف .

أما الطبقة البورجوازية فى الريف فقد انكمشت كثيراً فى هذا العصر ، وفقدت قدرتها الشرائية القديمة ؛ أما سائر السكان فكان أكبر همهم هو المحافظة على الحياة أو الفرار إلى الدير .

أما عن موقف الدولة من هذه التجارة ، فيبدو أنها كانت حرة فى أيدى الأفراد ؛ باستثناء الجزية التى كان على مصر إرسالها إلى روما أولا والقسطنطينية بعد ذلك . ويوضح وجود هذه التجارة الحرة البيان الذى أصدره دقلديانوس لتحديد أسعار السلع ، فهو فى هذا البيان يتحدث عن جشع التجار وطمعهم فى أكثر من موضع ، ولكن يهمنا بصفة خاصة قوله : « إن هذا البيان العالى سيصبح بمثابة ضابط بين المشترين والتجار الذين يزورون الموانى والولايات الأجنبية عادة ، فحين يعلمون أنه عندما ترتفع الأسعار لا يستطيعون أن يتعدوا

---

(١) Johnson-West, Op. cit., 137—151; also see West, Phases of Commercial life is Roman Egypt, J. R. S. (1917) 45 ff.

الأسعار المقررة للسلع . فيجب حسبان المسافات ونفقات الشحن وغير ذلك عند البيع ، حتى تتضح عدالة بياننا حين يمنع كل من تحدثه نفسه بتصدير السلع إلى أماكن أخرى ليبيع بأسعار أكثر ارتفاعاً (١) . »

نقطة أخرى لها طرافتها فى مجال النشاط المالى مارسها كبار المولين وهى القروض المالية فى الخارج ، ففى وثيقة بردية من القرن السادس نجد مصريين يتعاقدون على اقتراض مبلغ من المال فى القسطنطينية ، ومقدار الدين هو عشرون سوليدوس (Solidi) من الذهب ، بفائدة ٨ ٪ . ورغم أن العقد تم فى القسطنطينية إلا أنه ينص على أن يرد الدين فى الأسكندرية .

وأطراف هذا العقد هم المدينان وهما شخصان من قرية أفروديتو (كوم أشقاو فى مصر الوسطى) والدائن ويسمى فلافيوس أناستاسيوس Fl. Anastasius الذى يصف نفسه بأنه ممول ورئيساً للبنك المقدس (أى الإمبراطورى فى القسطنطينية) . وتفيدنا البردية فوق ذلك أن لهذا المول الكبير « مكتب » (Apotheké) فى الأسكندرية حيث يستطيع المدينان أن يدفعا المبلغ المقترض بالإضافة إلى الفائدة المقررة (٢) .

مثل هذه الوثيقة توضح أيضاً العلاقات المالية الوثيقة التى ربطت الأسكندرية بالقسطنطينية . فمكتب أناستاسيوس موجود بالأسكندرية ليقوم بوظيفتين : الأولى عقد الصفقات التجارية والثانية القيام بأعمال البنوك الدولية . فالمبلغ الذى سيدفعه المدينان المصريان فى الأسكندرية لم يكن يرسل إلى القسطنطينية ، وإنما كان يبقى فى الأسكندرية ليستغل فى عقد الصفقات التجارية . وتظهر لنا هذه

---

(١) Preamble to the Edict, ed. by Elsa Rose Graser, in T. Frank, Rome and Italy of the Empire; also T.A.P.A. (1940) 57 ff.

(١) P. Cairo Maspero II. 67126 (Jan. 7th 541 A. D)

الوثيقة أيضاً كيف أن كبار المولين فى القسطنطينية قد حلوا محل ممولى روما فى عصرها الإمبراطورى الأول ، وكان لهم مكاتبهم ووكلاءهم فى الأسكندرية كما كان لسابقيهم من الرومان . كان بعض هؤلاء الأثرياء من أهل القسطنطينية من أصحاب الثقافات اليونانية الراقية ، وكثيراً ما تمسكوا بالعقائد الوثنية القديمة . وفى ظروف اضطهاد الوثنيين القاسية ، وحين تضيق بهم الحياة فى القسطنطينية ، كان فى استطاعتهم أن يفروا إلى مصر وأن يختفوا فيها مستعينين بأموالهم هناك . ويمكننا أن نورد مثالا على ذلك وهو أجابيوس الهلينى ، وكان من كبار الموالين فى القسطنطينية . ويصفه الكاتب المسيحى سوفرونيوس بقوله « ولم يقصر نشاطه على الأعمال المالية فحسب ، بل كان متحدثاً مشهوداً له باللغة اليونانية ، شديد الولع باقتناء التماثيل ، وكان يخدم المخلوق ضد الخالق » وحدث أن ألقى القبض عليه فى القسطنطينية ، ولكنه تمكن عن طريق الرشوة أن يفر من الحبس وأن يذهب إلى الأسكندرية ، حيث مرض ومات . واختياره الأسكندرية دون سائر أرجاء الإمبراطورية تبعث على الاعتقاد بأنه كانت له أعمال وأموال هناك .

مثل هذه الأخبار من ناحية أخرى تبين مدى السمعة العالية التى كانت للأسكندرية كسوق عالية للتجارة والاستثمار؛ وأن الحياة المالية فى المدينة كانت من التعقيد والثراء ما يفسر قدرتها على ممارسة تجارتها العالمية مدى قرون طويلة.

ويمكننا أن نضيف هنا كلمة أخيرة عن نشاط الكنيسة فى مجال التجارة الخارجية . فكما كان للكنيسة أملاك فى الأرض شملت كثيراً من القرى ، كذلك عملت الكنيسة على استغلال أموالها فى التجارة الخارجية التى كانت مصدر ربح وفير ، ويتضح لنا هذا النشاط بصفة خاصة فى سيرة القديس يوحنا الذى تولى أمر الكنيسة فى مطلع القرن السابع ، فسيرة هذا الأسقف الذكى

الرحيم تكشف عن مدى ثراء الكنيسة إلى درجة أنها امتلكت أسطولاً تجارياً في البحر الأبيض المتوسط . وقد استخدم هذا الأسطول في استيراد القمح من صقلية في أثناء مجاعة نزلت بالبلاد[1] ؛ وفي مناسبة أخرى أرسل إمدادات كثيرة إلى بيت المقدس حين هاجمها الفرس[2] ؛ وفي مناسبة ثالثة نسمع أن ثلاث عشرة سفينة من سفن الكنيسة ، كل منها محمل بعشرة آلاف أردب من القمح أغرقت في عاصفة في بحر الأدرياتيك . وبالإضافة إلى القمح حملت هذه السفن ملابس وفضة وأشياء أخرى قيمة[3] .

وأخيراً نسمع أن هذا الأسقف أعار سفينة من سفن الكنيسة لتاجر تحطمت سفينته ، وأن هذا التاجر أبحر بعشرين ألف أردب من القمح إلى بريطانيا ، واستبدل قمحه بصفيح — إذ توجد في بريطانيا مناجم هذا المعدن — ولكن حدثت بعد ذلك معجزة وهي أن الصفيح تحول إلى فضة أثناء رحلة العودة[4] .

---

(١) John Almsgriver, 13

(٢) Ibid., 9 and Suppl. 20.

(٣) Ibid., Suppl. 28.

(٤) Ibid., 10

هـ - نشأة الرهبنة المسيحية فى مصر

تعتبر نشأة الرهبنة المسيحية فى مصر البيزنطية من أهم مظاهر الحياة فى ذلك العصر، وخير تعبير عن الروح التى سادته ؛ كما تعتبر من ناحيـة أخرى أهم ما ساهمت به مصر فى بناء حضارة العصور الوسطى المسيحية بوجه عام. ويجب أن نذكر فى هذا المجال أن الرهبنة ليست قاصرة على المسيحية أو أن المصريين أسبق الناس إلى ممارستها ؛ بل لقد عرفها الإنسان فى تجربته الدينية فى أمم مختلفة قديمة. ففى الهند ابتدأها بوذا منذ القرن السادس ق. م. ، ووضع لها أسساً وقواعد[1] . ومن البوذية انتشرت فى الأديان الهندية الـكبرى ثم انتقلت إلى بلاد أخرى مجاورة مثل التبت والصين وغيرها . وفى منطقة الشرق الأوسط عرفتها جماعات من اليهود فى فلسطين قبيل ظهور المسيحية وانتشارها مثل جماعات الإسينيين (Essenes) والناصريين(Nazarites) .ومع ذلك فلم تعرف المسيحية نظام الرهبنة إلا فى مصر أولا ، ومن مصر انتشرت إلى جميع الأرجاء التى انتشرت إليها المسيحية ، ومن ثم دخولها أوربا منذ بداية القرون الوسطى . ولهذا كانت كل دراسة للرهبنة المسيحية ونشأتها تتجه إلى مصر فقط للبحث عن أصولها وطبيعتها .

أما عن الرهبنة أو التنسك الدينى فى مصر قبل المسيحية فيمكن تتبع أصولها فى أكثر من مكان . ومن أمثلة ذلك ما كشفت عنه مجموعة كبيرة من أوراق

---

(١) أنظر عرضا جيداً لحركة الرهبنة البوذية فى :
Heinrich Hackmann, Buddhism, in Religioms of the World, ed. by Carl Clemen, pp. 306 ff.
(translated by Rev. A. K. Dallas, London, 1931)

البردى التى ترجع إلى العصر البطلمى وتثبت وجود حركة تنسكية (Katoché) حول معبد السرابيوم فى ممفيس. ومن دراسة هذه الوثائق نتبين أن أفراداً من شتى الطبقات كانوا بناء على انفعال دينى ينذرون للإله نسكا وعبادة، متوحدين فى قلالى، منقطعين عن حياة المجتمع فى شتى مظاهره، ونعلم أيضاً أن من هؤلاء النساك (Katochoi) من بقى طوال حياته متنسكا، ومنهم من كان تنسكه لفترة معينة يعود بعدها إلى الحياة الدنيا [١]. وقد وجدت حركة تنسكية أخرى بين طبقة الكهنة فى هليوبوليس فى الفترة التى سبقت المسيحية مباشرة. فكان هؤلاء الكهنة الرهبان ينقطعون عن جميع أعمال المعبد المختلفة من أجل التعبد والتأمل، وكان سبيلهم فى ذلك هى سبيل النساك المألوف من التوحد والتقشف والمبالغة فى العبادة والصلاة [٢]. ولكن يجب أن نلاحظ أن حركة التنسك فى هليوبوليس كانت تختلف عن نساك سرابيس فى ممفيس وعن الرهبنة المسيحية، فى أن نساك الإله آتون كانوا من بين الكهنة فقط، أما نساك سرابيس فكانوا من عامة الناس، ومن هنا كانت أهمية هذه الفئة الأخيرة. وأخيراً يمكننا أن نضيف إلى هذه الحركات التنسكية ما ظهر بين اليهود فى الأسكندرية، وهى التى عرفت بحركة الثيرابيين أو الشافين (therapeutai) فى القرن الأول الميلادى وقد أفرد فيلون للفيلسوف اليهودى الأسكندرى لوصف هذه الحركة كتابا

---

(١) قام فلكن بنشر ودراسة هذه الوثائق البردية وتعتبر مقدمته لها أحسن دراسة لهذا الموضوع حتى الآن : U. Wilcken, Urkunden der Ptolemäer — Zeit : I, Papyri aus Unterägypten, Berlin, Leipzig (1922). وهناك عرض لهذا الموضوع فى كتاب H. I. Bell, Cults and Creeds, pp. 21—22.

(٢) Evelyn White, The Monasteries of Wadi n'Natrûn, II. p. 6.

خاصاً [1] ، وقراءة ما كتبه فيلون تبين أن هؤلاء الشافيين كانوا يعيشون فى شكل مستعمرة تنسكية بالقرب من الأسكندرية ، وأن نظام حياتهم شديد الشبه بحركات الرهبنة المسيحية الأولى ، فكانوا رجالا ونساءاً يهجرون المجتمع ومافيه من روابط اجتماعية ، ويمسكون عن شرب الخمر وأكل اللحم، وكانوا ينقطعون للعبادة والتأمل والصلاة . وكانوا يعيشون فى مساكن متفرقة ولهم دار عامة للاجتماع والصلاة العامة [2] .

***

يتضح من هذه المقدمة أن التنسك والرهبنة الدينية كانت لها أصول فى البيئة المصرية قبل المسيحية . ومن الغريب أن الرهبنة المسيحية لم تأخذ من هذه المحاولات والتجارب القديمة مباشرة ، وإنما أخذت بدايتها من ظاهرة مصرية قديمة أخرى بعيدة كل البعد عن التقاليد الدينية . ذلك أن المصرى القديم كان قد ألف فى ظروف الضيق أن يفر من المدينة أو القرية إلى الصحراء أو إلى أحراج المستنقعات ، كان يفعل ذلك حين يعجز عن دفع ضرائب الدولة المستحقة عليه ، فكان يفر من وجه الحكومة خشية العقاب الشديد الذى يصيبه فى هذه الظروف ، وكان يطلق على مثل هذا الشخص لفظ الهارب أو المختفى anachorétes فى العصرين اليونانى والرومانى . وهذا هو السبيل الذى سلكه المسيحيون الأولون ، فحين تعرضوا لحملات الاضطهاد العنيفة فى تاريخهم الأول ، لم يجد كثيرون منهم بدا من الفرار من وجه الدولة والاختفاء فى الصحراء والجبال حفاظاً على دينهم وعقيدتهم ، وقد أطلق على مثل هؤلاء الأفراد اللفظ القديم ذاته (anachorétes) ولدينا نص قديم

(١) De Vita Contemplativa

(٢) بالرغم من احتمال مبالغة فيلون فى وصفه لحركة الشافين ، ليس هناك ما يدعو إلى الشك فى حقيقة وجود حركة الشافين بجوار الأسكندرية .
(O'Leary, Legacy of Egypt, 318 كما يشك)
وقد سبقت الإشارة إلى وجود حركات مشابهة فى فلسطين أيضا .

مشهور يبين انتشار هذه الظاهرة بين المسيحيين الأولين ، وهو رسالة ديونيسيوس أسقف الأسكندرية فى وصف اضطهاد ديقيوس عام ٢٥٠ ، إذ يقول : « وهل هناك حاجة إلى ذكر جماعات أولئك الذين ضربوا فى الصحارى والجبال وهلكوا من الجوع والعطش والصقيع والأمراض أو بفعل اللصوص والوحوش الضارية [1] » ومنهم من عاد فروى ما حدث وما تحملوا من أهوال ، ومنهم من لم يعد ، لأنه هلك أو لأنه آثر حياة العزلة فى الصحراء . على أن الشائع أن أكثرهم كان يعود إلى موطنه بمجرد شعوره بالاطمئنان إلى انتهاء خطر الاضطهاد ، لأن الاضطهادات لم تكن مستمرة . ولكن يحتفظ تاريخ الكنيسة الأول بذكرى شخصية مصرية قديمة ، يجعله نقطة البداية فى نشأة الرهبنة المسيحية فى مصر ، وهو الأنبا بولا أو بولس من طيبة فى أعالى الصعيد الذى خرج أثناء اضطهاد ديقيوس إلى الصحراء الشرقية ولكنه لم يعد . فنشأت حوله أساطير تروى أنه قرر البقاء فى الجبال من أجل العبادة وأنه عاش حتى العام الثالث عشر بعد المائة ، وأنه فى هذه الحياة الطويلة قابل كثيراً من الأهوال وحدثت له معجزات [2] .

قصة الأنبا بولا قصة أسطورية ، هذا أمر لاشك فيه ، ومع ذلك فهى ذات أهمية تاريخية ، لدلالتها على أن بعض المسيحيين الأولين وجدوا الحياة فى قراهم ومواطنهم الأصلية غير محتملة ، فسلكوا سبيل الاختفاء والاعتزال فى الصحارى ، حيث كانت أهوال الطبيعة أخف عليهم من أهوال العذاب والاضطهاد على أيدى الإدارة وممثليها .

---

(١) أنظر نص الرسالة فى يوسيبيوس Eusebuis, Hist. Eccl. VI. 42. 2.

(١) أنظر The Paradise of Palladius, II. 18.

هكذا بدأت حركة الاعتزال والتنسك المسيحى الأولى فى مصر الرومانية [1]، وكانت فى بدايتها على هذا النحو حركة فردية ، ولكنها لم تبق على هذا النحو طويلا وسرعان ما انتقلت إلى المرحلة الثانية من حياة الرهبنة أو التنسك الجماعية. وهى فى هذه المرحلة تحمل كثيراً من أوجه الشبه مع النظم التنسكية التى كانت موجودة فى الأديان القديمة السابقة على المسيحية . وصاحب الفضل فى إدخال نظام الحياة الجماعية على الرهبنة المسيحية هو القديس أنطونيوس من مدينة كوما (هرقليوبوليس) فى مصر الوسطى . وهو شخصية تاريخية لعب دوراً فى أحداث القرن الرابع، مناصراً أثناسيوس ضد أريوس ، وسيرة حياته كما كتبها أثناسيوس نفسه (Vita Antonii) وأعاد صياغتها القديس چيروم [2] ، سيرة واضحة المعالم بعيدة عن المبالغات والطابع الأسطورى مما تتصف به سيرة الأنبا بولا السالفة الذكر . وسيرة أنطونيوس تدلنا على أنه مصرى صميم ، أمى لا يتكلم غير اللغة القبطية ، ولد لأبوين موسرين فى منتصف القرن الثالث . ولما ناهز أنطونيوس العشرين كان قد فقد أبويه وورث عنهما ثروة تقدر بثلاثمائة أرورال (مايعادل ١٠٠ فدانا تقريباً) .

ولكن نظراً لنشأته المسيحية الأولى ، إذ كان أبواه مسيحيين ، ولميله الشخصى إلى الحياة الدينية ، إذ كان كثير التردد على الكنيسة ، بدأ يجنح إلى حياة العمل والعبادة فى قريته .

---

(١) عن حركة الرهبنة المسيحية فى مصر أنظر مقال د . عزيز سوريال عطية فى « رسالة مار مينا عن الرهبنة القبطية ص » ١٤٧ — ١٨٢ .

O'Leary, in Legacy of Egypt, pp. 317—332;

E. R. Hardy; Christian Egypt, pp. 35—9, 69—76, et saepe.

(٢) أنظر أيضا O. F. A. Meinardus, Morks and Monasteries of the Egyptian Deserts, 11 ff.

وبعد ذلك نتيجة لانفعال دينى قرر بيع بعض ما ورث من الأرض ووزع ثمنهـا بين الفقراء ، وأبقى من الأرض ما كان كافياً لحياة أخته الصغرى . ثم استبدت به الرغبة بعد ذلك فى أن يهجر حياة القرية نهائياً ، فعهد بأخته إلى جماعة من العذارى المسيحيات اللائى كن يتعبدن فى حجر الكنيسة ، وباع ما بقى من الأرض ، وقرر هو اتخاذ حياة النسك لنفسه . فعبر نهر النيل إلى الصحراء والجبال الشرقية ، وأقام فى بقايا قلعة مهجورة فى موقع يقال له پسپير Pispir نحواً من عشرين عاماً (بين عامى ٢٨٥ و ٣٠٥ تقريباً) . وكثيراً ما تردد عليه أصدقاؤه ومحبوه ، جالبين له القليل من الزاد الذى كان يحتاج إليه ، فكان يتحدث إليهم عن تجاربه فى الاعتزال والتنسك ، وعن مواقعه مع شياطين الصحراء ، وأساليب الإغراء والامتحان التى تعرض لها وقاومها .

وسرعان ما ذاع صيته ، وأقبل عليه المسيحيون من كل صوب ممن أخذوا أنفسهم بحياة التنسك ، طالبين التتلمذ على يديه والتعلم من تجربته . وهكذا نشأت حركة رهبانية جماعية حول القديس أنطونيوس فى مصر الوسطى ولكنها لم تصل بعد إلى نظام الرهبنة الجماعية الكاملة ، لأن النساك عاشوا متجاورين فقط ، ولكن كل واحد منهم أقام منفرداً فى قلاية أو كهف ، والرابطة الوحيدة بينهم هى التفافهم حول زعيمهم أنطونيوس ، الذى كان له دور الأستاذ والموجه الروحى ، ولم تكن له صفة الرئيس بحال من الأحوال .

ولكن بعد عام ٣٠٥ عاوده الحنين إلى حياة الاعتزال والانقطاع الدينى فهجر « پسپير » إلى كهف فى الجبال الشرقية المشرفة على البحر الأحمر ؛ وبقى هناك حتى آخر حياته ، غير أنه كان يتردد على أتباعه عند پسپير يزورهم ويرشدهم بنصائحه وتوجيهاته .

ويبدو أن القديس أنطونيوس لم يكن من أولئك النساك الذين انقطعوا

عن الدنيا فنسوها ونساهم الناس ؛ إذ يبدو أن علاقته بالحياة فى مصر استمرت قوية ، وكان على علم تام بحقيقة القضية المسيحية فى تلك الفترة . كما أن المسيحيين فى مصر ، عدا من تنسك منهم ، كانوا شديدى التعلق والإعجاب به ، وكانوا ينظرون إليه نظرة فيها كثير من الإكبار والإجلال . وليس أدل على أهمية القديس أنطونيوس من أنه ترك عزلته وعاد إلى مصر فى موقفين عصيبين تعرضت فيهما المسيحية المصرية لخطر شديد . الموقف الأول حين سلط الإمبراطور مكسيمينوس موجة اضطهاد قاسية عام ٣١١ ، فنزل أنطونيوس إلى الوادى يزور المسيحيين داخل السجون وخارجها يثبت من عزائمهم ويقوى من إيمانهم ، حتى وصل الأسكندرية ذاتها معرضاً نفسه لشتى الأخطار والموقف الثانى فى سنة ٣٣٨ زمن الإمبراطور قسطنطين ، حين تعرضت الكنيسة المصرية للانقسام بسبب الخلاف العقائدى الذى نشأ بين أثناسيوس وأريوس . وكان أثناسيوس بطريرك الكنيسة فى الأسكندرية ، فذهب إليه أنطونيوس لمساندته وتوحيد كلمة المسيحيين حوله ضد أريوس .

ولم تكن بسبير هى المنطقة الوحيدة التى نشأت فيها حركة رهبانية جماعية فى مصر ، فقد عاصرت الرهبنة الأنطونية ، حركات رهبانية أخرى فى أماكن متعددة من مصر ، فى منطقة طيبة فى أعلى الصعيد ، وفى منطقة مدينة البهنسا (Oxyrhynchos) وإسنا (Latopolis) والشيخ عبادة (Antinoe) ، وليكوس (Lycus) بالقرب من أسيوط ، ومنطقة وادى النطرون فى شرق الدلتا . ووصول الرهبنة إلى شمال مصر عند وادى النطرون فى وقت مبكر من القرن الرابع له أهميته لمتاخمة هذه المنطقة لمدينة الأسكندرية . إذ كان معنى ذلك أن الرهبنة المسيحية التى نشأت مصرية تماماً ، قد غزت البيئات ذات الصبغة الإغريقية فى مصر منذ

وقت مبكر . فقد وجد فى أديرة وادى النطرون رهبان من المصريين والإغريق على السواء (إلى جانب بعض الجنسيات الأخرى) . ويقول بلاديوس الذى زار هـذه المنطقة فى نهاية القرن الرابع أنه وجد بهـا أكثر من خمسة آلاف راهب[1] .

أما عن نظام الرهبنة فى وادى النطرون فهو نظام الرهبنة الأنطونية الذى ساد فى أديرة مصر الوسطى والدلتا أى شمال أسيوط (Lycopolis) وما من شك أن خير مكان لدراسة هذا النظام هو منطقة وادى النطرون ، وذلك للتفاصيل الكثيرة التى يوردها عدد من المصادر فى وصف أديرتهـا (كما فى التاريخ اللوسيانى ، ف ٧ ؛ تاريخ المتوحدين ، ٢١ — ٢٢) .

ومن هذا الوصف نعرف أن الرهبان فى وادى النطرون كانوا من طائفتين : « الأولى » تتكون من خمسة آلاف راهب يعيشون على جبل نستريا ذاته ، كل له نظامه الخاص (politeia) حسب قدرته واستعداده . وكان يسمح لهم أن يقيموا فرادى أو مثنى أو أكثر » وكانوا يجتمعون جميعاً للصلاة يومى السبت والأحد ، أما فى أيام الأسبوع الأخرى فكان كل يصلى فى صومعته أو ديره ، بحيث أنه إذا وقف الإنسان فى المساء فى تلك المنطقة سمع المزامير والتسابيح صاعدة من الصوامع حوله ، فيظن أنه فى الفردوس .

أما الفئة الثانية من الرهبان فى تلك المنطقة فهم النساك المعتزلون (Anachoretae) الذين يعيشون متوحدون فى جوف الصحراء كل فى

---

(١) يذكر بلاديوس فى تاريخه وجود خمسة آلاف راهب فى نتريا وألفين آخرين بالقرب من الاسكندرية (فى الفصل السابع) .
ويتفق سوسومن معه فى ذكر الألفى راهب قرب الاسكندرية
Sosomen, Hist. Eccl., VI. 29.

كهفه أو قلته ، بعيداً عن زميله . وهؤلاء يبلغون الستمائة عدداً . ولا يجتمعون أو يتصلون برهبان الأديرة إلا يومى السبت والأحد حين يشهدون الصلاة الجامعة .

نلحظ من هذا الوصف أن هذه الرهبنة الأنطونية فى مظهرها الديرى كما وجدت فى وادى النطرون كانت لا تزال تتميز بالطابع الفردى واستقلال كل راهب فى حياته الخاصة ، رغم حياتهم سوياً فى أديرة أو صوامع . إذ لم يكن هناك نظام موحد للحياة يخضع له جميع الرهبان . حقيقة مارس الشيوخ نفوذاً على الشباب ، ولكنه نفوذ أدبى وشخصى محض ، ليس فيه أى إلزام .

ويجب أن نضيف هنا أن حركة الرهبنة فى منطقة وادى النطرون تقترن باسم اثنين من أئمة الحركة المسيحية فى ذلك الوقت هما آمون الذى نزح إلى هذه الصحراء فى عام ٣٢٥ ، والقديس مكاريوس الأسكندرى وإليه ينسب الدير الموجود الآن فى وادى النطرون باسم دير أبو مقار ولا يزال إلى جواره حتى اليوم أديرة ثلاثة أخرى هى السريان والبرموس وبشوى[1] ، ولازالت حياة الرهبان فيها تحتفظ بكثير من طابعها الفردى الأول .

ولم تقتصر الرهبنة الأنطونية على الرجال فحسب بل شملت النساء أيضاً اللائى لم تكن حياة الاعتزال لزاماً عليهن ، بل كان فى استطاعتهن أن يقمن بحياة الطهر والتنسك فى بيوتهن أو فى جماعات صغيرة من المسيحيات العذارى . ومن أمثلة التنسك بين النساء مايكفى حياتها مع أمها عن طريق الغزل والنسج، وقد اكتسبت شهرة فى عصرها بفضل الدور الذى قامت به لمنع إحدى المعارك

---

(١) أنظر O. Meinardus, Morks and Monasteries, pp. 117 ff.

المألوفة فى مصر قديماً بين قريتين بسبب تقسيم مياه الرى[1] . ويبدو أن إقبال الرجال على الرهبنة لأسباب مختلفة ، سواء بدافع العاطفة الدينية العنيفة أو بدافع الهروب من تحمل أعباء الوظائف العامة أو العمل فى الجيش الرومانى ، قد ترك كثيراً من النساء بغير أزواج : وهو وضع قد يؤدى إلى حالة أخلاقية خطيرة . ولذلك لجأ المسئولون عن الكنيسة إلى تشجيع النساء على حياة التبتل العذرى حتى داخل بيوتهن ، وراحوا يؤلفون الكتب التى ترشد العذارى إلى كيفية ممارسة هذه الحياة ومن أهم هذه الكتب التى وصلتنا « رسالة التبتل العذرى » التى كتبت فى القرن الرابع والمنسوبة إلى زعيم كنيسة مصر الأكبر القديس أثناسيوس . ويتضمن الكتاب نصائح مبسطة على العذراء مراعاتها فى حياتها الخاصة ، مثل المواظبة على قراءة الكتاب المقدس فى المنزل ، وأداء الصلاة فى مواعيدها ، وأن ترتدى ملابس متميزة حين تذهب إلى الكنيسة أو للعمل ، وأنه يجب عليها أن تتناول عشاء بسيطاً بعد الساعة التاسعة ، ومن المرغوب فيه أن تمسك عن شرب الخمر ، أما إذا كانت تقيم مع عذارى أخريات ممن لا يراعين هذه القاعدة فخير لها أن تتناول القليل من الخمر حتى تتجنب الظهور بمظهر الكبرياء ، ولكن إذا كان زميلاتها من المتقدمات فى السن ممن يسرفن فى الحديث ، فيجب أن لا تنقاد هى فى هذه العادة وأن تكون هى قدوة حسنة لهن . ثم هناك نصائح عامة أخرى مثل ضرورة مساعدة الفقراء والمحتاجين ، وإذا قابلها « رجل فاضل » (أى راهب) فعليها أن تحسن لقاءه والاستماع إلى نصائحه[2] .

فى الوقت ذاته الذى ذاع فيه مذهب أنطونيوس « أبو الرهبان » فى مصر

---

(١) Palladuis, Hist. Lausiaca, 2, 22, 31; of Hardy, Christian Egypt, p. 69.

(٢) أنظر Hardy, Christian Egypt, pp. 69—70.

الوسطى والسفلى إلى الأسكندرية ، كان هناك علم آخر من أعلام المسيحية المصرية يعمل فى جد وجهد منقطع النظير لتأسيس مذهب رهبانى آخر فى صعيد مصر الأعلى ، ذلك هو القديس باخوميوس(١) الذى ولد فى الجزء الأخير من القرن الثالث فى إحدى بلدان إقليم طيبة القديم يقال لها كينوبوسكيون (Kynoboskion) ، ويقال إن مكانها الآن بلدة قصر الصياد فى مديرية قنا .

وكل ما نعرفه عن تاريخه الأول هو أنه خدم فى الجيش الرومانى تحت قسطنطين وليكينيوس ، وأنه فى هذه الفترة تعرف على جماعة مسيحية لأول مرة فى مدينة لاتوبوليس (إسنا الحالية) ؛ وأنه بمجرد تركه الخدمة العسكرية اعتنق المسيحية واتخذ سبيل الرهبنة أيضاً ؛ وكان أستاذه فى ذلك راهب يقال له بلامون (Palaemon) . ولكن باخوميوس من أولئك الرجال الذين يولدون ليكونوا قادة أو زعماء ، ولهذا سرعان ما ظهرت معالم شخصيته القوية ، فجمع حوله جماعة من النساك وأقنعهم بضرورة تأسيس نظام جديد للرهبنة الجماعية ، يحقق فكرة الحياة الجماعية بصورة أقوى وعلى نحو من التنظيم أدق مما هو حادث فى الرهبنة الأنطونية وبذلك أنشأ ديره الأول فى سنة ٣٢٣ عند تبنيس (Tabennisi) بالقرب من دندرة الحالية ، وبذلك بدأ نظام رهبانى جديد يعرف بالرهبنة الجماعية الكاملة .

وسرعان ما انتشر النظام الباخومى الجديد حتى ليقال إنه عند وفاة باخوميوس حوالى سنة ٣٤٥ كان قد شمل نظامه أديرة كثيرة فى أماكن متفرقة فى الصعيد الأعلى . وكان الطابع المميز لهذه الحركة الديرية هو خضوعها لنظام عام موحد يعكس النظم الإدارية والعسكرية إلى حد بعيد ، فهناك قانون عام

(١) يوجد عرض واف لحركة باخوميوس فى مقالة الدكتور عزيز سوريال فى مجموعة « الرهبنة القبطية » ص ١٦١ — ١٧٧

يخضع له الجميع ، وهناك رؤساء يجب أن يطيعهم عامة الرهبان . وكان الرهبان فى كل دير ينقسمون إلى بيوت منفصلة ، يضم كل بيت بين ثلاثين وأربعين راهباً ، عليهم رئيس ومعاون وغيرهما من الموظفين .

ولم تكن حياة الدير الباخومى قاصرة على العبادة والتنسك ، وإنما أشبه بمستعمرة اقتصادية يكاد يكتفى أهلها اكتفاءاً ذاتياً ، فكانت البيوت منظمة على أساس الصناعات والحرف، فهناك بيت للخبازين ، وبيت للنجارين ، وبيت للحدادين ، وبيت للزراع ، وبيت لناسخى الكتب وهكذا . .

وبالرغم من أن الأكثرية الغالبة من الرهبان الباخوميين كانوا من الأقباط المصريين ، إلا أنه سمح للأجناس الأخرى أن تنضم إلى هذه الأديرة ، ولكن أفرد لكل عنصر بيت خاص للإغريق والسريان واللاتين وغيرهم ممن انتظموا فى سلك الرهبنة الباخومية . ولعل هذا هو الأصل فى منشأ النظام الذى ورثته الجامعات فى العصور الوسطى ، حيث انتشر نظام البيوت والأروقة للأجناس المختلفة . فكان فى جامعة باريس خمس أمم تشمل الفرنسيين والإنجليز والنورمنديين والبكرديين والنرمان والبريطان ، ثم هناك نظام الأروقة المشهور الذى ساد فى الجامعة الأزهرية إلى عهد قريب مثل أروقة الصعايدة والبحاروة والمغاربة والشراقوة والأحباش وغيرهم (١) .

على أن من أهم مظاهر نظام الديرية الباخومية هو الجانب التعليمى الذى قضى بوجوب تعليم الراهب القراءة والكتابة ومعرفة الكتاب المقدس عن ظهر قلب كشرط أساسى (٢) .

أما فى جانب التعبد والتنسك ، فكان النظام الباخومى أقل صرامة ، وظهر

---

(١) أنظر مقالة الدكتور عزيز سوريال السالفة الذكر ص ١٧٢ .
(٢) المرجع ذاته ص ١٧٠ .

فيه العنصر الفردى الذى تميزت به الرهبنة المصرية عموماً . فرغم أنه كانت هناك وجبات عامة للطعام ، إلا أنه ترك للأفراد حرية الأكل والصيام كيفما يشاءون ورغم أنه كانت هناك صلاة عامة للجميع ، فكانت معظم الواجبات الدينية تتم عن طريق البيوت ، وللأفراد أن يصلوا فى قلوبهم كيفما شاءوا(١) .

ويجب أن نذكر أيضاً أن الديرية الباخومية لم تقتصر على الرهبان بل شملت الراهبات فى أديرة خاصة بهن ، ومن المعروف أن أنشىء ديرين للراهبات إلى جانب تسعة أديرة للرهبان فى أعالى الصعيد أيضاً ؛ وأن جميع هذه الأديرة للرهبان والراهبات كانت تتبع رياسة باخوم الشخصية المباشرة وأنه كان يقوم بجولات تفتيشية عليها ليتأكد من حسن سير العمل فيها جميعاً(٢) ، وقد استمر الأمر كذلك من بعده .

هذه هى معالم الديرية الباخومية ، وهى وإن كانت من ناحية النظام الإدارى والاقتصادى تمثل أرق أنواع الديرية القبطية ، إلا أنه من الناحية الروحية البحتة بقى للرهبان الأنطونيين ورهبان وادى النطرون الصدارة فى هذا المجال ، ويكفى أن نذكر هنا قصة زيارة أبو مقار من منطقة وادى النطرون متخفياً لدير تابنيس (Tabennisi) حيث أظهر من ضروب القدرة على الصيام والعبادة والتقشف ما أذهل الرهبان الباخوميين ، فهمسوا فيما بينهم قائلين : « إنه رجل بلا جسد »(٣) .

وقد وجدت حركات ديرية أخرى بعد ذلك ، فعمل على الربط بين النظامين

---

(١) أنظر فكرة الاختيار .
Butler, The Historia Lausiaca of Palladuis, 237.
(٢) Hardy, Christian Egypt. 71.
(٣) Palladuis, Laus. Hist., 38—9.

الأنطونى والباخومى ، ومن أشهرها الأديرة الميليطية وحركة الأنبا شنوده .
وتنسب الأديرة الميليطية إلى ميليطيوس الذى كان يتخذ موقفاً متشدداً من قضية المرتدين أثناء اضطهاد دقلديانوس فى مطلع القرن الرابع ، ثم أصبح لأتباعه أديرة ومراكز كثيرة فى مصر الوسطى ، وتتميز هذه الأديرة بنظام أكثر ديمقراطية من النظام الباخومى[1] ولكن هذه الحركة لم تدم طويلا ، وخاصة بعد الوصول إلى اتفاق بينهم وبين كنيسة الأسكندرية كما سبق أن بينا فى فصل سابق .

أما الأنبا شنوده فقد تعلم فى أحد الأديرة الباخومية ، ولكنه لم يرض ذلك النظام ، فاتخذ لنفسه نظاما جديدا طبقه فى ديرين هما « الدير الأبيض » و « الدير الأحمر » فى منطقة سوهاج .

وقد حاول أن يجعل حياة الديرية أكثر صرامة ودقة من نظام باخوميوس ، ولذلك قرر أن يقصر حق دخول أديرته على الأقباط من المصريين فحسب ، ورفض جميع العناصر الأخرى التى كان يسمح لها بالانضمام إلى أديرة باخوميوس ، ثم إنه وضع بعد ذلك نظاماً دقيقاً للحياة فى الدير ، لا يتردد فى تطبيق العقاب الشديد على كل من يتهاون فى القيام بمسئولياته أو يسىء السلوك ، ولو بلغ الأمر إلى حد الضرب المبرح .

على أن أهمية شنوده لا تقتصر على حركته الديرية ، وإنما ترجع أيضا أنه كان ذا ذوق أدبى ، وقد بقيت الكثير من دروسه وعظاته التى كتبها باللغة القبطية بلهجة منطقة أخميم ، وقد ذاع أمر كتاباته بعد ذلك حتى أصبحت اللهجة التى كتب بها هى لغة الكنيسة القبطية لمدة قرون كثيرة .[2]

---

(١) أنظر Bell, Jews and Christians, pp. 38 ff.

(٢) O'Leary, Legacy of Egypt, 320—1.

هكذا نشأت الرهبنة المسيحية فى مصر وأصبح لها نظم وقواعد مطبقة وممارسة على نطاق واسع جداً منذ القرن الرابع . وسرعان ما انتشرت خارج مصر إلى اليونان وسوريا والعراق ، ثم إلى إيطاليا وأسبانيا وفرنسا حتى وصلت إلى أيرلندا غربا فى فترة وجيزة جداً .

د - الحياة الثقافية

أما عن الحياة الثقافية فى العصر البيزنطى فقد اتخذت مظهراً وطابعا جديداً ، نتيجة لتغير الظروف العامة فى الإمبراطورية بأسرها ، ونقصد بها سيادة الدين المسيحى الجديد واتخاذه ديناً رسميا للدولة . فمنذ القرن الرابع الميلادى وإعلان الإمبراطور قسطنطين المسيحية الدين الرسمى للإمبراطورية ، وجدنا المسيحية تشغل الناس وتسيطر على النشاط الفكرى والثقافى فى الإمبراطورية . وكانت مصر والأسكندرية بصفة خاصة إحدى المراكز الهامة للدين الجديد كما سبق أن بينا ، ولم يكن غريبا أن تساهم مصر والأسكندرية بنصيب وافر فى الحركة الثقافية الدينية الجديدة . وكان محور هذه الحركة هو الكتابة فى شرح الدين الجديد وتمجيد أبطاله الأول ، وحين انقسم المسيحيون فى القرن الرابع إلى مذاهب وفرق ، وجدنا أتباع كل مذهب وفرقة يؤلفون ويكتبون فى الدعاية لوجهة نظرهم والدفاع عنها . ومن أشهر هذه الانقسامات ما حدث بين أريوس وأثناسيوس وقد سبقت الإشارة إلى طبيعة هذا الخلاف وتطوره وآثاره السياسية ، ويهمنا هنا أن نشير فى إيجاز إلى المظهر الثقافى لهذه المعركة الدينية . فقد كان كلا الزعيمين من أكثر أهل العصر ثقافة وحدة عقل . أريوس ينتمى إلى مدرسة أنطاكية المسيحية التى كانت متأثرة بتعاليم أوريجينيس المشبعة أساسا بالفلسفة الأفلاطونية . ولهذا جاءت نظرته إلى الدين نظرة فلسفية وخرج بنظريته الثورية التى تدعو إلى الفصل بين الإله الأب والمسيح الإبن ، بناء على ألوهية الأب وإنسانية الإبن . وكانت له كتابات ورسائل فى إثبات وجهة نظره والدعوة

لها ، ولكن نظرا لانهزام مذهبه أمام كنيسة الأسكندرية وغيرها بزعامة القديس أثناسيوس فقد هلكت كتاباته واعتبر مذهبه هرطقة وإلحاداً ، وما وصلنا منها جاء عن طريق كتابات خصومه الذين تصدوا لتفنيدها .

وأخطر خصومه جميعا وأعظمهم من غير شك القديس أثناسيوس . ونحن لا نكاد نعلم شيئا يقينيا عن نسب هذا الرجل الفذ وأبوته ، ولكن هناك من الدلائل ما يرجح أنه من أصل مصرى . وكل ما نعرفه عن طفولته أنه نشأ بمدينة الأسكندرية واستطاع بعقله اللماح أن يصيب من ثقافة المدينة أكبر قدر مستطاع . ونظرا لما اتصف به نفسه من البساطة والبعد عن التعقيد ، مع الحماس الدينى الدافق ، وجدنا أسلوبه فى الكتابة اليونانية يتصف أيضا بالبساطة والوضوح مع القوة فى التعبير . ومن أشهر الأمثلة على ذلك مجموعة كتاباته فى دحض الدعوة الأريوسية Historia Arianorum . ومن كتاباته ذات الأهمية التاريخية أيضا ما يتحدث فيه عن مواقفه الدينية وأعماله مثل Apologia de fuga sua ؛ كما أن كتابه عن حياة القديس أنطون يعتبر من أقدم وأهم الكتابات عن نشأة الرهبانية المسيحية . وغير ذلك كثير ، ولا يسعنا فى هذا المجمل أن نفصل القول تفصيلا .

وينبغى هنا أن نذكر شيئاً أيضاً عن الأدب القبطى . وقد سبقت الإشارة إلى نشأة اللغة القبطية بين المصريين فى الوقت الذى ذاعت فيه المسيحية وانتشرت. وبالرغم من أن كنيسة الأسكندرية والمسيحيين فى المدينة استمروا يستخدمون اللغة اليونانية ، فإن الأقباط المصريين جعلوا اللغة القبطية لغتهم فى مراحلهم التاريخية الجديدة .

وسرعان ما دونوا بها الأدب الجديد ، مبتدئين بالإنجيل ثم الدعوات

والأناشيد الدينية ، ثم توسعوا كثيراً فى التأليف بها عن سير آباء الكنيسة الأولين وخاصة سير القديسين المصريين .

ويمكننا هنا أن نشير إلى مثل واحد منها وهو سيرة القديس مينا ، الذى استشهد فى الاضطهاد الكبير زمن الإمبراطور دقلديانوس ، ودفن رماده (أو هكذا اعتقد القدماء) فى المنطقة التى تنسب إليه إلى الآن فى الصحراء جنوب غرب الأسكندرية . والكتاب(١) ينقسم إلى أجزاء ثلاثة : الاستشهاد والمعجزات والتمجيد . وغنى عن البيان أن مثل هذه الكتابات القبطية ؛ هى فى واقع الأمر نوع من الأدب الشعبى الدينى ، الذى تغلب عليه البساطة المفرطة: بساطة فى الأسلوب وبساطة فى التفكير .

ولا غرابة فموضوعها الأساسى هو المعجزات أى الأعمال — وكثير منها خرافى — التى لا تخضع لقوانين الطبيعة وقدرات الإنسان المألوفة . ولذلك غلب على هذه الكتابات المبالغة النابعة عن العقل الدينى الساذج .

ولعل من المناسب أن نختتم حديثنا عن الحياة الثقافية بكلمة عن مدارس الأسكندرية وجامعتها . استمرت الأسكندرية فى العصر البيزنطى مركزاً للعلم والثقافة يقصد إليها الدارسون من شتى الأقطار . فقد استمرت المدرسة الوثنية بها تتمتع بشهرة عالية فى الفلسفة والرياضة ، مما اضطر الكنيسة إلى أن تنشىء فى المدينة مدرسة مسيحية قوية تقاوم المدرسة الوثنية وتنافسها ، ولتجتذب إلى المسيحية الشباب الجديد .

وكثيراً ما حضر الشباب إلى الأسكندرية لدراسة العلوم الإنسانية (أى الفلسفة الوثنية وآدابها) ثم تحولوا بعد ذلك إلى المسيحية وخاصة فى القرنين

---

(١) J. Drescher, Apa Mena, le Caire, 1946.

الرابع والخامس . ومثال ذلك القديس سيفيروس الذى جاء من أنطاكية وكان لايزال وثنياً ، ودرس العلوم الوثنية فى جامعة الأسكندرية . وهناك التقى بعدد من أعلام العصر مثل زكريا من غزة ، وتوماس الفيلسوف من غزة وربنودوتوس من لسبوس ، وپاراليوس من كاريا (آسيا الصغرى) .

ويرسم لنا زكريا فى كتابه عن سيرة القديس صورة واضحة عن انقسام كل من الأساتذة والطلبة بين المدرستين الوثنية والمسيحية وما كان يحدث بينهم من خلاف بشأن قضايا الدين والفلسفة ، وذلك مثل ما حدث من خلاف أدى إلى شجار من الجانبين حينما اعتنق پاراليوس من كاريا الدين المسيحى[1] .

أما سيفيروس نفسه ، فبعد أن أتم دراسة الفلسفة والأدب فى الأسكندرية ذهب إلى بيروت حيث أعلن اعتناقه للمسيحية ودخل أحد الأديرة راهباً ؛ ثم أصبح فى عام ٥١٢ أسقفاً لكنيسة أنطاكية . فقد كانت كل من الأسكندرية وأنطاكية تتبعان مذهب الطبيعة الواحدة ، وكانت تربطهما روابط قوية ؛ حتى أنه حين تعرض أصحاب هذا المذهب لاضطهاد الدولة فى سيفيروس من أنطاكية ولجأ إلى الأسكندرية عام ٥١٨[2] .

وهناك ظاهرة أخرى جديرة بالملاحظة وهى أن العنصر المصرى ازداد انتشاراً فى الدوائر العلمية فى الأسكندرية ؛ إذ لم يعد علماء الأسكندرية قاصرين على مواطنى الأسكندريين أو الإغريق . ومن الأمثلة التى توضح هذا الاتجاه شخصية الفيلسوف هور أپوللو الذى كان رئيساً للمدرسة الوثنية فى الأسكندرية ، ولعب تلاميذه دوراً أساسياً فى موضوع پاراليوس . وهو ينتسب إلى أسرة من

---

(١) Vie de Severe, par Zacharie Le Scholiastique (P. O.) pp. 22—3.

(٢) أنظر E. R. Hardy, Christian Egypt, pp. 123—132

صعيد مصر ، ويبدو أنه لم يكن أول من حضر من أسرته إلى الأسكندرية ، فمهنة التدريس شأن سائر المهن فى العصر البيزنطى كانت وراثية ، ويذكر هور أبوللو فى إحدى البرديات فى شىء من الفخر أن آباءه من قبله كانوا مدرسين ، وأن والده كان أستاذا فى الأسكندرية كما نعرف من مصادر أخرى أن أفراداً آخرين من أسرته كانوا يشتغلون بالتدريس فى الأسكندرية أيضا.(١)

ومن الشخصيات اللامعة فى تاريخ جامعة الأسكندرية الوثنية فى العصر البيزنطى الفيلسوفة الجميلة هيپاثيا ، وكان والدها أستاذا للرياضة ، وهى أستاذة للفلسفة . وبلغ من شهرتها ومجدها أن قصدها الطلاب واستمع إليها الوثنيون والمسيحيون على السواء ، حتى لقيت مصرعها على آلات التعذيب والحريق أثناء بعض الفتن فى مطلع القرن الخامس .

ومن أشهر الشخصيات التى تلقت المعرفة على يدى هيپاثيا سنيسيوس أسقف كنيسة قورينة فى برقة ، الذى عاش فى السنوات العصيبة فى نهاية القرن الرابع وبداية القرن الخامس حين كانت تضطهد الوثنية بكل الوسائل المشروعة وغير المشروعة . وبالرغم من كونه مسيحياً ورجل دين له مكانته ، فلم يخف إعجابه الشديد بهيپاثيا — رغم وثنيتها — وبمدرسة الفلسفة بالأسكندرية . ويكفى أن نقرأ بعض رسائله التى بقيت لنا لندرك مكانة الأسكندرية كمركز للعلم والتعليم فى ذلك الوقت ، وأنها كانت لا تزال منافساً قوياً لأثينا . وقد عبّر سنيسيوس فى إحدى رسائله عن هذه المنافسة حين زار مدينة أثينا ، وكتب إلى أخيه يقول :

---

(١) J. Maspero, Horapollon et la fin du Paganisme Egyptien, BIFAO, II (1913) p. 184 f. ; cf. P. Cairo Masp. nos. 67020, 67283, 67295.

« إن رحلتي هذه إلى أثينا ستريحني من إكبار أولئك الذين يتعلمون في أثينا ويعودون إلينا . إنهم لا يختلفون في شيء عنا ، نحن بني الإنسان العاديين إنهم لا يعرفون أرسطو وأفلاطون خيرا منا ، ومع ذلك فهم يسيرون بيننا كما لو كانوا أنصاف آلهة بين دواب . . . » .

وفي خطاب آخر يقول :

« . . . لم يبق لأثينا شيء رفيع سوى أسماء البلاد المشهورة ، فاليوم قد تلقت مصر وصانت الحكمة النافعة من هيپاثيا ، قديما كانت أثينا موطن الحكمة ، أما اليوم فتجار العسل هم مصدر فخارها [1] » .

هذه الشهرة العلمية العظيمة التي تمتعت بها جامعة الأسكندرية القديمة كانت تسندها مكتبتها الكبيرة ، التي سبق أن تحدثنا عنها وعن ظروف نشأتها . وظلت الأسكندرية تتمتع بهذه المكتبة حتى نهاية القرن الرابع حين شن أسقف كنيسة الأسكندرية ثيوفيلوس أكبر حملة اضطهاد تعرض لها الوثنيون ، من أجل القضاء عليهم نهائيا .

وكان من أكبر أهدافه القضاء على مدرسة الأسكندرية الوثنية ، ولذلك اتجه إلى تدمير المكتبة وحرقها باعتبارها أكبر مركز للثقافة الوثنية . وتعتبر هذه الحملة أكبر كارثة حلت بمكتبة الأسكندرية ، ولو أنه من المحقق مقدار الأذى الذي لحق الكتب . فمن الثابت أن بعض الكتب قد نجا وأن الأسكندرية استمرت مركزا للمعرفة والتعليم في القرنين الخامس والسادس ، حتى الفتح العربي . ولكن يبدو أن المكتبة المشهورة انتهى تاريخها في

(١) أنظر خطاباته رقم ٥٤ ، ١٣٦ ، خطاباته إلى هيپاثيا : ١٠ ، ١٥ ، ١٦ ، ٣٣ ، ٨١ ، ١٢٤ ، ١٥٤ .

اضطهاد ثيوفيلوس ، ولا نسمع عن وجودها بعد ذلك ، وليس هناك من سبيل إلى ادعاء وجودها وأن العرب قاموا بحرقها بعد الفتح . بل لعل هناك ما يثبت أن العرب سمحوا باستمرار التعليم القديم فى الأسكندرية إذ حضر يعقوب من إيديسا إلى الأسكندرية فى سنة ٦٨٠ ليتم تعلمه بها (١) .

---

(١) A. J. Butler, The Arab Conquest of Egypt, p. 401. ff;
E. A. Parsons, The Alexandrian Library, p. 273 f. ;
W. L. westrman Bull. Fac. Arts, Alexandria, (1953) p. 12 ff.

المراجع

1. N.H. Baynes: The Byzantine Empire, London, 1958.
2. N.H. Baynes: Byzantine Studies and Other Essays, London, 1960.
3. H.I. Bell: Egypt From Alexander the Great to the Arab Conquest, Oxford, 1948.
4. H.I. Bell: Egypt under the Early Principate, in C.A.H., vol.X, Ch.X.
5. H.I. Bell: Jews and Christians in Egypt, London, 1919.
6. H.I. Bell: Egypt and the Byzantine Empire, in the Legacy of Egypt, pp.332-348, Oxford, 1941.
7. D. Van Berchem: L'Armée de Diocletien et la Reform Constantinienne, Paris, 1952.
8. Boak: A History of Rome.
9. J. B. Bury: History of the Later Roman Empire.
10. M. Cary: History of Rome, London, 1936.
11. V. Chapot: L'Egypt Romaine (dand G. Hanotaux, Histoire de la Nation Egyptienne, tome III) Paris 1933.
12. J. M. Creed and De Lacy O'Leary: The Egyptian Contribution to Christianity, in The Legacy of Egypt, pp.300- 332, Oxford, 1941.
13. Ch. Diehl: L'Egypte Chrétienne et Byzantine, tome III dans G. Hanotaux Histoire de la Nation Egyptienne, Paris, 1933.
14. R. M. French: The Eastern Orthodox Church, London, 1951.

15. T. Frank: An Economic Survey of Ancient Rome, vols.6, Ballimore, 1938.

16. Ed. Gibbon: The Decline and Fall of the Roman Empire, ed. J.B. Bury, London, 1923.

17. E. R. Hardy: Christian Egypt, New York, 1952.

18. E. R. Hardy: The Large Estates of Byzantine Egypt, New York, 1932.

19. Heichelheim and Ley: A History of the Roman People.

20. A. C. Johnson and L.C. Lewis: Byzantine Egypt, Economic Studies, Princeton, 1949.

21. A. C. Johnson and West: Currency in Roman and Byzantine Egypt, New York, 1951.

22. A. C. Johnson: Roman Egypt, vol.II in An Economic Survey of Ancient Rome, ed. T. Frank.

23. A. C. Johnson: Egypt and The Roman Empire.

24. A. H. M. Jones: Cities of the Eastern Roman Provinces, Oxford, 1970. (2nd ed.)

25. A. H. M. Jones: The Greek City from Alexander The Great to Justinian, Oxford, 1938.

26. A. H. M. Jones: Constantine and the Conversion of Europe, London, 1948.

27. A. H. M. Jones: The Later Roman Empire, Oxford, 1964.

28. A. H. M. Jones: A History of Rome Through The Fifth Century, New York, 1968.

29. A. H. M. Jones: The Decline of the Ancient World, London, 1969

30. A. H. M. Jones and V. Eherenberg: Documents Illustrating the Reign of Augustus, Oxford, 1970

31. P. Jouguet: La vie Municipale dans l'Egypte Romaine, Paris, 1911.

31. P. Jouguet: L'Egypte Greco- Romaine de la Conquête d'Alexandre à Diocletien, dans précis de l'Histoire d'Egypte, tome 1, Le Caire, 1932.

32. P. Jouguet: La Domination Romain en Egypte aux deux premiers siècles après J. Chr , Alexandrie 1947.

33. J. Lesquier: L'Armee romaine d'Egypte d'August à Diocletien, Le Caire 1918

34. F. Lot. La fin du monde Antique, Paris, 1951.

35 J Maspero: Histoire des Patriarches d'Alexandrie, Paris, 1923.

36. J. Maspero: Organisation Militaire de L'Egypte Byzantine, Paris, 1952.

37 J G. Milne: A History of Egypt Under The Roman Rule, London, 1924.

38. Th Mommsen: The Provinces of The Roman Empire, trans. by W. P. Dickson, London, 1886.

39. H. A. Musurillo: The Acts of the Pagan Martyrs, or Acta Alexandrinorum, Oxford, 1954.

40 G. Ostrogorsky: History of the Byzantine State, trans. J. Hussey, Oxford, 1956.

41. M. Rostovtzeff: Social and Economic History of the Roman Empire, Oxford, 1970.

42. G. Rouillard: L'Administration Civile de l'Egypte Byzantine, Paris, 1928.

43. G. Rouillard: La vie Rurale dans l'Egypte Byzantine, Paris, 1953.

44. S. Runcimar: Byzantine Civilization, London, 1961.

45. R. Taubenschlag: Law of Greco- Roman Egypt, Warsw, 1968.

46. A. Vasiliev: History of the Byzantine Empire, Oxford, 1952.

47. S. Le Roy Wallace: Taxation in Egypt from Augustus to Diocletian, New York, 1938.

المراجع العربية :

دكتور إبراهيم نصحي : حضارة مصر في العصر الروماني (تاريخ الحضارة المصرية ـ المجلد الثاني) .

د . إبراهيم نصحي : تاريخ الرومان .

د . عبد اللطيف أحمد علي : مصر والإمبراطورية الرومانية .

د . السيد الباز العريني : مصر البيزنطية .

د . مراد كامل : حضارة مصر في العصر البيزنطي (تاريخ الحضارة المصرية ـ ٢٠٥) .

المحتويات

الباب الأول

النظام الامبراطوري

الباب الثاني

مصر الرومانية

الباب الثالث

مصر في العصر البيزنطي